A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
1866

UNIVERSITY
LIBRARY

B. LIBRAR

كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

« تأليف السيدة ا٠ل٠ بتشر الانكليزية »

المجلد الاول

« ثمن جميع المجلدات اربعون غرشاً صاغاً »

(طبع على نفقة صاحب جريدة مصر)

سنة ١٩٠٠ افرنكية الموافقة سنة ١٦١٦

طبع بمطبعة مصر بالفجالة

962
B98t.A
V.1
217.78
19182
هدية من ...

مقدمة المؤلف

ان الغرض الذي لاجله وضعت هذا الكتاب التالي هو الابحاث التي وصل اليها جمهور المؤرخين والباحثين فيما يتعلق ببقية الامة المصرية القديمة أو هم الاقباط وهو يبتدئ من تاريخ دخول الديانة المسيحية هذه البلاد لحد الآن . وتاريخ هذه الامة ممتزج من اوله لآخره باقوام كثيرة مختلفة اغارت على البلاد وملكتها من رومان واروام وعرب واكراد وشراكسة واتراك وغيرهم وهم الذين اذلوا المصريين وجعلوا بلادهم مستباحة لهم . ولقد اسفر بحث الباحثين المدققين على ان اعقاب المصريين الاصليين الباقين الى الآن هم الاقباط المسيحيين لا المسلمين وهم الذين عنيت انا بعد عناء كثير وشغل متواصل بوضع هذا التاريخ الوافي عنهم ليسهل على القراء معرفة اصلهم ونسبهم وديانتهم بدون تعب

والذي حدى بي الى هذا العمل هو اولاً رغبتي في افادة الطلاب بتاريخ هذه الامة القديمة وثانياً اقامتي مدة عشرين سنة في القطر المصري اذ قدرت ان اطوف جائلة في اكثر القرى والكفور حيث رأيت فيها المسيحيين الاقباط لازالوا على عهدهم الاول من التمسك بالعقائد والتقاليد القديمة المنقولة عن الآباء الاولين حيث سمعت من افواه البسطاء حكايات وروايات عما كان للمصريين من المجد والسؤدد مما اثبته البحث واكده العلم . ولقد تعبت كثيراً في الوقوف على الازمنة الصحيحة ولست اقول انني في عصمة في عملي هذا ولكنه يمكن ان يكون اكثر من غيره ضبطاً واتقاناً . فاذا قام احد غيري وكتب تاريخاً اصح من هذا فلا ريب ان معظم الفضل ينسب الي ... السابقة في حلبة هذا الميدان وكنت قد وضعت جدولاً يحتوي اسم كل ملك ... زير او امير او خليفه او سلطان او بطريرك له علاقة بمصر او ملك عليها ولكنني

رايت نشره لا يفيد القراء كثيرًا لطوله فاقتصرت على نشر جدول البطاركة فقط ·

ولا ريب في ان القراء سيجدون اختصارًا كثيرًا في الاربعة القرون الاولى فيما يختص بالامور اللاهوتية ولكنهم سيشكرونني كثيرًا لانني توسعت لم في ذكر حوادث نحو ١٩٠٠ سنة تبتدئ من حكم البطالسة لحد الآن

ولست اخفي عن القارئ الحيرة التي وقعت فيها في اختيار بعض الحقائق التاريخية التي كنت اشك في صحتها لانها كتبت بايدي اناس لا اشك في تحيزهم ووجود ضلع لهم مع الذين كتبوا عنهم كتاريخ القرن السابع مثلا الذي كتب اكثره جماعة المسلمين عن المسلمين انفسهم ولكن على اي حال فان تاريخ الكنيسة القبطية اجماليًا لا يقل في الفخر والمجد عن تاريخ كنيسة اخرى غربية بل قد يزدري باكثرها . فانه اذا كان الانكليزي مثلا يفتخر بمجد كنيسته وقديسيها فيجب عليه ان يتذكر انه في المسيح لا فرق بين اليهودي واليوناني ولا تمييز بين العبد والحر · كذا لا يعرف المسيح يونانيًا او روميًا انكليزيًا او مصريًا بل الجميع سيقفون امامه يوم الدينونة و يقدمون حسابًا عما جنته ايديهم · اذًا فالعبرة ليست بالكنيسة او بالجنسية بل بالايمان والاعمال

اما تاريخ الكنيسة القبطية وحدها فقد كتبه كثيرون من اعاظم رجالها الاولين بداء بكتابته سويرس اسقف الاشمونين (بمركز ملوي بمديرية اسيوط) في النصف الثاني من القرن العاشر واتمه ميخائيل اسقف طانيس لحد سنة ١٢٤٣ وقد بقيت نسخة واحدة من هذا التاريخ هي الآن موجودة في باريس ولم يعتن احد بترجمتها الى احدى اللغات الاوروبية وقد اخذت هذا التاريخ من عدة مؤلفات كثيرة بينها كتابان قبطيان عظيما القيمة اعتمدت عليهما في اكثر الحقائق التي نقلتها

هذا ولا يسعني الا الثناء الكثير على حضرات مرقص بك سميكه الذي ساعدني كثيرًا في وضع هذا الكتاب والاستاذ فولرز بالكتبخانة الخديوية ولقريبي الذي اخذ بيدي ومهد لي سبل الصعوبات الجمة التي اعترضتني في طريقي ولا زلت مديونة له في كل عمل من الاعمال

(الامضاء)

تحريرًا بكنيسة القاهرة سنة ١٨٩٧ (مسز) ا . ل . بتشر

فهرست المجلد الاول

		وجه
الفصل الاول	مجيء القيصر الى مصر	١
» الثاني	مجيء المسيح	١٤
» الثالث	كرازة مار مرقص	٢٣
» الرابع	بطريرك واحد وسبعة قياصرة	٣٣
» الخامس	رواد النيل في القرن الثاني	٤٣
» السادس	المدرسة اللاهوتية الاولى	٥٣
» السابع	اوريجانوس	٦٣
» الثامن	اضطهاد ديثيوس للمسيحيين	٩٦
» التاسع	اضطهاد فالريان للمسيحيين	١٢٢
» العاشر	مار آمون ومار انطونيوس	١٤٦
» الحادي عشر	الجهاد في سبيل الحرية	١٥٥
» الثاني عشر	تاريخ الشهداء	١٦٩
» الثالث عشر	جدال اريوس	١٩٦
» الرابع عشر	البدعة والانشقاق	٢٠٨
» الخامس عشر	غريغوريوس وجورجيوس من كبدوكية	٢٣٣
» السادس عشر	اوبة اثناسيوس و وفاته	٢٥٨
» السابع عشر	انحلال الامة المصرية	٢٧١
» الثامن عشر	لاخراسقف آريوسي في الاسكندرية	٢٨٥
» التاسع عشر	سقوط هيكل سيرابيس	٣٠١
» العشرون	الاخوة الطوال القامة	٣١٨
» الحادي والعشرون	سينيثوس التوريني	٣٢٩

مقدمة

صاحب جريدة مصر
(الذي وقف على طبع الكتاب)

اذا قرأ القارئ تاريخ الامة القبطية التي عنت بوضعه هذه السيدة الانكليزية الفاضلة يرى انها أمة لم ير لها نظير بين أمم الارض في المصائب التي تراكمت عليها من سيف ونار واضطهاد وعذاب وحروب داخلية وخارجية وثورات اهلية وغارات دينية وغير هذه البلايا التي لو حاقت واحدة منها بأقوى أمم الزمان لما بقي لها في عالم الوجود وجود. ان القارئ الفطن اذا انعم نظره في هذه النكبات التي حلت بهذه الامة الاسيفة مدة عشرين قرناً لابد وان يشفق عليها ويرثي لتضعضع حالها الحاضر ويرى انها قاومت الدهر بقوة تخالف القوة المحدودة في الناموس الطبيعي

ولا مراء في ان الامة القبطية الحاضرة بما عرف عنها من الذكاء الخارق والفطنة الموروثة تستفيد من تاريخها هذا فائدة لا تجدها في غيره اذ تقف على حقيقة ما فيها باجلى بيان ويتجلى لها مجدها القديم الذي انهار وضاع فتعمل على استرجاعه وتعرف قوة آبائها وسؤددهم فتسعى في اعادته وازاحة الستار عنه

ومعلوم للقراء ان هذا التاريخ يمتاز عن غيره من التواريخ الاخرى التي كتبت عن الامة القبطية في انه صحيح دقيق لم يترك شاردة إلا وسجلها في باطنه فضلاً عن انه كتب بروح خالية من الغرض أو الجبن الذي اضاع اكثر الحقائق التاريخية في التواريخ الاخرى التي لها علاقة بالقرن السابع كما شهد بذلك كل من قرأ التواريخ التي ظهرت مؤخراً بشأن هذه الامة فانه يجد روح الخوف من لا شيء يرف على كل صفحة من صفحاتها

هذا وكنا قد عزمنا على اصدار هذا التاريخ في مجلدين ولكن لطوله وكبر حجمه وتشوق الناس الى قراءته اصدرناهذا المجلدبعد تقسيم الاصل الانكليزي الى اوبعة مجلدات سيبرز الثاني والثالث والرابع منها بالتوالي عن قريب

ونحن واثقون في ان اقبال الادباء عليه يكون بموازاة اهميته وفائدته هذا ولا يسعنا إلا امتداح غيرة وهمة حضرة النشيط اسكندر افندي تادرس احدموظفي نظارةالداخليه الذي عني بترجمة هذا الكتاب بالدقة التامة واحكم تطبيق الترجمة على الاصل كما شهد بذلك النابغون في اللغة الانكليزية من ابناء أمتنا القبطية الذين راجعوا الترجمة بامعان وحكموا بصحتها نفع الله بمثله وامثالهم الامة والوطن

﴿ تادرس شنوده المنقبادي ﴾

جدول بطاركة الكنيسة القبطية

	اسماء البطاركة	سني جلوسهم		اسماء البطاركة	سني جلوسهم
١	مار مرقس	سنة ٤٥ ب·م	٣٥	دميان	سنة ٥٧٠ ب·م
٢	انيانوس	« ٦٢ «	٣٦	انسطاسيوس	· ٦٠٣ ·
٣	ايليوس	« ٨٢ «	٣٧	اندرونيكس	· ٦١٤ ·
٤	سردو	« ٩٥ «	٣٨	بنيامين الاول	· ٦٢٠ ·
٥	بيريموس	« ١٠٦ «	٣٩	اغاثو	· ٦٥٩ ·
٦	يسطس	« ١١٨ «	٤٠	يوحنا الثالث	· ٦٧٧ ·
٧	يومينوس	« ١٢٩ «	٤١	اسحق	· ٦٨٦ ·
٨	مرشيون	« ١٤١ «	٤٢	سمعان الاول	· ٦٨٩ ·
٩	سيلاديون	« ١٥٢ «	٤٣	اسكندر الثاني	· ٧٠٣ ·
١٠	اغربينوس	« ١٦٦ «	٤٤	قصماص الاول	· ٧٢٦ ·
١١	بوليانوس	« ١٧٨ «	٤٥	تاوضروس	· ٧٢٧ ·
١٢	ديمتريوس الاول	« ١٨٨ «	٤٦	مخائيل الاول	· ٧٤٣ ·
١٣	هراكلاس	« ٢٣٢ «	٤٧	مينا الاول	· ٧٦٧ ·
١٤	ديوثيوس	« ٢٤٦ «	٤٨	يوحنا الرابع	· ٧٧٦ ·
١٥	مكسيموس	« ٢٦٤ «	٤٩	مرقس الثاني	· ٧٩٩ ·
١٦	ثيوناس	· ٢٨٢ «	٥٠	يعقوب	· ٨١٩ ·
١٧	بطرس الاول	· ٣٠٠ «	٥١	سمعان الثاني	· ٨٣٦ ·
١٨	اخيلاس	· ٣١١ «	٥٢	يوسف	· ٨٣٧ ·
١٩	اسكندر الاول	· ٣١٣ «	٥٣	مخائيل الثاني	· ٨٤٩ ·
٢٠	اثناسيوس الاول	· ٣٢٦ «	٥٤	قصماص الثاني	· ٨٥١ ·
٢١	بطرس الثاني	· ٣٧٣ «	٥٥	شنوده الاول	· ٨٥٩ ·
٢٢	تيموثاوس الاول	· ٣٨٠ «	٥٦	مخائيل الثالث	· ٨٦٩ ·
٢٣	ثوفيلس	· ٣٨٤ «	٥٧	غبريال الاول	· ٩١٠ ·
٢٤	كيرلس الاول	· ٤١٢ «	٥٨	قصماص الثالث	· ٩٢١ ·
٢٥	ديسقورس الاول	· ٤٤٤ «	٥٩	مكاريوس الاول	· ٩٣٣ ·
٢٦	تيموثاوس الثاني	· ٤٥٧ «	٦٠	طومانيوس	· ٩٥٣ ·
٢٧	بطرس الثالث	· ٤٧٧ «	٦١	مينا الثاني	· ٩٥٦ ·
٢٨	اثناسيوس الثاني	· ٤٩٠ «	٦٢	افرايم	· ٩٧٥ ·
٢٩	يوحنا الاول	· ٤٩٧ «	٦٣	فيلوثاوس	· ٩٧٩ ·
٣٠	يوحنا الثاني	· ٥٠٧ «	٦٤	زخارياس	· ١٠٠٤ ·
٣١	ديسقورس الثاني	· ٥١٧ «	٦٥	شنوده الثاني	· ١٠٣٢ ·
٣٢	تيموثاوس الثالث	· ٥٢٠ «	٦٦	خريستودلوس	· ١٠٤٧ ·
٣٣	تيودوسيوس ١	· ٥٣٦ «	٦٧	كيرلس الثاني	· ١٠٧٨ ·
٣٤	بطرس الرابع	· ٥٦٨ «	٦٨	مخائيل الرابع	· ١٠٩٢ ·

	اسماء البطاركة	سني جلوسهم
٦٩	مكاريوس الثاني	سنة ١١٠٢ ب·م
٧٠	غبريال الثاني	· ١١٣١ ·
٧١	مخائيل الخامس	· ١١٤٥ ·
٧٢	يوحنا الخامس	· ١١٤٦ ·
٧٣	مرقس الثالث	· ١١٦٦ ·
٧٤	يوحنا السادس	· ١١٨٩ ·
٧٥	كيرلس الثالث	· ١٢٣٥ ·
٧٦	اثناسيوس الثالث	· ١٢٥٠ ·
٧٧	غبريال الثالث	· ١٢٦٩ ·
٧٨	يوحنا السابع	· ١٢٧١ ·
٧٩	ثودسيوس الثاني	· ١٢٩٤ ·
٨٠	يوحنا الثامن	· ١٣١١ ·
٨١	يوحنا التاسع	· ١٣٢١ ·
٨٢	بنيامين الثاني	· ١٣٢٧ ·
٨٣	بطرس الخامس	· ١٣٤٠ ·
٨٤	مرقس الرابع	· ١٣٤٨ ·
٨٥	يوحنا العاشر	· ١٣٦٣ ·
٨٦	غبريال الرابع	· ١٣٧١ ·
٨٧	متى الاول	· ١٣٧٥ ·
٨٨	غبريال الخامس	· ١٤٠٩ ·
٨٩	يوحنا الحادي عشر	· ١٤٢٧ ·
٩٠	متى الثاني	· ١٤٥٣ ·
٩١	غبريال السادس	· ١٤٦٧ ·
٩٢	مخائيل السادس	سنة ١٤٧٥ ب·م
٩٣	يوحنا الثاني عشر	· ١٤٨١ ·
٩٤	يوحنا الثالث عشر	· ١٥٢١ ·
٩٥	غبريال السابع	· ١٥٢٦ ·
٩٦	يوحنا الرابع عشر	· ١٥٧٠ ·
٩٧	غبريال الثامن	· ١٥٨٥ ·
٩٨	مرقس الخامس	· ١٦٠٢ ·
٩٩	يوحنا الخامس عشر	· ١٦١٩ ·
١٠٠	متى الثالث	· ١٦٢٩ ·
١٠١	مرقس السادس	· ١٦٤٦ ·
١٠٢	متى الرابع	· ١٦٦٠ ·
١٠٣	يوحنا السادس عشر	· ١٦٧٦ ·
١٠٤	بطرس السادس	· ١٧١٨ ·
١٠٥	يوحنا السابع عشر	· ١٧٢٧ ·
١٠٦	مرقس السابع	· ١٧٤٥ ·
١٠٧	يوحنا الثامن عشر	· ١٧٧٠ ·
١٠٨	مرقس الثامن	· ١٧٩٧ ·
١٠٩	بطرس السابع	· ١٨٠٩ ·
١١٠	كيرلس الرابع	· ١٨٥٤ ·
١١١	ديمتريوس الثاني	· ١٨٦٢ ·
١١٢	كيرلس الخامس (وهو البطريرك الحالي)	· ١٨٧٥ ·

الجزء الاول

الفصل الاول

«مجيء قيصر الى مصر»

قد يتوهم المرء ان تاريخ قرن واحد مما لا يعتد به كثيراً في حياة امة يقدّر عمرها بالقرون لا بالسنين ويقتضي لتشييد معبدها الاعظم اكثر من الفي سنة ولتداعي دعائمه الى السقوط نحو مثل هذا الامد ايضاً من الزمان ولكن الحقيقة ان في ظرف مائة سنه فقط زار مصر ثلاثة زائرين تغيرت فيها كافة احوالها ومظاهر حياتها الملية تغيراً كلياً مدة اجيال مديدة . وبيان ذلك انه فيما بين السنة الثلاثين قبل الميلاد والسنة الستين بعده شهدت مصر مجيء اوغسطس قيصر أولا ثم مجيء السيد المسيح ثم مجيء مار مرقس الانجيلي

أما القيصر الذي في عهده ضمت مصر القديمة الى المملكة الرومانية فهو أوغسطس قيصر الذي جاء عنه في العهد الجديد بانه «امر بان تكتتب جميع المسكونة» وكان وقوع مصر في قبضة يده في السنة الثلاثين قبل

التاريخ المسيحي فجعلها ولاية رومانية ولو لم يكن الرومان منذ بداية أمرهم الى نهايته الا طائفة أجنبية يحتقرها المصري ويبغضها ولكنه يخافها ويخشى بأسها على عكس ما كان بينه وبين اليونان الذين سبقوا الرومان اليها . على ان مصر لم تعتبر قط اقليماً رومانياً بحصر اللفظ بل كانت اشبه شيء بمرتزق خصوصي للامبراطور القابض على زمام السلطنة الرومانية بحيث كان لا يجوز لاحد ما من اعضاء مجلس شيوخ الدولة ان يطأ أرضها أو يقيم بها

ولاجل الاحاطة باطراف موضوع تاريخنا سنبسط في هذا الفصل بالايجاز حالة مصر التي كانت عليها قبل الفتح الروماني أي قبيل دخول النصرانية اليها بزمن قليل فنقول :

كان سكان مصر لذلك العهد يؤلفون على الاجمال من ثلاث طوائف : اليونان واليهود والمصريين ومن هؤلاء يؤلف العدد الاكبر والسواد الاعظم أما الآن فلا يبلغ عدد الاقباط في نفس بلادهم (ونعني بالاقباط المصريين الذين لاتشوب جنسيتهم شائبة الاختلاط) نصف ما بلغ عدد اليهود المستوطنين بديار مصر وقت الفتح الروماني . والسبب في زيادة هذين العنصرين الاجنبيين هو استمرار مهاجرة اليونان واليهود الى هذا القطر مدة حكم البطالسة عليه الى درجة اصبح فيها كل فريق منهما حينئذ عبارة عن امة اجنبية مستقرة في البلاد ممتازة بلغتها وشريعتها عن سواها

أما اليونان فكانوا مع طول عهدهم بمصر وتناسلهم ونموهم بين مائها وسمائها اجيالاً عديدة لا يزالون يضعون انفسهم في منزلة النزلاء والفاتحين ولا يرضخون لسيادة الرومان وقياصرتهم الا ظاهرياً غير ان البأس والحمية الحربية التي كانت شعاراً لاجدادهم اصبحت لهذا العهد فيها أثراً بعد عين ولم يبق لهم ما يشغلهم من الشؤون الا المتاجر والاشغال الادبية وكانوا يقيمون في مدنهم الخاصة بهم وهي في الغالب عبارة عن مراكز تجارية محصنة يعيشون فيها احراراً هازئين بحكامهم من الرومان كأنهم لم يرضخوا لنيرهم الا لان ذلك أقرب الطرق للوصول الى ما يبتغونه من الثروة واليسار وبهذه الحالة كان القليل من الجنود الرومانية يكفي لابقاء المملكة المصرية برمتها في حالة الطاعة والخضوع

وكانت الاسكندرية أم المدائن اليونانية في مصر أو هي باريس العالم القديم باسره . وكانت بطليموسة وهي مدينتهم الاخرى في هذا القطر اكبر مدن الصعيد وقت افتتاح الرومان لمصر ولا تكاد تقل في الاهمية عن مدينة ممفيس المصرية . اما هليوبوليس مدينة العلم القديمة ومدرسة مصر الجامعة ومقصد الطلاب من قدماء فلاسفة اليونان فكانت قد اصبحت في ذلك الحين قاعاً صفصفاً لا ترى فيها سوى بعض أطلال بالية يقال انها بقايا الدور التي سكنها افلاطون وغيره من فلاسفة اليونان

وكان على الضد من ذلك مدينة بابليون مفتاح الجنوب التي وضع الفرس اساسها واخذت في الاتساع والنمو حتى بلغت من الاهمية مبلغاً عظيماً

الى أن جاء الرومان فزادوا في عظمتها بتشييد الحصون والمعاقل وانشاء المباني الواسعة بها

ومن اقدم مواطن اليونان في الديار المصرية مدينة نوكراتيس وكان فيها مدرسة جامعة شهيرة بقيت ابوابها مفتوحة الى اواخر القرن الثاني بعد الميلاد

اما مدينتا طيبة وابيدوس فكانتا كلتاهما قد انحطتا الى درجة قرية بسيطة . واما قورينة وهي مستعمرة يونانية تابعة لمصر منذ اكثر من مائتي سنة ومعتبرة جزءاً منها فكانت لا تزال زاهية بمدرستها الجامعة عامرة بتجارتها الواسعة وقد استمرت كذلك الى نهاية القرن الرابع بعد المسيح

الحالة الدينية — كانت الطوائف الثلاث متمسكة كل بدينها الاصلي غير ان اليهود والمصريين كانوا اشد تمسكاً وتعصباً من اليونان الذين شاع بينهم وقتئذ نكران الالوهية ونبذ معتقداتهم الدينية وعدم الاكتراث سواء بامر معبوداتهم او امبراطرتهم . وكان الملك بطليموس سوتير قد حاول ايجاد معبود يشترك رعاياه من مصريين ويونانيين في عبادته فابتنى في اسكندرية هيكل سيرابيس العظيم واقام فيه تمثالاً هائلاً من صنع مدينة سينوب باقليم بافليجونيا اتخذه اليونان والمصريون كناية عن الاله هادس واطلق عليه اولئك اسم (يلونون) وهولاء اسم (اسارابي) اي اوزيرس المخفي ثم لم يمض عليه قرن بعد ذلك حتى غلبت كلمة سيرابيس التي هي تحريف (اسارابي)

فصارت علماً عليه . وهذه العبادة كانت الجامعة الوحيدة بين اليونان والمصريين غير انها مع كل ذلك لم تتعدّ اسوار اسكندريه حتى زمن دخول النصرانية الى بلاد مصر

اما ديانة المصريين القديمة فكانت قد اندرست منذ عهد طويل وحل محلها مجرد عبادة الحيوانات . وكأنما تلك المعاني الروحية والاصول الادبية التي كان لها اشد تأثير على عقول الملوك وفلاسفة الازمنة الغابرة قد فارقها ولم يبق منها أثر الا ما كان مستتراً طيَّ حكاية لا تعقل او خرافة لا تصدق واصبحت البهائم والطيور التي لم تكن في الاصل على ما يظهر سوى علائم على الاقاليم المختلفة او شعاراً متخذاً للدلالة على كل منها موضوع عبادتهم الآن كالهة في السر والعلن وكانت سبباً لمنازعات ومنافسات شديدة كثيراً ما أدت لاصلاء نار حرب داخلية بين اقليم وآخر وكان هذا من اقوى عوامل تشتيت شمل الامة وعجزها عن الاتحاد والوقوف في وجه اي عدو كان ولو اجنبياً عنها . وكان المعبود الاعظم في مدينة ممفيس الثور أبيس وفي أومبوس التمساح وفي اوكسيرينكون نوع مخصوص من سمك النيل وفي مدينة سيوط الذئب وفي سينوبوليس الكلب وهلمَّ جرا مما يطول شرحه . نعم ان كثيرين من الكهنة والخواص كانوا لا يزالون يعتقدون باله واحد في ثلاثة اقانيم وانه الفاعل لكل خير وان بقية الآلهة ليست الا عبارة (رمز) عن مظاهره وتجلياته المتعددة غير ان هؤلاء

كانوا يترفعون على العامة والسوقة ويعتبرونهم احقر من ان يتداخلوا في منافساتهم بشأن الطيور والحيوانات التي حلت محل الدين عندهم . وكان لهم مثل يضربونه في هذه الاحوال يظهر منه انه كان لا يزال في المصريين لذلك العهد من لا يعتد بظواهر التدين ولا يعتبر التمسك بشعائر وتقاليد الدين الخارجية شيئاً بالنسبة للايمان الصحيح مع عيشة التقوى وهذا هو المثل « ليس بالكتان الابيض وقص الشعر تكون تقوى ايزس »

وكان المصريون يمارسون كثيراً شكلاً مخصوصاً من الرياضة الروحية يظهر انه يلازم في الغالب حالة الامة اذا صارت الى درجة سافلة في معتقدها فمن ذلك مزاولتهم استحضار ارواح الموتى في نظير جعل يأخذونه من الطالب واستجواب تلك الارواح على ما يلقى عليها من الاسئلة وكذلك استعمال التكلم من الباطن واستخدام ذلك في مثل ما ذكر من الاغراض ولا يخفى ان هذا الفن بقي معروفاً في مصر على الدوام

اما فيما يتعلق بالصناعات فلنذكر اولاً ان المصريين في ذلك الوقت كانوا قد عادوا لضرب العملة في بلادهم واستمروا على ذلك عدة قرون حتى قبيل تولي كلوديوس قيصر وتعتبر المجموعة الكاملة من هذه النقود من اثمن الآثار لدى المؤرخين . ثم انهم كانوا يستخدمون العبيد والمجرمين والاشقياء في استخراج الكميات الوافرة من محاجر البرفير ومعادن الزمرد التي اندثر اثرها بعد ذلك حتى لم يخطر على البال وجودها اصالة الى أن اكتشفت ثانية في ايامنا هذه . وكانت في مصر ايضاً معامل

ومصانع طائرة الصيت في جميع انحاء العالم المتمدن وقتئذ . فمنها ما كان خاصاً بتركيب الادوية والعقاقير وانواع الاصبغة . ومنها معامل الورق والحرير والزجاج هذا فضلاً عن شهرتها في المحاصل الزراعية . وكفى دليلاً عليها ان مصر كانت تقدم الى سادتها الرومان منذ توليهم عليها مقادير جسيمة جداً من الحنطة في كل عام . وكان المصريون لذلك الحين يصطنعون من الورق ثمانية انواع مختلفة ثم اخترعوا نوعاً تاسعاً منه في عهد كلوديوس قيصر فسموه باسمه اكراماً وتعظيماً له . وكانت تصنع الكميات الوافرة ايضاً من منسوجات الكتان والقطن وكذلك من نبيذ العنب ولكنه كان لا يضاهي انبذة اليونان وايطاليا في جودته . وكانت تستخرج ايضاً بمصر الجعة (البيرا) ويشرب المصريون منها مقادير وافرة ولا تزال تصنع الى يومنا هذا غير ان زراعة الكروم قد بطلت برمتها تقريباً لهذا العهد لاسباب سنأتي على ذكرها بعد

اما عن سودان مصر الذي كان في عهد الفراعنة وبعض ملوك البطالسة محتوياً على اقاليم تعتبر من اهم اجزاء المملكة المصرية فلم يكن لمصر منه قيد شبر باقياً حينما افتتحها الرومان بل لم يكن وقتئذ يرد الى اصوان مما يليها جنوباً اي شيء كان من بضائع ذلك السودان ومحاصيله عن طريق النيل واصبحت حاصلات افريقيا الجنوبية تأتي بها السفن الى ميناء بيرنيس بحراً فقط . ثم بعد ان تم فتح الرومان لمصر لم يتيسر لهم مطلقاً توسيع نطاق فتوحاتهم الى ما يجاوز وادي حلفا بل كثيراً

ما التزموا ان يعتبروا حدهم الجنوبي الى الشمال من حلفا . وزد على ذلك انه في عهد اوغسطس قيصر ارسلت كنداكة ملكة الحبشة جيشاً مؤلفاً من ثلاثين الف مقاتل الى مصر لشن الغارة عليها فظفر هولاء الاحباش بالجنود الرومانية في جزيرة الفنتين (أنس الوجود) واصوان وجزيرة اصوان (فيلا) ولكنهم تقهقروا بعد ذلك من امام القائد الروماني جاوس فاقتفى أثرهم الى ان دخل مدينة بناطة عاصمة مملكتهم ظافراً منصوراً ومن ثم قفل راجعاً الى مصر

ولنرجع الى الكلام عن شعوب مصر فنقول : لا شك ان عدد اليهود كان يبلغ مليوناً من النفوس تقريباً وقت افتتاح الرومان لمصر فان مهاجرتهم اليها استمرت عدة قرون منذ قام يوحنا بن قاريح واخذ بقية يهوذا مع ارميا النبي وباروخ بن نيريا وأتى بهم رغماً عن معارضة ارميا الى ارض مصر الى تحفنحيس ومجدل ونوف وارض بثروس فحلت عليهم بمصر مصائب كثيرة كما تنبأ عن ذلك ارميا . غير ان ذلك لم يكن ليوقف تيار المهاجرة بدليل انه بعد ثلاثمائة سنة من ذلك التاريخ اي عقيب اغارة الفرس على مصر وانتقالها لليونان من بعدهم كان عدد اليهود فقط الذين عتقهم من الرق بطليموس فيلادلفوس يبلغ في مصر مائة وعشرين الفاً وهؤلاء طبعاً هم الذين كانوا أخذوا اليها رغم انفسهم في اثناء حروب ابيه مع ملك سوريا ولكن لا شك انه كان يوجد بمصر الوف غيرهم من اليهود الاحرار الذين قصدوها طوعاً واختياراً منجذبين اليها بما

اشتهر عنها من وفرة خيراتها وحسن نظام حكومتها بحيث لا يصح لنا مطلقاً الحكم بان المائة وعشرين الفاً المذكورة آنفاً كانت عبارة عن جميع اليهود القاطنين بمصر في زمن بطليموس فيلادلفوس . وفضلاً عما تقدم فانه في عهد بطايموس فيلومتر التجاء اونياس بن حنانيا رئيس الكهنة الى مصر وأذن له الملك بتشييد الهيكل الذي اشتهر بعد ذلك باسم هيكل أونياس بمدينة ليونتوبوليس بقسم عين شمس باقليم بوباستس فزادت بذلك اسباب الرغبة من اليهود في المجيء الى مصر والتوطن فيها حتى انه في زمن الفتح الروماني كان موطن السواد الاعظم من يهود مصر بقسم عين شمس (هليوبوليس) أو بمدينة الاسكندرية حيث اختصوا منها بقسمين كاملين من اقسامها الخمسة

وكان افراد كل من طائفتي اليونان واليهود الاجنبيتين متمتعين بجميع الحقوق المدنية والسياسية اما المصريون ابناء البلاد فكانت محرمة عليهم هذه المزايا فلا يتقاضى اليهودي مثلاً او اليوناني الا امام قضاة من ابناء جلدته اما المصري فيحاكمه الاجنبي . وقد سعى يونان اسكندرية في سلب الحقوق المذكورة من اليهود ايضاً مدة وجود اوغسطس قيصر بالديار المصرية فردهم خائبين غير انه لم يجد حيلة في ما رآه من احتقار اليونان والمصريين كليهما لتلك الطائفة وازدرائهما بها ولم يسعه الا الصمت على ما تعوده اليونان من اهتضام حقوق ابنائها ومنازعتهم في مالهم

وفي عهد الامبراطور كاليغولا كانت اسكندرية عبارة عن ميدان

حرب متسع الارجاء بين اليونان واليهود اذا ضطر اليونان التشفي والانتقام من هؤلاء بان أخذوا على انفسهم اكراه اليهود على العمل بموجب امر اصدره هذا الامبراطور يقضي باقامة تمثاله في جميع المعابد الموجودة بالمملكة واداء العبادة له . ولم ير اليونان طريقة لالزام اعدائهم بالرضوخ لهذا الامر الا بمحاربتهم ومناصبتهم الشر والعداء على الدوام وكان فلاكوس الوالي الروماني اذ ذاك معضداً لليونان فترتب على ذلك اضطهاد اليهود اضطهاداً شنيعاً جداً واتفق حينئذ ان اغريبا ملك اليهود قدم الى الاسكندرية وشاهد تلك الحالة المريعة فابلغ الامر الى كاليغولا وتلطف معه حتى نال منه امراً بعزل الوالي وأذن في حضور وفد من اليونان وآخر من اليهود ليعرضوا الامر عليه في رومية وكان زعيم الوفد اليهودي فيلو الشهير بعلمه وآدابه ونادرة عصره في الفضل والكمال وكان رئيس الوفد الثاني أبيون احد ابناء الاشراف من اليونان وهو اسكندري الاصل والمحتد وكان من فطنة اليونان انهم قصروا شكواهم على امر واحد وهو ان اليهود امتنعوا عن اداء العبادة لتمثال الامبراطور . فلما مثلوا امامه وسألهم كاليغولا في ذلك لم يسع اليهود ان ينكروا فغضب وأبى ان يسمع منهم قولاً بعد ذلك فعادوا يتعثرون باذيالهم غير انه لحسن الحظ لم تطل حياة الامبراطور كاليغولا اذ مات عقيب ذلك بزمن قليل وتولى الملك بعده كلوديوس قيصر وفي عهده التزمت الطائفتان المهادنة والسلم

اما اسباب هذا العداء بينهما فلا ريب انه من اهمها فوز اليهود

مع حقارتهم على اليونان في معظم الامور التي كان هؤلاء يفتخرون بنسبتها اليهم واختصاصهم بها . فقد كان اشهر علماء الاسكندرية وكتابها لذلك العهد من اليهود وكانت مدارس الاسكندرية ولو انحطت منزلتها عما كانت عليه في عهد البطالسة لا تزال مشهورة في جميع انحاء المسكونة غير ان اسماء كبار فلاسفتها ومعلميها اصبحت عبرانية لا يونانية وناهيك بفيلو اليهودي فخر العلم والعلماء بتلك المدينة في القرن الاول للميلاد وكانت عائلة فيلو هذا في الطبقة العليا بالاسكندرية من حيث مركزها الادبي والمالي . اما الرجل فكانت ولادته بمصر عقب الفتح الرماني بمدة وجيزة والظاهر ان هذا البيت كان مقرباً بالمعاملات المالية من أولئك الامبراطرة الظافرين منذ نشأته . فان الاسكندر اخا فيلو ورأس تلك العائلة كان رئيساً لاحدى المصالح بالاسكندرية وموكلاً على اشغال انطونيا اخت امرأة طيباريوس قيصر وكان يقرض اموالاً طائلة للملك اغريبا اليهودي وقيل انه صاهره بان زوج ابنيه بابنتي الملك . وكان للاسكندر ابن ثالث يدعى طيباريوس ترك الديانة الموسوية ونصب بعد ذلك والياً على مصر

وكان فيلو في اثناء هذه المشاغل الهامة العائدة على بيتهم بالارباح الطائلة والجاه العريض منكباً على مزاولة العلوم الفلسفية والدينية والادبية مشتغلاً بها عن كل ما سواها فاذا مست الحاجة يوماً الى تداخله في شؤون المدينة او دعته الاحوال الى التقدم للدفاع عن ابناء جلدته

نهض نهضة الشهم الهمام وقام بالواجب عليه خير قيام مودعاً بطون الاوراق عبارات اسفه على مفارقة المحابر والاقلام واستبدال لذة العزلة بخوض بحر السياسة العجاج . والظاهر انه كان في زمن شيخوخته قد اعتاد الخلوة في أوقات معلومة مع جماعة المتوحدين الذين ابقى لنا عنهم ذلك التعبير البديع في مؤلفه المسمى (الحياة الفكرية)

اما مدينة الاسكندرية فبدأت بالانحطاط مذ سرى الفساد في ملك البطالسة . ولو جرى قياصرة الرومان بعد ذلك على خطة الثلاثة ملوك الاول من الدولة البطليموسية لكانت قد عادت بذلك الاسكندرية الى مجدها الاول ولكن تغيير الدولة جاءها ضغثاً على ابالة وذلك ان اوغسطس قيصر تعمد خرابها بانشائه عاصمة جديدة دعاها نيكوبوليس كان موقعها الى شرقي الاسكندرية على مسافة ثلاثة اميال ونقل اليها كهنة المدينة الاصلية بالقهر والاكراه ولكن ارادة اليونان وطبيعة الاحوال كانتا اقوى من ارادته اذ لم تكد تتم تلك العاصمة الجديدة حتى خيم عليها عنكبوت الخراب وتداعت اركانها للسقوط وهكذا بقيت الاسكندريه بعد الفتح الروماني واستمرت زمناً بعد المسيح ايضاً وهي المدينة الاولى في العالم باسره بدون استثناء رومية او اثينا وما على الذي يبغي التحقق من ذلك سوى ان يلتفت الى خريطة الاسكندرية القديمة كما هي مرسومة باحد الكتب الافرنكية الحديثة المسماة « دليل مصر » ثم يقارن بينها وبين المسافة التي تشغلها الان المدينة الحالية المتخذة لنفسها ذلك الاسم

الشهير . وكانت القصور الباذخة والهياكل الفخيمة تشغل ربع مساحة الاسكندرية في السنة الاولى من التاريخ المسيحي وكانت مينتاها الشهيرتان تشتملان على ما لم تسعه اية مينا اخرى في العالم من السفن وتجارتها الخارجية تفوق على صادرات ايطاليا كلها . وكانت دار التحف والآثار قد شيدت بعد ان احرقها جيش يوليوس قيصر ثم بني بها متحف آخر في عهد كلوديوس قيصر وسمي باسمه . وانشيء بها ايضاً قصر بهي لاقامة القياصرة الرومانيين وسمي (سيزاريوم) اي مسكن القياصرة . وكانت مكتبة هيكل سيرابيس الحصين تحوي زهاء ٧٠٠ الف مجلد كلها مشحونة بغرر حكمة المصريين وعلومهم . وكما كان لليونان المتحف وللمصريين الهيكل كذلك كان يتفاخر اليهود بكنيسهم الاعظم الذي يعتبر من اجمل المباني وافخمها

هذه بوجه الايجاز كانت حالة البلاد والناس الذين اتى ليملك عليهم القيصر الروماني . فهلا عرف ياترى انه قبل موته يدخل مصر ملك آخر يخضع لسلطته اليوناني والروماني واليهودي والمصري على السواء وان اسمه يذيع ويشيع في كل زمان ومكان حيثما لم تصل السطوة الرومانية ولم يتردد صدى نفوذها

الفصل الثاني

﴿ مجيء المسيح الى مصر ﴾

ان الذي يزور مدينة لندن ويتفقد عادياتها يجد بين آثارها صورة تسمى « سنة الرب » وهذه الصورة تمثل الاحتفال العظيم الذي كان يقيمه المصريون لآلهتهم في السنة الاولى من التاريخ المسيحي مما كان شائعاً في مصر شيوعاً واسعاً . وكان ترتيب هذا الاحتفال كما يلي : يسير اولاً المغنون ثم يتبعهم الضاربون على الاعواد وبين هذين فتيات حسنات يضربن بالطبول والدفوف وتتقدم هذا الموكب السامي الالالهة ايزيس محمولة على أكف الشرف والفخار ومعها ابنها هورس جالساً على ركبتيها وحين مرور الآلهة في هـذا الموكب يأتي الناس بمرضاهم على جانب الطريق كي ينالوا الشفاء والعافية . وكانت تباع صور الالهة ليستعملها الناس كتعاويذ وطلاسم واقية من كل سوء وضر . وفي وسط الصورة الممثلة هذا الاحتفال يري الناظر ركباً حقيراً قد انزوى جانباً ليفتح الطريق لموكب الآلهة الحافل وهذا الركب مؤلف من امرأة وطفلها راكبين حماراً انهكه التعب وخلفهما زوج هذه الامرأة وهو رجل ريفي يسير راجلاً وقد اضناه الـكلال وطول الشقة

اما هاتيك الآلهة وتلك الابهة والعظمة والجلالة الملازمة لها فقد اندرست وبادت الان مع كل آثارها واصبح الكل نسياً منسياً وأمست هيا كلها اطلالاً بالية واما اسم ذلك الطفل فلم يزل ولن يزل مكرماً مشرفاً في جميع انحاء المعمورة وهو يسوع المسيح مخلص العالم

وانا لا نرى في تمثيل الحادثة السالف ذكرها ما يوجب الريب في صحتها البتة . فان يوسف لا يأتي طبعاً بولده وامرأته من بيت لحم الى مصر الا عن طريق الصحراء مجتازاً القنطرة ومنها الى عين شمس ثم بابيلون التي يرجح انه قطنها مدة اقامته بالديار المصرية . وقد كان هيكل اليهود الاعظم الذي شاده اونياس بالقرب من عين شمس الى الشمال الشرقي من بابيلون لا يزال قائماً لذلك العهد غير انه لا يوجد ما يدل على ان يوسف وعائلته اقاموا به ولعل السبب ان يوسف كان له اقارب او اصحاب ببابيلون فسكن حيث كانوا . ومما يؤيد هذا القول انفال ذكر هيكل اونياس في جميع الروايات المصرية القديمة المشحونة باخبار الآيات والعجائب التي حصلت في كل مكان وطأه قدم السيد له المجد في ارض مصر مثل خبر سقوط الاصنام في عين شمس حالما أوتي بالصبي يسوع الى هيكلها على ما ورد في معظم النسخ القديمة من كتب الاناجيل المعروفة بالابوكريفا (اي التي لا تعتمدها الكنيسة المسيحية) كذكر النبع الذي لا يزال يشاهد الى هذا العهد بقرية المطرية الى جنوب اطلال عين شمس القديمة وقد جاء عنه في اقدم الاحاديث

ان العذراء غسلت فيه ثياب الصبي ابنها حينما جلست لتستريح بجانب الطريق وقد اضناها التعب في آخر ايام السفر ثم انها بعد ذلك واصلت المسير حتى وصلت بابيلون فالقت بها عصا الترحال واستراحت من مشاق السفر

اما مدينة بابيلون هذه فانما هي بابل المصرية ولكن شهرة سميتها بابل الاسيوية وما كان لها من الصيت الطائر والسمعة الفائقة قد قضى عليها بما لا تستحقه من خمول الذكر وانطفاء الخبر حتى ان كثيرين من علماء التاريخ الاوروبيين لا يدرون عنها شيئاً على الاطلاق . وقد الف احد ائمة الانكليز (دين فرار) في هذه الاثناء مؤلفاً حديثاً لم يرد فيه عنها اكثر من هذه العبارة « بابيلون مدينة حقيرة في شمال افريقيا » كأن لم تكن دعواها بزيارة بطرس الرسول اياها داعياً لزيادة الالتفات اليها والاعتناء بامرها اكثر مما ابداه هذا الكاتب . على ان من يمعن النظر في مؤلفات الاوائل قبل ان تسدل السلطة الاسلامية حجاب ظلمتها بين مصر واعين اوروبا تبين له من اهمية تلك المدينة ما ينافي عدم اكتراث المؤلفين الحديثين بامرها الى هذا الحد (١)

هذا وقد اختلف المؤرخون في امر منشاء بابيلون . فقال ديودورس المؤرخ ان الاسرى البابليين الذين اخذهم من آسيا رعمسيس الثاني

(١) انه في نفس مدة حكم الاسلام كان مؤرخو الاوروبيين كلما تمكنوا من معرفة شيء عن مصر سواء كان باسباب الحروب الصليبية او غيرها وذكروه بمؤلفاتهم لا يذكرون ملكها الا باسم « سلطان بابيلون » دون ممفيس او القاهرة

(سيزوستريس) ملك مصر واستعبدهم فيما بعد شقوا عصا الطاعة اخيراً واحتلوا قلعة هابنبن (١) على شاطئ النهر تجاه مدينة ممفيس الى الشمال منها — وشنوا غارة شعواء على البلاد المجاورة لهم فدوخوها ولم ينفكوا عن القتال حتى عفى رعمسيس عنهم وامنهم فخضعوا له واخلدوا الى السكينة باباحته لهم امتلاك الجهة التي احتلوها لتكون مستعمرة خاصة بهم فشيدوا هنالك مدينة دعوها بابيلون (او بابل) على اسم عاصمة بلادهم الاصلية (٢)

وكتب يوحنا اليهودي من نكيوس في القرن السابع بعد المسيح في عرض كلامه عن القلعة التي انشأها الامبراطور تراجان في بابيلون ما يأتي :

« وكان نبوخذ نصر قد بنى بهذا المكان قلعة قديمة دعاها قلعة بابيلون وذلك حين استيلائه على مصر بعد ان نفى اليهود اليها عقب هدمه اورشليم وكانوا قد رجموا نبيّ الرب في طيبة بارض مصر وبذلك ارتكبوا اثماً على اثم . وقد قدم نبوخذ نصر الى مصر بجيش جرار وحاربها لان اليهود الساكنين فيها عصوا عليه وسمى القلعة بابيلون على اسم عاصمة بلاده اشور » (انظر ارميا ٤٦ : ١٣ — ٢٧)

ولا شك ان هذه القلعة القديمة هي التي ذكرها سترابون الجغرافي

---

(١) قد سمي الاستاذ سايس الشهير هذه القلعة (اكريا هو) وليذكر القارئ ان اكثر المدن المصرية القديمة لها اسمان

(٢) ان العلامة سمث في قاموسه عن جغرافية اليونان والرومان يقول ان بابيلون المصرية هي الى شمالي الفسطاط وهذا خطاء كما لا يخفى على اللبيب

الروماني في اثناء وصفه لرحلته الى مصر عقب افتتاح الرومان اياها بوقت قصير . والى شمالي هذه القلعة على بعد بضع مئات من الاذرع بنيت قلعة الامبراطور تراجان التي لا تزال اسوارها المتهدمة ظاهرة الى هذا اليوم وكان بنؤها بين سنة ١٠٠ و ١١٧ ب . م

ومما يتشوق القاري لمعرفته ما يتناقله القوم من الروايات عن اقدمية سكنى اليهود في بابيلون هذه . فان بين آثارها الان كنيساً لهم يتصل تاريخه بعهد مجيء المسيح بصرف النظر عن توالي ترميمه وتجديده المرات العديدة بل قد زعم بعضهم ان اصل بنائه كان في ايام ارميا النبي . وهاك ما ذكره عنه المقريزي في خططه قال : « ان موقع كنيس السوريين (او اليهود) بقصر الشمع (بمصر العتيقة (١)) وهو قديم جداً وقد نقش على عارضة بابه كتابة قديمة بالعبرانية جاء فيها ان انشاه كان في سنة ٣٣٦ للاسكندر اي قبل خراب هيكل اوشليم للمرة الثانية على يد تيطس بخمس واربعين سنة او بنحو ٦٠٠ سنة قبل الهجرة (٢) . وتوجد في ذلك الكنيس نسخة من التوراة اجمع كل اليهود بان عزرا النبي كتبها برمتها » اه

(١) ان مصر القديمة او العتيقة هو الاسم الذي يطلق الآن على المدينة التي بنيت على اطلال بابيلون القديمة بعد ان دمرتها النيران في القرن الثاني عشر ولم يبق لهذا العهد من بقايا بابيلون سوى سور تراجان والجزء الذي سكنه المسيحيون واليهود من تلك المدينة ويحيط به ذلك السور الى الآن

(٢) لا ريب في ان المقريزي نقل التاريخ المنقوش على ذلك الباب بصحته وهو سنة ٣٣٦ للاسكندر لكنه أبهم في حسابه اذ المعلوم ان خراب اورشليم كان في سنة ٦٩ ـ ٧٠ بعد المسيح وهو يوافق سنة ٦٢٢ قبل الهجرة .

هذا وقد بقيت نسخة التوراة التي ذكرها المقريزي محفوظة في المحل الى خمس عشرة سنة مضت من عهدنا هذا وكانت مخبؤة في موضع مقدس بالكنيس المذكور وكتبت اللعنات على كل من يمد يده اليها ولكن بعض اليهود أفشى ذلك السر لغير ابناء الملة فكان من ذلك انه في غيبة الموكلين بحراسته دخل اثنان من المغرمين بالآثار القديمة الى الكنيس وكسرا المخباء الذي كان الدرج داخله ولم يعبأ باللعنات وتهديدات المرأة التي كانت تنوب عن الحراس واجتهدا ان يفتحا ذلك الدرج . غير انه مع تقادم العهد به على تلك الحالة من الانفراد كان قد توصل اليه ثعبان دخل من صدع في الخشب فعش في المخباء المحفوظ في الدرج كما دلّ على ذلك ما وجد من بقايا جلد الثعبان فيه. وقد التصقت اطراف الدرج بعضها ببعض التصاقاً متيناً بما كان نفرزه ذلك الثعبان من لعابه في تلك المدة بحيث ان صاحبينا الأثريين المذكورين لم يجدا طريقة لفتح هذا الدرج ما لم يمزقاه ارباً فعدلا عن ذلك وعادا مقتنعين بعظم قدميته وفي نيتهما ان يعودا مرة اخرى ويبذلا جهدهما في فتحه . فلما عادا الى الكنيس المرة الثالثة وجد ان الحراس قد تنبهوا الى ما حصل فبادروا بنقل الدرج الى مكان امين بالقاهرة وقد وضعوا في محله نسخة حديثة يعرضونها الآن على الزائرين بدعوى انها النسخة الاصلية . ثم عقب ذلك ان هدم الكنيس القديم برمته وبني في موضعه مجمع جديد بيد انه مع كل ما طرأ على ذلك المحل من التغيير والهدم والبناء

كان اليهود يحافظون اشد المحافظة على بقعة يزعمون أن فيها القبر الذي يضم عظام ارميا النبي

وعلى كل حال فقد ثبت بادلة عديدة انه كان في مصر مستعمرة من اليهود قبل ميلاد المسيح وفي وقت ميلاده وانهم كانوا يعتبرون تلك البقعة من بابيلون المصرية اعتبارا خصوصياً ويميزونها على غيرها من الاماكن . ثم ان السواد الاعظم من تلك المستعمرة قد اعتنق الديانة المسيحية في اوائل ظهورها وأبدل المجمع بكنيسة من ذلك العهد فلما حدث الانشقاق بين الكنيسة اليونانية والكنيسة المصرية في سنة ٤٥١ ب . م تتبعت كنيسة اليهود للملكيين اي الروم فلما تقاص ظلهم هجرت تلك الكنيسة واهملت وتداعت الى الخراب فاخذها المصريون وهي على تلك الحالة وبقيت من ثمت بايديهم الى ان التجأ اليها ميخائيل الثالث (بطريرك الكنيسة الملكية) في النصف الاخير من القرن التاسع بعد الميلاد بعد ان قبض عليه الحاكم الاسلامي واشترط عليه اموالاً طائلة يدفعها اليه في مهلة اربعة شهور والا امر بقتله واثارة الاضطهاد على ابناء كنيسته

ولما رأى يهود بابيلون البطريرك ميخائيل في هذه الضيقة وكانوا يرغبون كثيرا في اعادة تلك البقعة الى يدهم انتهزوا هذه الفرصة وطلبوا منه ان يبيعهم اياها فرضي بالصفقة وقبض الثمن ودفعه في الجزية المطلوبة فداءً عنه وعن كنيسته. اما اليهود فظلوا من ذلك العهد الى الآن واضعين

يدهم على ذلك المكان وسواء كان القبر الذي به هو قبر ارميا حقيقة ام لا فلا ريب انهم يكرمون تلك البقعة ويعتبرونها اعتباراً عظيما

وعلى مقربة من كنيس اليهود الآنف الذكر توجد داخل اسوار القلعة الرومانية ايضاً كنيسة تكاد تكون الوحيدة في القطر من حيث كثرة رغبة السائحين فيها واقبالهم عليها من كل فج نظراً لما اشتهر عنها من الانباء والروايات القديمة وهي في الحقيقة عبارة عن كنيستين سفلى وعليا فالكنيسة العليا مكرسة على اسم القديس انبا (١)- أوابو-سرجه ولم تشيد الا في القرن السابع للميلاد بعد ان هجرت القلعة عساكر الروم وخلت منهم كلية وربما لم يكن ذلك حتى أوائل القرن الثامن . اما الكنيسة السفلى القائمة على سطح الارض الاصلي قبل ان يرتفع ارتفاعه الحالي بعد بناء القلعة فهي على صغرها قديمة العهد جداً وقد اصبحت الآن كسرداب للكنيسة العليا. وقد جاء في الروايات القديمة عن هذه الكنيسة انها بنت في عصر الرسل لتكون علامة على البقعة التي كانت قائمة فيها الدار التي سكنها المسيح مع ابويه مدة اقامتهم في بابيلون . ويغلب على الظن ان طبقة الطلاء الحالية التي على حيطان المكان والاعمدة الصغيرة المرتكن عليها السقف غير قديمة العهد جداً ولكن الكنيسه عينها يصح

(١) « انبا » كلمة مصرية قديمة معناها « أب » وتحرفت « ابا » في اللغة القبطية الحديثة وقد حلت محلها الآن كلمة « ابو » العربية وعم استعمالها . اما كلمة « مار » التي يستعملها الاقباط لقديسيهم فهي كلدانية الاصل ومعناها « رب » — اصلها ماري اي ربي — والكنيسة التي نحن بصددها قد كرست باسم القديسين سرجيوس وباخوس وهما شهيدان عظيمان . ولم يرد ذكر باخوس مطلقا لانه اسم آله الخمر عند اليونانيين القدماء .

بلا شك اعتبارها اقدم واصغر كنيسة في الوجود . وقد لا يتسنى للانسان معرفة مساحة الكنيسة بالضبط نظراً لانهيال الردم على جانبيها الغربي والشرقي ولكن طول الكنيسة بحالتها الراهنة يبلغ نحو ٢٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً. ولا تزال معمودية الكنيسة بالجانب الايمن مستعملة الى هذا العهد ومما يذكر مع الاسف الشديد ان الجهلاء من الاقباط الذين في يدهم هذا الاثر الجليل يملأون عقول السائحين الذين يذهبون افواجاً لرؤيته بخرافات وحكايات عقيمة عن يوسف ومريم العذراء . وقد تعرف هذه الكنيسة بكنيسة العذراء

واعلم انه في ايام مجيء المسيح له المجد الى هذا المكان كان موقع هذه النقطة على شاطىء النيل تقريباً ولم يكن السور العظيم المتداعي للسقوط الآن قد انشيء بعد بل كان ذلك القسم برمته من بابيلون عبارة عن حارة اليهود بها ولا وجه للريب مطلقاً في صحة الرواية القائلة بسكنى يوسف ومريم في ذلك المكان مدة اقامتهما في بلاد مصر أو معظم تلك المدة . ولكن اختلف الباحثون من شرقيين وغربيين في تقدير مدة بقاء السيد في ارض مصر فذهب بعضهم الى انها ستة اشهر فقط وقال آخرون انها ما بين سنتين واربع سنين الى ست

الفصل الثالث

كرازة مرقس الانجيلي

﴿ سنة ٤٥ ب.م ﴾

قد ثبت بالاجماع ان مؤسس كنيسة مصر هو القديس مرقس الانجيلي غير ان السنة التي جاء فيها الى مصر لاول مرة لم يتفق على تعيينها اتفاقاً تاماً . والظاهر ان مار بطرس الرسول رافقه الى بابيلون وهنالك كتب رسالته الاولى للامم كما اشار الى ذلك في آخر تلك الرسالة. نعم ان الباحث لا يستطيع ان يأتي بدليل قاطع على ان بابل المذكورة في رسالة بطرس هي بابيلون المصرية فضلاً عن ان مؤرخي الغربيين كثيراً ما حاولوا ان يثبتوا أن المدينة التي اشار اليها بطرس هي بابل اشور او انه استعمل هذا الاسم مجازاً للدلالة على مدينة رومية . غير ان العدالة توجب علينا ترجيح القول الاول بدليل كون الاقرب الى الصواب هو ان بطرس الرسول كتب رسالته من مدينة مشهورة مأهولة باليهود وكانت ملجاء لسيده كبابيلون المصرية لا انه كتبها من مدينة مقفرة لا داعي يدعوه الى التوجه اليها بنوع مخصوص كبابل اشور الخارجة عن دائرة حدود المملكة الرومانية . ثم انه من الجهة الاخرى يبعد علينا التصديق

بان بطرس الرسول استعمل كلمة بابيلون مجازاً للدلالة على رومية متشبهاً في ذلك بمؤلف سفر الرؤيا المشهور بغموض عباراته . على انه في الاعصر الاولى من التاريخ المسيحي قلما كانت الكنائس الغربية تعرف شيئاً عن بابيلون المصرية (١) اذ كانت بلاد مصر ممثلة في عينيها بلفظة كنيسة الاسكندرية. وعلى هذه الكيفية نسي لاهوتيو الغرب كل شيء عن بابيلون المصرية او غيرها من مدن مصر عقيب انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة اليونانية سنة ٤٥١ ب .م حتى ان كل ما صادفهم عن بابيلون المصرية في التواريخ المسيحية القديمة كانوا يسندونه بلا تردد الى بابل الاسيوية . ولسبب هذ الخلط بين المدينتين تأصل فيهم الاعتقاد بصدور الرسالة السالف ذكرها من بابل اشور كما سبق القول

اما مارمرقس نفسه فقد ذكر في التواريخ المصرية انه ولد باقليم الخمس مدن الغربية (پنتابوليس) (٢) الواقع على حدود القطر المصري من الجهة الشمالية الغربية وكان يعتبر جزءاً من مصر وقطعة من املاكها منذ

(١) بل ان الحديثين ايضاً من مؤلفي الغرب لا يزالون يجهلونها . فقد ورد ذكر بابيلون في كتاب « قاموس السير المسيحية » للعلامة سميث نقلا عن مؤرخ قديم ولكن الناقل سرد الحكاية وهو يخال فيما يظهر ان الكلام مختص ببابل الاشورية مع انه بمراجعة العبارة الاصلية نجزم بانه يعني بابيلون المصرية وهاك النص المشار اليه « ان هيلاريون بارح بيت لحم ومعه اربعون راهبا فساروا اربعة ايام متوالية لا يذوقون طعاماً الا في المساء وفي اليوم الخامس وصلوا الى (بيلوزيوم) وهي مدينة على فم الفرع الشرقي للنيل فقابلوا ادرا كوتيوس ومنها توجهوا الى بابيلون لمشاهدة فيلو »

(٢) ان هذا الاقليم يحتوي على خمس مستعمرات يونانية — وهي المعروفة عند الاقباط بالخمس مدن الغربية — وهي سيرين (القيروان) وبتولمايس (او برقة) وارسينو (اوتيوخيرا) وبيرنيس (هسبيريدس) وابولونيا ولذا اطلق عليه اسم الخمس مدن واستمرت خاضعة لمصر بعد حكم الرومان بمدة طويلة

عهد بطليموس الاول . ويقال ان مار مرقس من عائلة كانت ذات ثروة ويسار بذلك الاقليم فسطت عليها بعض قبائل البدو الرحل ونهبت اموالها وامتعتها حتى اصبحت فقيرة حقيرة وكان ذلك قبل ولادة مار مرقس او في زمن طفولته وكان ابوه يدعى كريستوبوليس وكان سلفاً لبرنابا وقد هاجر الى فلسطين واستوطن بقانا بالقرب من مدينة اورشليم ثم تمت الصلة بين هذه العائلة وبطرس الرسول بواسطة النسب وهكذا أرضع مار مرقس لبان التعليم المسيحي منذ نعومة اظفاره . ويرجح ان زيارته الاولى لمصر كانت في سنه ٤٥ ب ٠ م (١) والظاهر ان بطرس الرسول كان مرافقاً له في هذه الزيارة كما اسلفنا

وكان مجيئهما الى مصر في قافلة كما هي طريقة السفر في تلك الايام فـارا من سوريا عن طريق الصحراء الى هليوبوليس (عين شمس) ومنها الى بابيلون . وبعد ان مكثا فيها مدة افترقا فعاد مار بطرس الى فلسطين من حيث أتى وانفذ مار مرقس الى الاسكندرية والخمس مدن الغربية كاروزاً ومبشراً ولا يبعد ان قسماً كبيراً من انجيل مار مرقس كتب مدة اقامتهما معاً ببابيلون للاستعانة على عمل التبشير في مصر بواسطة مرقس

ويروى ان اول من اعتنق الديانة المسيحية في مصر على يد مار

(١) قال يوسيفوس المؤرخ ان مار مرقس اتى الاسكندرية في السنة الثانية من حكم اقلوديوس قيصر اي سنة ٤٣ ب ٠ م ٠ وفي تاريخ الاسكندرية انه جاءها سنة ٤٠ ب ٠ م ٠ والذي يراجع الحوادث المذكورة في سفر اعمال الرسل يجد ان جعل سنة ٤٥ تاريخاً لمجيء مرقس الى مصر اقرب الى الحقيقة من سواها ٠

مرقس رجل اسكاف من الاسكندرية اسمه انيانوس (١) . والذي رأى اسواق الاسكافية في مصر وحوانيتهم الرطبة المظلمة من الداخل وقد علقت على ابوابها صفوف الاحذية من حمراء وصفراء وتحتها تلك المقاعد الضيقة وحولها العمال يتشاغلون بمحادثة المارة ـ لا يصعب عليه ان يتصور حالة مارمرقس في بدء كرازته وما اعقبها من البحث والمناقشة مع بائعي الاحذية. وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها أن مار مرقس صنع آية مع اونيانوس ويرجح انه شفاه من مرض عضال كان لا يرجى شفاؤه منه فاكرمه انيانوس على هذا الصنع الجميل وأخذه الى منزله ضيفاً مدة من الزمن ثم اعتنق الديانة المسيحية على يده فاقتدى به في ذلك خلق كثير . ولما رجع مارمرقس الى فلسطين وكان ذلك في الغالب قبل نهاية سنة ٤٩ ب.م وسم انيانوس اسقفاً على الكنيسة الجديدة ومعه ثلاثة قسوس وسبعة شمامسة

وفي سنة ٥٠ ب.م اجتمع بطرس ومرقس في فلسطين ليحضرا مجمع أورشليم . وبعد ذلك بقليل قصد برنابا وبولس ان يجولا للتبشير والكرازة فطاب برنابا من مرقس ان يرافقه في رحلتهما وكانت نتيجة ذلك ما نعلمه من افتراق الرسولين وتوجه برنابا مع مرقس الى قبرس والى هنا لا يذكر عنهما شيء في سفر اعمال الرسل ولكن يرجح كثيراً انمار مرقس ذهب حينئذ الى القورينة (سيرين) ثم عاد مار ا بالخمس

(١) قد يصعب ضبط هذا الاسم لاختلاف هجائه في عدة نسخ

مدن النوبية الى الاسكندرية ويؤيد هذا الرأي بعض تلميحات وردت عرضياً في العهد الجديد وكذلك ما ورد في التواريخ المصرية من ان مار مرقس أسس خمس كنائس اخرى بين زيارته الاولى والثانية الى الاسكندرية ومن ضمنها كنيستي القرينة وليبيا

هذا ولاندري اذا كان مار مرقس بارح الديار المصرية مرة اخرى بعد ذلك ام لا . اما كونه توجه الى روميا مع مار بطرس فهذا اذا صح لا يمكن ان يكون الا في اواخر ايام ذلك الرسول . على ان المؤرخين القدماء باجمعهم لا يؤخذ من كلامهم عن مار مرقس سوى انه بقي في الاسكندرية منذ عودته اليها الى آخر حياته

ويقال انه في هذه الاثناء شيدت الكنيسة الاولى في الاسكندريه بمكان يقال له بوكاليا واقع على شاطيء البحر وان بوكاليا هذه قد صارت فيما بعد ابروشية آريوس الهرطوقي الاكبر . ولكن يبعد كثيراً ان تكون الكنيسة التي استحوذ عليها آريوس هي التى بنيت في ايام مامرقس لانه يصعب التصديق ببقائها بعد ان توالى الاضطهاد على المسيحيين مع هدم الكنائس وتخريب اماكن عبادتهم مدة الثلاثة قرون الاولى . اما سبب تسمية ذلك الموضع ببوكاليا او بوكاليس فهو على ما ذكره استرابو المؤرخ ان البقعة المذكورة كانت قبلا مرعى للماشية ومن ذلك اشتق اسم المكان

هذا ويوجد بين المؤرخين القدماء اختلاف في نحو سنتين او ثلاث

فيما يختص بحوادث مارمرقس وقد تسبب عن ذلك اختلافهم ايضاً في تاريخ نياحته ولكن الاقرب الى الحقيقة والارجح ان وفاته كانت في السنة الثانية من ملك نيرون اعني في اوائل سنة ٦٢ ب . م ودليل ذلك ان عيد الآلهة سيرابيس كان يقع يوم ٢٥ ابريل من السنة وكان من اكبر الاعياد عند وثنيي مصر . فاتفق انه في سنة ٦٢ ب. م وقع هذا العيد في يوم أحد ويقال ان مارمرقس جاهر وقتئذ بتقبيح هذه العبادة وتحريم الاحتفال بالعيد باعتبار انه عبادة وثنية فاهاج بذلك سخط الوثنيين في مدينة الاسكندرية وكان قد شق عليهم ما رأوا من سرعة انتشار الديانة المسيحية حينئذ وابتدأت الفتنة بين المسيحيين والوثنيين في يوم السبت الذي يتلوه العيد فلم يأت مساء اليوم حتى قبض الوثنيون على مار مرقس وربطوه في عنقه بحبل وجروه وطافوا به في اعظم شوارع المدينة الى ان جاء الليل وخيم الظلام فاوصدوه في السجن وهناك ظهر له ملاك الرب في رؤيا فقواه وشدد عزائمه . ولما اصبح يوم الاحد عاد الوثنيون الى السجن فاخذوه مكتوفاً وطافوا به حول المدينة في موكب الآلهة سيرابيس الى ان اسلم الروح وبموته انتهت آلامه ودفن في كنيسة بوكاليا ومن ذلك العهد كانت لا تنتخب بطاركة الاسكندرية الا على قبره المجيد واستمرت هذه العادة متبعة قروناً عديدة بعد ذلك

اما الكنيسة القبطية المصرية التي هكذا اسسها مارمرقس فقد حافظت الى الان على نظامها وطقوسها الاصلية اكثر مما حافظت آية كنيسة

اخرى من عهد مؤسسها الى هذا اليوم فهي اذاً اقل الكنائس اختلافاً عما كانت عليه حين نشأتها . وفيها بقيت سلسلة المراتب الكهنوتية الثلاث متصلة بغير انقطاع الى يومنا هذا وهي الاسقفية والقسوسية والشموسية غير انها لسوء الحظ قد وقعت في الفخ الذي هوت فيه بقيت الكنائس المسيحية وذلك انها بعد بضعة قرون من عهد تاسيسها فرضت العزوبة على بطريركها واساقفتها بطريق الالزام ولكنها لم تشط مع ذلك عن القاعدة الاصلية الى درجة تعميم هذا الالزام على طبقات الاكليروس الصغرى كما فعل غيرها بل جعلت الزواج لهم سنة لا تزال مباحة الى اليوم كما هي عند الاكليروس اليوناني ايضاً على عكس ما جرى عليه كهنة الكنيسة الغربية واكليروسها على وجه العموم

ثم ان الكنيسة القبطية قد حافظت ايضاً من عهد نشأتها على الاسرار السبعة الكنائسية ولكنها تعتبر ان اثنين منها فقط ضروريان للخلاص وهما المعمودية والعشاء الرباني . على انها في القرنين الثالث والرابع كانت على الدوام تؤجل عماد الاشخاص الى الساعة الاخيرة من حياتهم . وتوجد الى هذا اليوم عادات كثيرة في الكنائس الغربية منقولة في الاصل عن قدماء المصريين في عهد نشأة الكنيسة القبطية . فمن ذلك مثلاً الحلة البيضاء (التونية) التي تلبس وقت الخدمة الكنائسية فانما هي عبارة عن جبة الكتان البيضاء التي كان يلبسها كاهن ايزيس . ومنها جز الشعر من وسط الرأس فقد كان ايضاً العلامة المميزة لكهنة المصريين

القدماء . ومنها استعمال الخاتم في اكليل الزواج وكان المصريون القدماء يستعملون حلقاً من معادن مختلفة بدلاً من العملة قبل صك النقود عندهم . فكان اذا عقد للرجل على امرأة البسها ساعة العقد خاتماً من الذهب علامة على انه من تلك الساعة جعلها شريكة له في ثروته فاستمرت هذه العادة عند المصريين بعد اعتناقهم الديانة المسيحية ثم نقلتها عنهم الكنيسة المسيحية برمتها

والظاهر ان الصيامات دون غيرها من موضوعات الكنيسة القبطية هي التي كثر فيها التغيير عن الحالة الاصلية بيد ان هذا التغيير لم يطرا الا من حيث الزيادة في عدد الاصوام وفي صرامتها وشدتها اما القاعدة الاصلية بغض الطرف عن تنوعاتها فكانت تقضي ان رجال الكنيسة بأسرها يصومون اربعين ساعة متوالية من يوم الجمعة الحزينة الى يوم احد القيامة وذلك عبارة عن الزمن الذي يظنون ان السيد المسيح نزل فيه الى الجحيم . ولكن في اواخر القرن الثاني كان صوم الاربعين ساعة قد بدل باربعين يوماً في معظم الكنائس النصرانية ويقال ان الذي جعل الصوم الكبير في مصر اربعين يوماً هو انبا ديمتريوس الذي رسم بطريكا للاسكندرية سنة ١٨٩ ب.م. على ان الكنيسة المصرية قد توسعت في اصوامها تدريجياً بعد ذلك حتى اصبحت وهي تصوم الان اكثر من نصف السنة تقريباً واليك البيان : اربعون يوماً قبل عيد الميلاد وخمسة واربعين يوماً وهو الصوم الكبير قبل عيد الفصح وكثير

من الناس يصومون ايام الآحاد من تلك المدة فتبلغ بذلك خمسين يوماً . ثم أربعين يوماً بعد الخمسين وهو المسمى بصوم الرسل ثم ثلاثة ايام في فصل الربيع وهي المعروفة بصيام نينوى او يونان وخمسة عشر يوماً في شهر اغسطس وهو صيام العذراء ثم يوم الجمعة من كل اسبوع لغاية الساعه التاسعة . هذا على ان الصيام عند المصريين ليس في الحقيقة بالامر الهين الذي يستخف به فانهم لا يقتصرون فيه على الامتناع عن اللحم والسمك بجميع انواعهما فقط بل يمتنعون ايضاً عن اللبن والبيض والسمن والزبدة وكل ما يعتبر ذو حياة حيوانية من الكائنات عموماً ولذا تكون أغذيتهم مدة صومهم قاصرة على انواع الفاكهة والبقول النيئة او المطبوخة بالماء او بالزيت والارز والخبز البسيط وباقي الاطعمة النشوية . وبعض العائلات لا تأكل شيئاً الا الساعة الثالثة بعد الظهر في ايام الصيامات . وفي بعض اقاليم مصر يخبز البعض منهم الخبز في اول الصيام دفعة واحدة فقط فيبلغ من الجفاف والصلابة مبلغاً بحيث لو وضعت شيئاً منه في اللبن الساخن مسافة نصف ساعة لما لان بعض اللين . وكثيراً ما خارت قوى الشعب واضناهم الهزال لطول مدة الصوم حتى لقد يعسر على الواحد منهم ان يقوم حينئذ بجميع اعماله المعتادة . على ان القبطي فضلا عما ذكر لا يحل له ان يأكل في المساء ما لذ من الطعام كما يفعل المسلم الذي لا يصوم من سنته كلها سوى ٢٨ يوماً تقضي فيها نهاره على الاغلب نائماً وليله آكلا شارباً ولذا لا يبعد ان

تكون نتيجة هذه الصيامات الطويلة القاسية من جملة الاسباب التي اضعفت عزم الاقباط وحطت من قواهم حتى لقد مضت عليهم الى الآن قرون عديدة لم يشنوا فيها غارة واحدة دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم !!!

ثم انه من الموكد بعد البحث ودقة التحري انه في القرن الاول لم يكن بين المسيحيين في مصر رهبان ولا راهبات . غير انه في منتصف القرن الثاني اقتبست من الديانة الوثنية المصرية عادة العيشة الانفرادية والخلوة لاجل التنسك والتضرع والصوم والصلاة عوضاً عن اتمام مواجب الحياة الطبيعية ثم انتشرت هذه العادة من مصر الى العالم المسيحي باسره

تلك هي حالة الكنيسة القبطية التي اسسها مارمرقس وظلت عليها في البأسا والضراء تقاسي الشدائد والضيقات وتحمل المظالم والاضطهادات حتى يومنا هذا حيث يمر بها الوافدون الى مصر من الغربيين لهذا العهد فيتجاهلون وجودها تارة او يهزأون بها طوراً نظراً لما آلت اليه من الهوان والذل . ولكن مهلاً فسترى فيما يلي من صفحات هذا الكتاب تاريخاً يزري بتواريخ اعظم الكنائس المسيحية مقاماً وشاناً وسيأتي يوم فيه يجلس رأس الكنيسة للقضاء بحسب عدله لا بحسب فكر الانسان وفي ذلك اليوم يسمع قوله «ويكونون لي قال رب الجنود كل الذين يخافون اسمي في اليوم الذي اجمع فيه جواهري»

الفصل الرابع

﴿ بطريرك واحد وسبعة قياصرة. سنة ٦٢ ب . م ﴾

هذا هو الثاني من بطاركة الكرسي الاسكندري واسمه ايانوس وغاية ما ينبئنا عنه التاريخ انه اخلف مار مرقس على كرسي الاسكندرية سنة ٦٢ ب م وساس الكنيسة بحكمة وفطنة مدة ٢٢ سنة وفي اثناء رئاسته تولى على العرش الامبراطوري الروماني سبعة امبراطرة على التتابع وهم نيرون الظالم (وكانت وفاته بعد ست سنوات من تاريخ تولي ايانوس كرسي البطريركية) ثم جالبا واوتو وفيتليوس وفسباسيان ونيطس ودومتيان وكان الوالي الروماني على مصر في سنة ٦٢ ب.م بابيليوس الذي اخلف طيباريوس اسكندر منذ سنة ٥٦ ب.م والظاهر انه كان ذا عناية واهتمام بامر البلاد التي عين حاكما عليها من قبل المملكة الرومانية . فانه ألف تاريخاً للديار المصرية ولكن عبثت به ايدي الضياع ولم يبق منه الآن لسوء الحظ شيء . وقد اتخذ ديونيسوس المؤلف الشهير الذي كان مديراً لدار الآثار المصرية وزيراً له . ولكن يظهر ان بابيليوس لم يكن مع ذلك محبوباً من المصريين بدليل ان الامبراطور جالبا الذي تولى الامبراطورية بعد نيرون عزله على الفور وعين مكانه طيباريوس يوليوس اسكندر ابن

اسكندر الوالي الاسبق وابن اخ فيلو اليهودي (انظر الفصل الاول) فكان طيباريوس وانيانوس متحدين من حيث الجنسية والوطن غير ان الاول كان على ما يظهر قليل التمسك بدينه اليهودي كما كان ابوه من قبله . ويوجد لهذا العهد بالواحة الكبرى نقوش خلدت ذكرى المنشور الذي اصدره طيباريوس هذا لرفع ما كان يثقل كاهل المصريين من المظالم والمغارم التي كان قد فرضها عليهم نيرون . فمن ذلك تاكيد هذا الوالي لرعاياه المصريين بعدم اكراه احد منهم في المستقبل على قبول وظيفة التزام الخراج في الاقاليم وعدم الغاء البيوع بحجة مديونية المشتري للحكومة الامبراطورية وابطال عادة سجن الاحرار من الرعية بسبب عدم الوفاء بدين على احدهم لآخر ما لم يكن المداين هو الحكومة او الخزينة الاميرية

اما لغة هذا المنشور فكانت كغيره من الاوامر والمنشورات اللغة اليونانية وهو امر يدل دلالة واضحة على انه بالرغم عن تسلط الرومان على مصر كل هذا الزمن لم يعتر احوالها ادنى تغيير عما كانت عليه قبلهم فلم تكتسب اللغة اللاتينية ادنى شيوع بين المصريين ولا اقتبسوا هم شيئاً من العوائد الرومانية ولا يخفى ان هذا من الغرابة بمكان . غير انا اذا دققنا النظر في ذلك نجد ان تلك المملكة الرومانية العظيمة التابعة لها مصر لم تكن رومانية الا بالاسم فان القياصرة الاول الذين كانوا رومانيين حقيقة لم يهمهم من امر مصر سوى ما يتعلق بتوسيع نطاق خراجها ثم ان عرش المملكة اصبح من بعد القرن الثاني هدفاً لاطماع

ذوي البأس من اخلاط مختلفي الجنس من يونان وافريقيين وبربر وسوريين لا يعنيهم طبعاً شأن رومية الا باعتبار كونها مظهراً خارجياً لرونق ملكهم وشوكة اقتدارهم . هذا وسيظهر لك فيما يلي ما كان لتغيير عاصمة المملكة الرومانية من التأثير على المملكة عموماً والقطر المصري وبلاد الشرق خصوصاً

اما اوثو وفيتليوس اللذان تعاقبا على كرسي القياصرة بعد جالبا فلم يتركا اثراً يذكر لهما في مصر لقصر مدة حكمهما . وكان فسباسيانوس الذي خلفهما يحارب حينئذ كقائد في فلسطين فصمم على ان يكون قيصراً وكتب اولاً الى طيباريوس اسكندر والي مصر يقول له ان الجيش هنا قد بايعني الامبراطورية فهل لى ان اعتمد على عضدك في هذا الامر وعلى بيعة الجند الذي في مصر . فلبى طيباريوس الطلب على الفور واقرت مصر بالامبراطورية لفسباسيانوس بالاجماع مع علم اليهود فيها بالحرب العوان التي كانت قائمة وقتئذ بينه وبين ابناء جلدتهم في فلسطين وتنكيله بهم اشد تنكيل ولعل في ذلك ما يوجب الاستغراب . على ان يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير الذي دافع عن يوباطا (احدى مدن فلسطين) دفاع الابطال حين محاصرة الرومان اياها — كان قد اصبح بعد سقوطها في يدهم من اخص اتباع فسباسيانوس واعظمهم تمسكاً بعروة الاخلاص والولاء له

وبقي فسباسيانوس مدة في بيروت استراحت في اثنائها فلسطين

من اوضار الحرب والجهاد حتى ورد اليه النباء المبشر بان القائد الذي ارسله الى رومية لكي يستلم زمامها بالنيابة عنه قد تم له الامر على ما يشتهي ويختار . فبارح اذ ذاك بيروت قاصداً مدينة الاسكندرية للاقامة بها بعض الزمن صارفاً نظره عن رومية موقتاً اعتماداً ولا شك على وجود ابنه دوميتيان بها وقيامه مقامه في ادارة الاحكام . فلما قدم فسباسيانوس الى الاسكندرية هرع علماؤها وحكامها لمقابلته بكل مظاهر التعظيم والاجلال وكان بالاسكندرية يومئذ ثلاثة من مشاهير الفلاسفة وهم يوفراتيس الافلاطوني وديون الملقب بفم الذهب وابولونيوس الفيثاغورسي الشهير الذى وضعه فيلوستراتس في مصاف الانبياء والمرسلين في الرسالة التي كتبها تاريخاً لحياته بعد موته وشبهه فيها ظاهرياً بفيثاغورس الفيلسوف ومراده في الحقيقة تشبيهه بالسيد المسيح نفسه كما لا يخفى على من امعن النظر فيها ولاحظ الغرض من تأليفها على نسق الاناجيل المقدسة

وكان ابولونيوس ملازماً للقيصر فسباسيانوس طول مدة اقامته في الاسكندرية وخدمه خدمات جليلة باستمالة قلوب الاسكندريين اليه الى درجة انهم اصبحوا يعتقدون فيه القدرة على شفاء الامراض بمجرد لمس المريض كما كان الجاهلية يعتقدون في ملوكهم قديماً . فقد روى تاسيتوس المؤرخ ان رجلين احدهما كفيف البصر والآخر اكتع اليد طرحا نفسيهما تحت قدمي فسباسيانوس وهو سائر في أحد شوارع الاسكندرية متوسلين اليه ان يلمسهما حتى ينالا منه الشفاء . فسخر

القيصر بهما أولاً غير أن ما رآه من تظاهر اطباء الاسكندرية حينئذ من مشاركتهم العامة في هذا الاعتقاد حمله على اجابة الطلب والظاهر ان عمليته لم تخب اذ قد شهد اصدقاء الامبراطور ان الرجلين شفيا بهذه الوسيلة

وكان فسباسيانوس يتظاهر بشدة الميل الى ديانة المصريين فلم يتأخر عن زيارة هيكل معبودهم سيرابيس واستطلاع انبائه عن مستقبله ومستقبل مملكته وعلق كثيراً بالاسكندرية فمكث بها بضعة شهور بعد ما انفذ ابنه تيطس الى فلسطين ثانية لانهاء الحرب مع اليهود ولكن اهل الاسكندرية كانوا سريعي التقلب فلم تدم محبتهم لفسباسيانوس طويلاً لا سيما وقد أثقل الرجل كاهلهم بالضرائب عوضاً عن ان يغدق عليهم الانعامات كما كانوا يأملون منه . ومما زاد الطين بلة انه مرة طالب صاحباً له بدين كان قد وفاه به فذاع خبر ذلك في المدينة حتى بلغ من بعض العوام ان اتخذوا الامر موضوعاً للتهكم والسخرية به فلما علم فسباسيانوس بما كان من ذلك استشاط غيظاً وحنقاً وامر في الحال بضرب جزية قدرها ستة افلاس (وهو مقدار الدين الذي كان له) على كل فرد من اهل المدينة تأديباً لهم على هذه الجرأة . بيد انه لم يلبث ان صفح عنهم اجابة لتوسلات ابنه تيطس الذي كان احسن منه سياسة وتدبيرا ولكن هيهات ان تعود بذلك محبة الشعب الى ما كانت عليه أولا فرحل فسباسيانوس عقب ذلك الى رومية ولم ينتظر نهاية الحرب في فلسطين كما كان ينوي

فلما كان فصل الخريف من سنة ٧ ب.م وردت الاخبار بعد طول الانتظار منبئة بسقوط مدينة اورشليم . وقد بلغ عدد الاسرى الذين اخذوا من اليهود بسقوطها ٩٧ الف نسمة سيقوا جميعهم ارقاء ليعملوا في معادن مصر بالاخص . وكان لمسير هذا الجيش الكئيب وراء تيطس الظافر منظر تنفطر له الاكباد لا سيما وقد تبعهم العدد الغفير من سكان أورشليم التعيسة حيارى أذلاء بلا مأوى ولا زاد يبتغون ملجأ وملاذا بارض مصر آملين أن يتفيأوا هنالك في ظل اخوانهم الاغنياء ومن ذلك العهد أخذ اليهود في المهاجرة من بلادهم الى مصر افواجاً افواجاً ولكنهم لم يلبثوا ان اقلقوا بافعالهم خواطر يهود الاسكندرية الذين باتوا في خوف على انفسهم منهم بما اثاروا من الشغب والهياج على الحكومة الرومانية والمجاهرة بتعنيف اخوانهم المصريين على خضوعهم لها واستسلامهم الى سلطة القيصر صاغرين وحضهم اياهم على القيام للحرب والكفاح دفاعاً عن حريتهم ووطنهم الذي اصبح قاعا صفصفاً . ولا بدع اذا كانت الدعوى الى هذا الجهاد لم ترق في اعين يهود مصر الاغنياء المترهفين لما يعلمون من انهم يكونون هم الخاسرين على كل حال بلا محالة اذا اشهروا راية العصيان ولذلك لما رأوا تفاقم الشر من اولئك المهاجرين (وكانوا يلقبونهم بالاشقياء) عقدوا جمعية من اكابر يهود الاسكندرية قرروا فيها ان راحتهم وسلامتهم تتوقفان على القاء القبض على هولاء المحرضين وتسليمهم ليد الحكومة حتى بذلك ينفوا عن انفسهم

شبهة الاتحاد معهم على ما ينوون من العصيان والثورة . وبناء على هذا القرار قبض على نحو ٦٠٠ نفس دفعة واحدة من هؤلاء المتفانين في حب وطنهم بعد ان هرب منهم خلق كثير الى الارياف أمسك معظمهم في ما بعد وأعيدوا الى الاسكندرية حيث اذيق الجميع انواع العذاب لكي يحلفوا يمين الطاعة والولاء للامبراطور فسباسيانوس ولكنهم رفضوا ذلك باجمعهم حتى الاطفال منهم مفضلين الموت على فقد الاستقلال والحرية وهكذا قتلوا عن بكرة ابيهم . والظاهر ان هذا هو السبب فيما يشير اليه المؤرخون المسيحيون الاول بقولهم أن مدة رئاسة البطريرك انيانوس لم تكن مدة سلام وأمان وان كان هؤلاء المؤرخون لم يذكروا ادنى تفصيل عما كان له من الشأن في أثناء تلك الاضطرابات والقلاقل على ان لهيب الثورة بين اليهود اندلع وامتد بسرعة حتى وصل ايضاً الى القورينة حيث قام رجل حائك يدعى يوناثان منادياً فيها بالحرب لانقاذ الوطن محرضاً على ذلك الطبقة الوسطى من ابناء جلدته دون الاغنياء على ما قاله يوسيفوس المؤرخ . فلبى كثير منهم دعوته وسار في جيش منهم كثير العدد ولكنه قليل العدد قاصداً ديار مصر معتمداً على معونة سماوية تأتيهم فتساعدهم على الفوز في مشروعهم . غير انهم لم يكادوا يبرحون حدود القورينة حتى افشى اخوانهم الاغنياء سرهم الى كاتلوس والي هذه المقاطعة غدراً وخيانة منهم فاقتفى هذا أثرهم على الفور الى ان ادركهم فهزمهم شر هزيمة وفرقهم ايدي سبا . وقد عفى الوالي عن قتل

يوناثان المذكور زعيم هؤلاء الثائرين ولكن على شرط ان يبوح له باسماء اليهود الذين وعدوه بالانضمام اليه حينما يتم له الامر . فكاشفه يوناثان باسماء عدد كبير من اغنى واقوى رجال اليهود في القورينة والاسكندرية ورومية. ولا ندري اذا كان فعل ذلك وفاء بالشرط على ما تقتضيه الذمة او رغبة منه في الانتقام لنفسه ممن خانوه وغدروا به من ابناء ملته وعلى الحالتين كانت النتيجة ان ثلاثة الاف رجل من اغنياء اليهود في القورينة فقط سيقوا للذبح بلا تحقيق ولا بحث باسباب هذه الحادثة وصودروا في املاكهم واموالهم حسبما رواه يوسيفوس اما بقية من اباح باسمائهم يوناثان من يهود الاسكندرية ورومية فقد رفع كاتلوس امرهم الى الامبراطور وكانت عاقبة ذلك انه امر للحال بقفل هيكل اليهود في مصر وان لا يسمح لهم باقامة العبادة العلنية فيه وبذلك كسرت شوكتهم وخفضت كبرياؤهم الى الحضيض

وقد كان هذا الهيكل اشارة الفخر والاعجاب لديهم مدة ٣٠٣ سنة ينافسون به هيكل اورشليم القديم الذي خرب بخرابها . فمد الدهر اليه يده بالاذى فاباد فخرهم بمصر كما انه تناول باليد الاخرى بقية مجد اخوانهم يهود فلسطين حتى اصبح الفريقان سواء في الذل والهوان. ومن هذا الحين تجرد اليهود عن امتيازاتهم الوطنية فعلاً وان لم يجردوا منها شرعاً فصاروا مثل المصريين الاصليين في معاملة الحكومة لهم . وكما ان هيكل اورشليم قد صيره تيطس بحيث لم يبق فيه حجر على حجر كذلك

هيكل اونياس قد اصبح ومكانه الان اقفر مما كان يوم قال الملك بطليموس فيلومتر لاونياس نفسه « عليك بازالة تلك الاطلال الباقية من هيكل ليونتوبوليس حتى تبني هنالك ما تريد » يعني يبني هيكلا لليهود وهو الذي نحن بصدده . ولم يبق من آثار هذا الهيكل للآن سوى آكام من التراب قائمة في وسط تلك الاراضي المخصبة تشوه نضارة وجهها وجمال منظرها وهي محاطة بجدران سوره المزدوج لم تزل قائمة على ارتفاع قليل من سطح الارض المجاورة لها وبها من قدمين الى خمسة اقدام عمقاً من الشقافة وقطع الخزف اما الاحجار فقد اخذها المسلمون على مرور الايام والسنين حتى لم يبق منها حجر واحد وانما بقي أثر ذلك الهيكل المصري القديم الذى كان بناؤه من عهد رعمسيس الثالث وهو عبارة عن كتلة كبيرة جدا من الصوان مع قطع من المرمر الابيض شوهدت في ذلك المكان سنة ١٨٩٣ ب . م . غير انك اذا ذهبت الآن الى ذلك الكثيب القائم في تلك الاراضي الزراعية حيث يتطاير الهدهد بين الاثلام والحزون وحيث اللقلق الناصع البياض يتبختر بين الخضرة الزاخرة — لرأيت مركبات النقل التي حلت الآن محل الجمال تغدوا وتروح مشحونة بنفس تلك الشقافة الباقية ذاهبة بها الى حيث تسحق لتستخدم في بناء اماكن ودور جديدة بحيث لا يبقى بعد قليل من الزمن ادنى اشارة أو علامة على هيكل اونياس المار ذكره

اما حالة المصريين الاصليين في عهد فسباسيانوس وتيطس فصارت

الى احسن مما كانت عليه قبلهما وذلك بحسن ادارتها وعنايتهما بشؤون اهالي المملكة . فقد ذهب تيطس بنفسه الى ممفيس في موكبه الرسمي لحضور الاحتفال بتكريس الثور ابيس لما عزم المصريون على اقامته معبوداً بعد سلفه المتوفي . وقد تم في اثناء ملك فسباسيانوس بناء هيكل نيف النخيم بمدينة لا توبوليس (اسنا) بعد ان عمل فيه العاملون مدة مئين من السنين كما هي العادة في بناء الهياكل المصرية . وقد جاء هذا الاثر الجميل محاكياً بفخامته وحسن زخرفه افضل المباني التي شيدها المصريون في عهد وصول فني العمارة والهندسة قمة الكمال عندهم وقد حفر اسم فسباسيانوس في المحل المخصص لذكر المعبود الذي بني الهيكل على اسمه فوق واجهة الباب

وبعد وفاة تيطس تولى الامبراطورية الرومانية دومتيانوس قيصر وفي عهده أرسل جوفنال الشاعر الروماني المشهور لقيادة فرقة عسكرية من الجيش في مصر وكان قد بلغ من الكبر عتياً فمات عقيب وصوله اليها بعد ان سئمت نفسه البقاء فيها بعيداً عن الاهل والاوطان . وقد كتب في غضون هذه الرحلة رسالة عن المصريين اكثر فيها من الانتقاد على اهل الريف منهم ولا سيما ما يتعلق بحيواناتهم المقدسة

وفي اثناء حكم دومتيانوس هذا تنيح البطريرك انيانوس وخلفه ايلبوس على كرسي البطريركية . ثم انه في عهد الامبراطور نيرفا الذي اخلف دومتيانوس رفعت عن يهود مصر الضريبة الشخصية التي كانوا يؤدونها

منذ ايام البطالسة ومقدارها نصف شاقل عن كل فرد غير ان الضريبة عادت ففرضت عليهم ثانية في عهد احد القياصرة الآتي ذكرهم فيما بعد . اما حالة الكنيسة المصرية مدة حكم هؤلاء الامبراطرة فكانت على ما يرام من الامن والسلم عاملة نامية آخذة في الامتداد والانتشار بسرعة عظمى

الفصل الخامس

رواد النيل في القرن الثاني . سنة ٩٨ ب . م

تولى الحكم بعد دومتيانوس الامبراطور تراجان وكان في اوائل حكمه مشغولاً جداً باحوال اوروبا ومع ذلك تم في عهده مشروعان خطيران في مصر اولهما تجديد الخليج البطليموسي الذي يصل النيل بالبحر الاحمر وكان قد اهمل وانهارت جوانبه فرممه تراجان وزاد في طوله كثيراً حتى اوصله الى بابيلون بعد مروره بمدينة عين شمس . ولا ريب في انه هو الخليج الحالي بعينه وانما رمم مرة ثانية وزيد في طوله قليلاً (نظراً لتحول النهر عن مجراه) في عهد الفتح الاسلامي . والمشروع الثاني بناء قلعة بابيلون العظيمة وهي المعروفة بقاياها الان باسم « قصر الشمع » وهو لهذا العهد يشتمل على ست من اقدم الكنائس المسيحية بالقاهرة .

اما عند انشاء القلعة فلم يكن داخل اسوارها الا كنيسة واحدة وهي المعروفة الان بابي سرجة . هذا وليلاحظ القاريء ان قلعة تراجان هذه هي غير القلعة القديمة التي ذكرها استرابو المؤرخ وكان موقعها الى الجنوب من قصر الشمع بالقرب من دير بابيلون الحالي

ولا حاجة بنا هنا الى ذكر الرسائل التي دارت بين بلني الاديب الروماني والامبراطور تراجان عن احوال المسيحيين في ذلك العصر اذ لا مساس لها بمسيحيي مصر فضلاً عن ان شهرتها تغني عن الذكر . اما سياسة تراجان مع المسيحيين فكانت غالباً سياسة تساهل وتسامح غير ان استشهاد القديس اغناطيوس اسقف انطاكية في ايامه يعتبر نقطة سوداء في تاريخه . وفي السنة الثامنة عشرة من ملك تراجان عادت المنازعات والمنافسات بين اليونان واليهود في الاسكندرية وتفاقم الخطب حتى آل الامر الى قيام اليهود عموماً على الدولة الرومانية واشهارهم راية العصيان عليها في مصر وقورينة فحاول لوپوس الوالي الروماني ان يقمع ثورتهم فلم يتغلب على الثائرين وكانوا تحت قيادة رجل يدعى لوكاس من يهود قورينة فبقي بهذا الاقليم مدة سنتين يحارب الرومان ويعثو في الارض فساداً حتى اصبحت هذه المقاطعة الاسيفة تئن من اهوال تلك الحرب الداخلية الى أن انفذ الامبراطور اخيراً القائد مارسيوس توربو بجيش جرار الى مصر لمحاربتهم وبعد قتال عنيف جرى في عدة مواقع انهزم اليهود شر هزيمة وقتل الوف منهم وجردوا عقيب ذلك من امتيازاتهم الوطنية تجريداً

شرعياً وبذلك ضاعت آمالهم وخابت احلامهم فيما كانوا ينتظرون من عودة الملك اليهم ومن ذلك العهد اصبحوا يعتنقون الديانة المسيحية افواجاً افواجاً

وبعد هذه الحرب الاصلية بمدة وجيزة مات الامبراطور تراجان وخلفه ادريانوس الذي شرع في السنة الرابعة من ملكه يطوف الولايات الرومانية متفقداً بنفسه جميع انحاء مملكته . فلما حل ركابه الامبراطوري القطر المصري سار صعداً في النيل ومعه انطينوس صديقه الحميم وهو غلام اوربي ذو جمال باهر . واتفق ان انطينوس لاقى منيته في أثناء هذه السياحة النيلية ولم تعرف الى الآن اسباب وفاته الحقيقية غير ان الرواة يزعمون انه قدم نفسه باختياره ضحية عن سيده ومولاه الامبراطور وتفصيل ذلك انه في أثناء عودة الموكب الامبراطوري من الوجه القبلي راكباً تلك القوارب النيلية مزدانة بالزخارف والاعلام وفيها اجواق الموسيقى تعزف بنغماتها الشجية المطربة وبها من دواعي الحظ والانس ما يشرح الخاطر ويسر الناظر — كما حصل في احتفالات الملوك والعظماء في النيل قبل ادريانوس وبعده بالآف من السنين — تخالج الامبراطور شيء من الخوف والكآبة وهو محاط باسباب السرور والحبور الآنف ذكرها كأنما حدثته نفسه ان سروره وغبطته قد بلغا درجة عظيمة قد تستوجب حسد الآلهة له عليها وانه لا بد لتسكين ثائرها من تقديم ضحية مهمة ترضيها والا حل به الخراب والدمار عاجلا . ففكر انطينوس الذي كان

يحب مولاه حباً يرخص معه كل غال وفطن بفراسته الى سبب حزن سيده مما رآه من خونه واضطرابه فسار في الحال الى اتمام ما خطر بباله بان القى بنفسه في النيل معلناً انه لما كان على يقين من ان منزلته عند مولاه فوق كل شيء هانت عليه الحياة حباً بدوام سعادة ذلك المولى . هذا ومعلوم عند قراء التاريخ ما اصاب ادريانوس من الحزن المفرط لموت حبيبه وكيف انه اصدر اوامره بوجوب اعتباره بمنزلة الآلهة وقد اسس مدينة في المكان الذي بذل انطينوس نفسه فيه لاجله وسماها مدينة انطينوس تذكاراً له وهي التي صارت بعدئذ عاصمة لصعيد مصر اما الآن فحلت محلها قرية صغيرة تدعى البرشا (بمديرية المنيا) . وقد اطلق ايضاً اسم انطينوس على نوع من زهر البردي المصري اكتشفه وقتئذ الشاعر بنكراتيس الاسكندري وقدمه للامبراطور عند رجوعه من سياحته وهو يمتاز عن الزهر المعروف لهذا النبات بكونه وردي اللون ليس بالازرق ولا بالابيض . وممن كان بالاسكندرية من مشاهير الكتاب في ذلك الوقت غير بنكراتيس السالف الذكر ابو لونيوس ديسكولوس النحوي وكانت له مؤلفات عديدة ضاعت كلها تقريباً ولم يبق منها سوى مجموعة في آداب المصريين واخرى تشتمل على حكايات خرافية ومنهم ابيان المتشرع الروماني الشهير وكان قد صرف عدة سنوات في رومية ثم كتب تاريخاً رومانياً بعد عودته لوطنه

وفي سنتي ١٣١ و ١٣٢ ظهر يهودي آخر اشتهر باسم البار كوشبا

(ومعناه ابن النجم أو كما فسره بعضهم ابن الكذب) ورفع راية العصيان على الحكومة الرومانية في فلسطين وصادف عمله بعض النجاح في اول الامر فسار للانضمام اليه جيش من يهود مصر وليبيا ثم اشتبك القتال بينه وبين تينيوس روفوس الروماني والي اليهود واستظهر عليه العصاة فاستدعت الحكومة الرومانية القائد سفيروس من بريطانيا لمحاربته وجرت بينهما حروب دموية استمرت نحو اربع سنين وانجلت اخيراً عن انهزام العصاة وتبديد شملهم

وفي سنة ١٣١ ايضاً زار ادريانوس مصر مرة ثانية ورافقته في هذه الزيارة امرأته الملكة سابينا ومعها زمرة من نساء الامراء وعقيلات الكبراء والاعيان وركب النيل معهن مرة اخرى اجابة لالتماس الملكة سابينا منه الفرجة على تمثال ممنون الشهير بصوته الموسيقي وهو احد التماثيل الهائلة التي بصحراء ثيبة شيده الملك امونحوتب الثالث في هيكل خاص لم يبق شيء من آثاره الان لعظم قدمه . فلما زارت الملكة ذلك المكان رأت التمثال في حالة ارداء مما هو عليه الان نصفه الاعلى ساقطاً ملقى على الارض قطعاً ولم تسمع ذلك الصوت يخرج من شفتيه اذ وقفت بجانبه يحف بها اعضاء معيتها منتظرة حدوث هذه العجيبة وقت شروق الشمس على التمثال . غير ان مجرد اظهار استياء الامبراطور من الكهنة بهذا الشأن كان كافياً لصدور تلك النغمات الموسيقية الرخيمة من التمثال في صباح اليوم الثاني وتشنيف آذان الملكة واترابها بسماعها . وقد نقش عدة ممن

في معية الملكة اسماءهنّ على قاعدة التمثال كما يفعل السياح اليوم . وكتبت احداهنّ هي جوليا بالبيلا (ابنة كلوديوس بالبيلوس الذي وليّ مصر في عهد نيرون وألف تاريخاً لها) ابياتاً من الشعر على اسفل التمثال ذكرت فيها نسبها الذي يتصل بانطيوخوس ملك كوماجين (احدى مقاطعات سوريا) وزيارتها ثانية مع الامبراطور وقرينته . ومكث ادريانوس هذه المرة بمصر نحو اربع سنوات كانت اكثر اقامته فيها بالاسكندرية . وفي اثناء زيارته المرة الاولى لمصر (سنة ١٢٢) توفي البطريرك بريموس واخلفه يسطس الذي قيل انه احد الذين عمدهم مارمرقس وكانت نياحته قبل زيارة ادريانوس الثانية لمصر بسنة واحدة وخلفه على كرسي البطريركية يومينيس وقلما يعرف عنه شيء

ومن الاشاعات المتواترة ان المسيحيين في الاسكندرية ذاقوا عذاب الاضطهاد مدة حكم تراجان ثم في عهد ادريانوس ايضاً غير اننا لم نعثر على ما يؤيد ذلك في التواريخ التي يوثق بصحتها ولكن من المحتمل كثيراً ان من المسيحيين من اضطهدوا باعتبار كونهم يهوداً في ايام العصيان الذي حصل مدة هذين الامبراطورين حيث كان ينظر اليهم غالباً في القرن الاول والثاني كأنهم شيعة يهودية متطرفة يخشى شرها . وفضلاً عما تقدم فقد كانت مصر على الدوام مصدراً للهراطقة من ذوي العقول المضطربة حتى انه في مدة زيارة ادريانوس لمصر المرة الثانية كانت انقسامات المسيحيين وتعدد مدارسهم بالاسكندرية قد وصلت الى درجة

يلتمس معها العذر لذلك الامبراطور فيما وقع فيه من الابهام وسوء الفهم بشأن حقيقة امر المسيحيين والدين المسيحي . فقد كان كربوكراتيس وباسيليدس وفالنتينيان وجميعهم مصريو الجنس يتفننون وقتئذ في الباس القواعد الدينية ثوب المجاز والرمز مجتهدين في اذاعة تعاليمهم ومذهبهم بالاسكندرية . نعم قد عد هؤلاء الثلاثة بعد موتهم من الهراطقة ولكن لا يوجد برهان صريح على أن الكنيسة حكمت على أي منهم بالهرطقة في اثناء حياته وربما كان ذلك لانهم كانوا يؤمنون بالحقائق الجوهرية في الديانه المسيحية وانما أثموا لانهم كانوا يحاولون مزج اسرار الديانة الوثنية المصرية وغوامض رموزها بقواعد الايمان المسيحي البسيطة . ولا ريب في انه قد كان الاولى بهم عدم التعرض للخوض في مباحث التوحيد والتثليث وامر خلق العالم وتركيبه وما اشبه من المطالب العويصة بل حبذا لو امكن تخصيص الاشتغال بمثل هذه المسائل بمن تدربوا على مزاولتها فقط من ذوي الفكر السليم الذين حصلوا على التربية المؤهلة لذلك كما كانت العادة عند كهنة المصريين القدماء على ما ارشدتهم اليه حكمتهم ونجابتهم . على اننا لانخال ما بلغ ادريانوس من امر الدين المسيحي لذلك العهد الا نتيجة افكار هؤلاء المتطفلين كما يظهر من الخطاب التالى وهو بنصه (١) : —

« من ادريانوس قيصر الى سرفيانوس القنصل — سلام

(١) يعزي بعضهم هذا الخطاب لغير ادريانوس ويقولون انه كتب قبل هذا الاوان بقليل

«اما بعد فان مصر التي اطنبت لي في مدحها ايها العزيز قد وجدت اهلها على درجة عظيمة من الخفة والطياشة وقلة الحزم يصدقون كل ما يقال ويطيرون مع كل ريح تهب . فالذين يعبدون سيرابيس مسيحيون والذين يدعون انفسهم اساقفة (١) المسيح عبيد لسيرابيس . وانك لا ترى رئيساً لليهود او سامرياً او شيخاً للمسيحيين الا كان رياضياً وعرافاً ومشعوذاً . بل ان البطريرك نفسه لما جاء الى مصر (٢) قال عنه بعضهم انه يعبد الاله سيرابيس وقال آخرون انه يعبد المسيح . اما المصري من حيث طباعه فهو ميال الى المشاغبات والفتن غير حقود اما من حيث مجموع افراده فهو شعب وافر الثروة آخذ باسباب النجاح فلما ترى فيه رجلاً عطلاً من عمل يرتزق منه ما يقوم بحاجة معاشه . فبعضهم يصب الزجاج وبعضهم يصنع الورق وبعضهم ينسج الكتان وهلم جراً بحيث انك ترى الاعرج والاعمى حتى الاكتع منهم يشغلون اوقاتهم فيما يلائم احوالهم من الاعمال الصناعية هرباً من الكسل والبطالة . اما الههم فهو « لا شيء » وهو الذي يعبده المسيحيون واليهود وكل الامم على السواء . وانني لا تمنى لو كان هذا الشعب أطيب اخلاقاً مما أرى كما هو شأن الافراد في امة كبيرة كثيرة العدد كالامة المصرية يجدر بها ان تكون صاحبة المقام الاول في بلادها . اما انا فقد منحتهم كل شيء ووددت

(١) لم يكن في مصر اساقفة غير البطريرك الى زمن ديمتريوس اما الذين كانوا تحت يد البطريرك فكانوا كهنة وشمامسة فقط ولكن لعل الكهنة الذين كانوا مع البطريرك في الاسكندرية كان لهم امتيازات خصوصية كما هي عادة الذين يخدمون في الكنائس الكبرى .
(٢) يعني لما ذهب الى مصر قاطبة تمييزاً لها عن مدينة الاسكندرية

اليهم امتيازاتهم القديمة بل زدتهم عليها زيادة تذكر بالشكر » اهـ

على ان ادريانوس قد صار فيما بعد أعرف كثيراً بحقيقة الدين المسيحي مما كان وقت كتابة خطابه هذا وكان ذلك عقيب مطالعته رسالتين قدمتا له في اواخر عمره من تاليف بعض الائمة المتقدمين في ايضاح حقيقة النصرانية واصول الديانة المسيحية . قيل وكان صاحب احدى الرسالتين ومهديها قوادراتوس وتنسب الثانية لايرستيدس . غير انه يبعد عن الظن ان الاول منهما عاش الى زمن ادريانوس بدليل قوله في رسالته المذكورة (حسبما رواه يوسيبيوس الذي قراها بنفسه) ما نصه « ان بعض الاشخاص الذين صنع فيهم ربنا يسوع المسيح آيات الشفاء لا يزالون احياء » ولذا يكون الارجح ان مقدم الرسالة لادريانوس كان احد اعضاء الكنيسة المسيحية باثينا او الاسكندرية او رومية . واذا ثبت ذلك فلا يلزم الجمع بين قوادراتوس هذا واسقف اثينا المسمى بهذا الاسم المعاصر لادريانوس . أما ارسيتيدس مؤلف الرسالة الثانية فكان فيلسوفاً مسيحياً من مدينة اثينا وقد امكن العثور على رسالته في احد المدافن المصرية من عهد قريب بعد ان ظلت مفقودة عدة قرون

ثم ان آثار المذهب الاغنوسطي كانت ظاهرة وقتئذ حتى على بعض المصكوكات المستعملة في عهد الامبراطور ادريانوس حيث تنوعت اشكالها وكثر عددها الى درجة لم يسبق لها مثيل في عهد غيره . فكان لكل مركز و أقليم في القطر المصري نقود خاصة به منها ما كان منقوشاً عليه بعض

رموز المذهب الاغنوسطي ومنها ما رسم عليه بعض التماثيل المصرية ومنها ما يمثل رأس انطينوس المتأله (الذي افتدى مولاه) . هذا وقد اشاع بعضهم ان ادريانوس شيد في أواخر عمره هياكل بدون اصنام او تماثيل على نية تكريسها لعبادة المسيح فيما بعد . وقد لا يخلو هذا القول من صحة فيما يتعلق بتشييد تلك المعابد ولكن لا دليل يدل عليه في اثبات تلك النية لادريانوس . وقد توفي هذا الامبراطور بعد مبارحته الديار المصرية بثلاث سنوات وبموته كانت نهاية ملكه ونهاية مدة الالف واربعمائة وستين سنة الثانية المقدرة لدورة الشعرى اليمانية وفي نهايتها توافق افتتاح السنة المدنية مع السنة الدينية عند المصريين

الفصل السادس

﴿ المدرسة اللاهوتية الاولى . سنة ١٣٨ ب . م ﴾

كانت فاتحة حكم انطونينوس في مصر اعادة مساحة جميع السكك العسكرية في هذه البلاد فعرفت من ذلك الوقت بخطط انطونينوس وكان عدد هذه الطرق ستاً — ثنتان منها تمران ببابيلون الاولى آتية من بلاد النوبة (اونوبيا) وهي التي بعد اجتيازها ببابيلون تمر في وسط الاقاليم التي يقطنها اليهود حتى تصل الى كايسما . والثانية التي تمر من

ممفيس الى بيلوزيوم مجتازة النيل عند بابيلون . وقد انشأ انطونينوس ايضاً ميداناً لسباق الخيل بمدينة الاسكندرية وزاد على عدد ابوابها اثنين جديدين هما باب الشمس وباب القمر . ثم مما يدلنا على ان الديانة الوثنية القديمة كان بها لذلك العهد بقية من الحياة ما تم في مدة حكم هذا الامبراطور ايضاً من انشاء هيكل جديد في الواحات الكبري باسم (امون نف) المعبود المصري . وهنالك رواية لا نرى موجباً للارتياب في صحتها ولذا نثبتها هنا وهي انه في عهد الامبراطور انطونينوس ايضاً — اي نحو سنة ١٥١ ب . م — عزم القديس فرونتونيوس على ترك العالم زهداً في الدنيا وملاذها فجمع اليه جماعة من الاخوة وسار بهم الى وادي الطرون (في مديرية البحيرة) وهنالك قضوا بقية حياتهم بالنسك والتعبد فى بعض الكهوف الصخرية فكان ذلك عبارة عن تأسيس اول دير مسيحي

وفي سنة ١٦١ ب . م توفي الامبراطور انطونينوس وخلفه مرقس اوريليوس الذي كان قد تبناه في حياته . وكان هذا الامبراطور قد ربي على مبادىء الفلسفة الرواقية بواسطة استاذه ديوغنيطوس فبقي شديد التمسك بها واشتهر خصوصاً بانكاره المعجزات والاحلام . وفي مدة حكمه كان القتل أمراً محتوماً على كل من اعترف بالدين المسيحي او أتهم به فكان المسيحيون في اوقات الاضطهاد يساقون للمحاكمة كمجرمين لامتناعهم عن عبادة الآلهة الكاذبة او بحجة انهم كفرة ملحدون لا يؤمنون بآله . وقد كتبت حينئذ عدة رسائل دفاعاً عن الدين المسيحي

والمسيحيين منها رسالة ثانية للقديس يوستينوس مارتيروس ومنها رسالة الى ديوغنيطوس مهذب مرقس اوريليوس اجمع الناقدون على استحسانها والاعجاب بها بل احلها الجم الغفير من المسيحيين المنزلة الثانية من الاعتبار بعد رسائل العهد الجديد القانونية . وقد بقي الناس عدة قرون معتقدين بصحة نسبة هذه الرسالة الى يوستينوس ايضاً غير ان ابحاث العلامة كورتونز المدينة اسفرت عن الحقيقة في هذا الشأن وهي ان كاتبها رجل اسمه ابروسيوس من اكابر بلاد اليونان كان قد اعتنق الدين المسيحي فاهاج ذلك عليه ذويه ووجوه وطنه . على ان اتعاب يوستينوس وامبروسيوس هذه لم تأت بفائدة تذكر فان الاول مات شهيداً في رومية بين سنتي ١٦٦ و ١٦٧ وكان قد استشهد قبله ببضع سنين مار بوليكاربوس في ازمير وبعده في سنة ١٧٧ أهلكت بلاندينا ورفيقاتها في مدينة ليونس . هذا والظاهر ان يوستينوس لم يأت مصر الامرة في حياته كعابر طريق غير ان مدينة الاسكندرية لم تكن حينئذ في حاجة الى المزيد من مشاهير الاساتذة والعلماء المسيحيين سواء كانوا هراطقة او من ابناء الكنيسة الجامعة بدليل ما ظهر من ثمرة اعمالهم في ذلك الحين بانضمام كثيرين من اشراف الوثنيين واكابرهم الى احضان الكنيسة المسيحية . فمن هؤلاء أثناغوراس الفيلسوف الاثنوي وكان يشغل وظيفة عالية مهمة بالمتحف الاسكندري ويعتبر من اساطين الديانة الوثنية بالاسكندرية وكان كغيره من الفلاسفة الافلاطونيين كثير البحث

في امر الديانة المسيحية طمعاً في كشف اغلاطها واظهار فسادها فانكب على درسها باجتهاد عظيم وكانت النتيجة الطبيعية انه اعتنق الديانة المسيحية وقد استمر بعد ذلك على لبس رداء الفلاسفة ولم يمتنع عن وظيفة التدريس بيد انه اصبح من اعظم انصار النصرانية واكبر المدافعين عنها. ومما كتبه لهذا الغرض رسالة عنونها الى مرقس اوريليوس وكومودس ويظن ان تاريخها بين سنتي ١٧٦ و١٧٧ ب٠م

ومن معاصري اثناغوراس في ذلك الوقت كاوديوس بطليموس العالم الجيوغرافي الشهير وكان ايضاً فلكياً ماهراً تخرج من مدرسة الاسكندرية الرياضية ومن تآليفه كتاب في الالحان الموسيقية وجدول يحتوي على ارصاد فلكية عن الكسوف والخسوف لمدة ثمانمائة سنة سابقة لعهده. وقد اتم معظم هذه الارصاد في بابل اشور واكمل باقيها في بابيلون المصرية كما يظهر من اسماء اماكن خطوط الطول والعرض التي ذكرها

وبعد قمع ثورة اليهود التي حدثت سنة ١٣٥ ب٠م استتب السلم وساد الهدو فاخذت الديانة المسيحية تمتد في مصر امتداداً عظيماً حتى كان من ذلك انه في اواخر هذا القرن تأسست المدرسة المسيحية الشهيرة المعروفة بمدرسة الاسكندرية اللاهوتيه وان كان تاريخ افتتاحها واسم مديرها الاول لم يزالا غير معروفين حق المعرفة. على انه من سوء الحظ ايضاً اننا لا نعلم شيئاً كثيراً عن تاريخ حكم مرقس اوريليوس في مصر بل غاية

ما اتصل الينا انه في سنة ١٧٢ ب . م جاهرت الجنود المصرية بالعصيان على القائد الروماني فحاربتهم الجنود الرومانية تحت قيادة افيدوس كاسيوس وبعد عدة وقائع عنيفة استظهر عليهم . ثم ان افيدوس هذا طمحت انظاره بعد ذلك الى الامبراطورية فنادى بنفسه امبراطوراً سنة ١٧٥ فتأهب مرقس اوريليوس الى قتاله وسار اليه بجيش اخر ولكن قبل وصوله الى مصر وردت اليه البشائر بان الجند الروماني فيها قام على القائد المذكور وذبحه هو وابنه معلناً بذلك عودته للطاعة والولاء . فاستمر مرقس في سيره الى ان بلغ الاسكندرية فمكث بها زمناً نال فيه من رضاء اهلها وثناء فلاسفتها وعلمائها ما لم ينله امبراطور قبله وذلك بحلمه ودماثة اخلاقه . والظاهر انه في اثناء هذه الرحلة قدم اثناغوراس الى الامبراطور رسالته السالفة الذكر اما في أثينا او بالاسكندرية ولم نسمع بعد ذلك بحصول اضطهاد بمصر في مدته مع ان الاضطهاد وقع في ليونس في السنة التالية

ثم اننا في السنة الاولى او الثانية من حكم الامبراطور كومودس الذي اخلف مرقس اوريليوس على المملكة الرومانية نرى بنتينوس متقلداً رئاسة المدرسة اللاهوتية . والظاهر ان بنتينوس هذا ومعاصره اكليمنضس الاسكندري الذائع الصيت كانا كلاهما تلميذين لاثناغوراس المار ذكره وكانا كباقي مسيحيي مصر الاولين متضلعين في علوم القدماء وحكمتهم كتضلعهما في كل الحقائق والمبادىء المسيحية الصحيحة . وكان

بطريرك الاسكندرية في ذلك الوقت انبا يوليانوس الذي تبوأ الكرسي البطريركي بعد اغريبانوس في سنة ١٧٩ ب.م وهي السنة الاخيرة من ملك مرقس اوريليوس

ويروى في امر رسامة خلفه انه لما احس يوليانوس بدنو اجله ظهر له ملاك الرب في رؤية او في حلم واخبره ان الرجل الذي يأتيه بهدية من العنب في اليوم التالي يكون هو الذي اختاره الله خلفاً له على كرسي البطريركية. فلما كان الغد جاءه الرجل واذا به شاب لا علاقة له بالاكليروس مطلقاً بل هو فلاح مصري امي متزوج وقد احضر معه عنباً من محصول كرمه . فلما قيل له انه انتخب ليكون بطريركاً توسل بضراعة ملتمساً اعفاءه من حمل هذه المسئولية الهائلة فلم يلتفت الى طلبه وتمت رسامته بالقوة الجبرية على ما قيل . فلما رأى ذلك اخذ للحال في اجهاد جميع قواه توصلاً الي اصلاح نقائص تربيته الاولى ففتح الله عليه بشيء كثير من العلم والحكمة حتى اصبح من اعظم احبار ذلك العصر واكبر ائمته واستمر بطريركاً مدة ٤٣ عاماً حدثت فيها عدة حوادث مهمة . واول عمل اتاه هو انه ارسل بنتينوس لنشر الدين المسيحي ببلاد الهند(١) . وكانت قد اتته رسالة من تلك البلاد النائية يلتمسون بها من بطريرك الاسكندرية (وهي اذ ذاك اشهر مدينة في العلم والفلسفة) ان يرسل اليهم معلماً للايمان

---

(١) ليكن معلوماً عند القارىء الكريم انه في القرن الثاني للمسيح كانت اكثر البلدان المتاخمة للهند تعرف بهذا الاسم ـ غير انه يظهر من عدة قرائن ان المقصود هنا بالهند هو الاقطار الهندية الحقيقية.

يعادل علمه تقواه . فعرض البطريرك ديمتريوس الامر على بنتينوس فقبله هذا بكل رضى وذهب بنفسه لمباشرة هذا العمل تاركاً لاكليمنضس رئاسة المدرسة اللاهوتية الى ان يعود هو اليها. قيل وقد وجد عند الهنود نسخة من انجيل متى باللغة العبرانية كانت موضوع اجلالهم وتعظيمهم ويقولون ان مار برثلماوس هو الذي أتى بها الى اقطارهم الهندية ويظن مارجيروم ان بنتينوس جاء بهذه النسخة الى الاسكندرية . هذا ولم يعرف كم مقدار الزمن الذي صرفه بنتينوس في بلاد الهند لهذا الغرض وانما المعلوم انه حين رجوعه منها تولى رئاسة المدرسة اللاهوتية ثانية وبقي فيها الى ان توفى سنة ١٩٤ ب . م على الارجح اذ انه من شهادة المؤرخين قد ادرك زمن ساويرس الامبراطور وهذا ملك من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ ولكنه لم يعش بعد سنة ١٩٤ المذكورة بدليل انه لما حدث الاضطهاد سنة ٢٠٣ كان اكليمنض حينئذ مستقلاً برئاسة المدرسة اللاهوتية منذ بضع سنوات

ولقد هال المدرسة الوثنية ما رأته من سرعة انتشار الديانة المسيحية لذلك العهد فدبت الغيرة في عروقها وجدد ذلك روح النشاط عندها. فكانت خزائن مكتبة الاسكندرية في ذلك الوقت تحتوي على نسخ من جميع مؤلفات اليونانيين والمصريين ومع ذلك كان السعي على قدم وساق في تكثير مجلداتها وزيادة التآليف الجديدة فيها فخصص قسم من النساخ لكتابة ما يمليه عليهم المؤلفون الاحياء واشتغل قسم آخر بنسخ

ما امكن العثور عليه من كتب المؤلفين والفلاسفة الوثنيين الذين درجوا وذلك بقصد تسهيل انتشارها حتى يطلع الطلاب عليها . وقد بلغ عدد هؤلاء النساخ مبلغاً عظيماً حتى اصبحوا عبارة عن جيش صغير وكانوا تبعاً لحالة وظيفتهم يقسمون الى قسمين هما ارباب القلم السريع لكتابة الاملاء وناسخو الكتب وكان ثلاثة من اعظم مشاهير المؤلفين الوثنيين في ذلك الحين وهم أثينيوس ويوليوس بولوكس وكيرون مصريين مولودين بمدينة نوكراتيس . وقد بقي من مؤلفات الاول كتاب واحد عنوانه « محادثات الفلاسفة » وفيه وصف شائق لحالة الهيئة الاجتماعية في الاسكندرية لذلك العهد. اما يوليوس بولوكس فلم يكن الا من اهل النقد الشفاهي ولكن كيرون صنف تاريخاً في ملوك مصر وكهنتها فقد برمته ولما يصلنا شيء منه لسوء الحظ . ومن الكتبة المعروفين في عهد الامبراطور كومودس لوسيانوس مؤلف كتاب المحاورات وكان سكرتيراً او كاتب يد الوالي الروماني حينئذ . ومن الفلاسفة الوثنيين ايضاً شلسوس الابيقوري اشتهر برسالة له ضد الديانة المسيحية التي عمت وزاد انتشارها اكثر من الدين الموسوي والديانة الوثنية الاصلية في مصر غير ان رسالته فقدت كغيرها ولم نعرف من محتوياتها الا ما جاء في رد اوريجانوس عليها . وقد كتبت في بحر تلك المدة عدة كتب اخرى في هذا الباب ولكن من الحقائق المقررة التي لا يشوبها ادنى ريب ان الديانة المسيحية فضلاً عن اجتذابها زمام العلماء في جميع انحاء العالم المتمدن حينئذ وانقياد ثلاثة من اعاظم

الرجال — هم ديمتريوس وبنتينوس واكليمنضس — لاوامرها وخدمتها في مدينة الاسكندرية فقط فقد كانت آخذة في التغلب بسرعة غريبة على الاديان الاخرى في القطر المصري حتى انه لما كان بطريرك الاسكندرية هو الاسقف الوحيد في مصر لحد ذلك العهد رأى ديمتريوس حينئذ انه من الضروري تعيين ثلاثة اساقفة آخرين للاقاليم البعيدة عن مركز البطريركية ليتمكنوا من رعاية قطيع المؤمنين . ثم من اوضح الادلة على اضمحلال الديانة المصرية القديمة تلك المراثي المحزنة التي انشأها صاحب كتاب هرمس الاكبر اذ قال :—

« صحيح ان مصر هيكل الدنيا ومعبد الوجود ولكن لما كان من الواجب على الحكيم ان يتدبر في مصير الامور ليعرف عواقبها وما تنتهي اليه فاعلم اذاً انه سيأتي وقت يظهر فيه للمصريين كأن عبادتهم وتقواهم قد ذهبت سدى وان ديانتهم المقدسة اصبحت لغواً اذ يرجع اللاهوت من الارض الى السماء وتصبح ارض مصر مهجورة وتمسي خالية من الدين والتقى بعد ان كانت مستقر الالوهية لان البلاد متى اصبحت في قبضة الاجانب تهمل امور دينها وتسن فيها الشرائع ضد التقوى والمتقين وتفرض القصاصات على المتدينين . فتمسي هذه البلاد المقدسة ملأى بالعبادة الوثنية مشحونة بهياكل الاصنام وقبور الاموات . فواحسرتاه عليك يامصر اذ سوف لا يبقى فيك سوى ظل دياناتك فلا يؤمن بها الاعقاب والخلف وسوف لا يدوم لك سوى

تلك النقوش المحفورة على اعمدة مبانيك الشاهقة الفخيمة لتشهد باعمالك البارة التقوية . سيحتلك وآسفاه عليك قوم من الحثيين او الهنود اوأية قبيلة اخرى متوحشة فيغادرك اللاهوت الى السماء ويهجر الله والانسان مصر . هلم فاسمع ما اقوله لك ايها النهر المقدس وع ما سأنبئك به مما سيحل بك . تمتلىء مياهك وينابيعك المقدسة بالدماء حتى يفيض على شطوطك ويصير عدد الاموات الذين تبتلعهم اكثر من عدد الاحياء والذي لا يبقى حياً لا يعرف انه مصري الا بلغته فقط اذ تكون اعماله كاعمال المتوحشين » اه

وفي ذلك الوقت شعرت الكنيسة بضرورة الشروع في ترجمة حياة السيد المسيح الى اللغة المصرية المعروفة الآن باللغة القبطية وقد تم لها ذلك غير ان هذا الانجيل الذي كان ينسب للمصريين ضاع منذ زمان طويل حتى انه ليصعب الآن معرفة اي الاناجيل الاربعة كان هو بل قد اصبح من المرجح الآن استدلالاً من بعض شذرات وصلت الينا باللغة اليونانية ان الانجيل المذكور لم يكن ترجمة وانما هو مجموعة ادخل اليها شيء من العقائد المصرية القديمة بحيث اصبحت لا يصح اعتبارها ولذا قرر اوريجانوس وجيروم انها من الكتابات المزورة ومع ذلك فقد نشر هذا الكتاب حينئذ في البلاد بكل حرية وبدون ادنى معارضة من تلك الكنيسة المسيحية المثقفة بالعلوم والمعارف . على ان زمن السلام لم يدم طويلاً لتلك الكنيسة الفتية اذ

باغتها عاجلاً الاضطهاد الاول الذي حصل للمسيحيين في بر مصر

الفصل السابع

﴿ اوريجانوس . سنة ١٩٣ ب.م ﴾

قلنا فيما سبق انه في اوائل حكم الامبراطور ساويرس كان اكليمنضس الاسكندري رئيساً للمدرسة اللاهوتية في الاسكندرية (وانما عرف بالاسكندري تمييزاً له عن سميه اكليمنضس الروماني) اما اسم هذا الرجل الشهير فهو تيطس فلافيوس اكليمنضس وفيه اشارة الى وجود بعض الصلة بالعائلة الامبراطورية غير اننا لانعرف شيئاً اكيداً عن مولده وان كانت قد غلبت عليه النسبة الى الاسكندرية . وقد ارتد عن الديانة الوثنية بعدان صرف بضع سنوات في السياحة والدرس والمطالعة وتتلمذ بعد ذلك لبنتينوس وصار صديقه الحميم وقام مقامه مدة غيابه ببلاد الهند في الرئاسة على المدرسة اللاهوتية وعين بعد موته رئيساً لها وفي نحو ذلك الوقت ايضاً تمت رسامته كاهناً جرياً على عادتهم في ان هذه الرئاسة تكون لكاهن وانما يستثنى من ذلك اوريجانوس الذي لم يدرج في سلك الكهنوت الا بعد انفصاله عن المدرسة المذكورة

اما شهرة اكليمنض فلم تحصر في طول باعه في التعليم والتدريس فقط بل كان طائر الصيت جليل السمعة ايضاً بما كان له من التآليف والتصانيف المعتبرة وقد حفظ منها الى يومنا هذا خمسة مؤلفات عدا عن عدد عظيم من بقايا كتب مختلفة. اما الحقيقة العظمى التي كان هو من اول دعاتها وتفنن في اظهارها على جملة طرق واساليب هي ان الدين المسيحي وارث الماضي وترجمان المستقبل . وانه ليس بنباء غريب في تاريخ الكون او مناقض للحوادث والانباء السابقة بل هو اتمام كل اعلان او وحي او نبوة حصلت وتفسير وايضاح لكل كتاب أنزل ولكل قول او مبدأ نطقت به افواه العلماء والحكماء وارباب العقول الثاقبة سواء كانوا من اليهود أو الامم أو اليونان أو المصريين . وكان اكليمنضس لا يقتبس ادلته واستشهاداته على الدوام من العهدين القديم والجديد فقط بل من الاسفار الغير موحى بها ايضاً مثل سفر ابن شيراخ ويهوديت ومن الكتب المسيحية التي لا تعتبر من اجزاء الكتاب المقدس كرسائل برنابا ورسائل اكليمنضس الروماني وعظات ماربطرس ورسائل هرمس المسماة بالراعي وانجيل العبرانيين . وكان يعتبر الكتابين الاولين مساويين للرسائل القانونية

غير ان اوقات الهدؤ والسكينة لم تدم طويلاً في مصر بعد ان تمتعت بها البلاد سبعين عاماً وهي المدة التي انقضت منذ عصيان اليهود الى بدء ظهور الاضطهادات ضد المسيحيين وفي خلالها كانت الديار

المصرية قد اصبحت برمتها تقريباً مسيحية فلما تولى الامبراطور ساويرس عرش السلطنة الرومانية وجه اهتمامه في باديء الامر الى اخضاع الذين قاموا يزاحمونه من كل فج في انحاء الامبراطورية وكان قليل العناية الى ذلك الوقت بامر مصر وشؤونها مظهراً الميل والرضى نحو المسيحيين حتى انه كان يعين منهم من يلزم للقيام بخدمة ابنه . ثم لا ندري ما السبب الذي حمله بعد ذلك على مطاردة واضطهاد الشعب الوحيد الذي كان أميل شعوب مملكته الى الدعة والسكينة وانما الذي نعلمه انه ما لبث ان سحق شوكة الخوارج حتى اصدر امراً في سنة ٢٠٢ ب . م يحرم فيه على رعاياه الدخول في الديانة المسيحية او في الدين اليهودي في مستقبل الايام

وبعد اصدار هذا الامر قدم الامبراطور لزيارة بلاد مصر وتجول في انحائها حتى وصل مدينة طيبة جنوباً والظاهر ان ما شاهده هنا لك من استفحال سلطة الدين المسيحي وتمدن المسيحيين وكثرة عديدهم جعله يوجس خيفة منهم على السلطنة الرومانية نفسها فكان انه بعد وصوله مصر ازداد الاضطهاد شدة وصرامة ولم يكف الا بعد رجوعه بمدة . وكان في مصر حينئذ وال اسمه ليتوس بذل غاية جهده في تنفيذ اوامر مولاه حتى عم الاضطهاد في انحاء القطر المصري كله الا ان الضربة القاسية اصابت الاسكندرية بنوع خاص لانها كانت تعتبر منبع الديانة المسيحية . ومع ان البطريرك ديمتريوس ظل ساكن الجاش ثابتاً في

مركزه الا انه أمر بايصاد المدرسة اللاهوتية موقتاً واعقب ذلك ان تشتت شمل التلامذة ولازموا بيوتهم وكذلك اكليمنضس اركن الى الفرار من هذه البلاد لكي يخلص نفسه من غائلة الاضطهاد . وعاش ديمتريوس مدة بعد ذلك الا انه لم يتمكن من نشر مؤلفاته اثناء حياته فنشرت بعد نياحته . اما عن المدة التي عاشها بعد الاضطهاد وما تم له فيها وكيف مات فلا يعرف شيء عنها يستحق الذكر

والذي يتصفح قائمة اسماء الشهداء من المصريين يجدها طويلة جداً ولو انها لم تصل الينا كاملة مع انه في الاضطهادات الاخرى لا تجد اكثر من واحد اواثنين من اهم الشهداء . ومن الذين اشتهروا في هذا الاضطهاد فتاة اسمها بوتامينا التي تذكر كلما ذكرت غضاضة الشباب ونضارة الجمال وذاع صيتها لشدة ما قاسته من العذاب وذلك لكي يضطروها ان تنكر الديانة المسيحية وترتد عنها ولكنها بقيت متمسكة بايمانها الوطيد الى أن اودعت لهب النار مع امها مارسلا . ولم ينته عمل هذه الصبية عند موتها بل ان ما اظهرته من الشجاعة والثبات في احتمال الآلام والعذاب اثر تأثيراً عميقاً في الضابط المكلف بتنفيذ الحكم عليها فلم يلبث بعد موتها ان سلم نفسه بارادته للحكومة كمسيحي فازيلت رأسه من على جسمه وهذه احدى نتائج الايمان القويم الذي سيخلد لبوتامينا جليل الذكر وجميل الاثر . ومن اغرب ما نقله الراؤون بالاجماع ان النساء في مثل هذه الاضطهادات كن يعذبن اعذاباً اليماً

بخلاف الرجال الذين كانت تقطع رؤوسهم بدون تعذيب . وبين الرجال الذين ذاقوا كأس هذا الاضطهاد كان ليونيدس الذي شهرته ذاعت لانه كان اباً لاوريجانوس ولا يعرف عنه شيء بخلاف ذلك مع ان بعض المؤرخين قالوا انه كان اسقفاً فاذا صح ذلك فقد يحتمل انه كان من ضمن الاساقفة الذين عينهم ديمتريوس للاقاليم الا انه كان متزوجاً وله سبعة بنين اكبرهم اوريجانوس الذي كان عمره بين ١٥ و١٦ سنة عند ما ألقي القبض على ابيه وكان هذا قد اشتهر قبلاً في الاسكندرية بانه من انجب تلامذة مدرستها اللاهوتية واذكاهم كما انه تحلى ايضاً بصفات حسن السلوك ومتانة الايمان حتى اصبح يشار اليه بالبنان ولذا صار موضوع سرور والديه ومطمح انظار آله وذويه . ولما قبض على ابيه ليونيدس كان هو غائباً عن المنزل كما يظهر من قرائن الاحوال فلما آب وجد أمه واخوته الصغار في يأس وقنوط شديدين وقد يمكن للفطن ان يتصور حاسات هذه الام التعيسة التي لم تكد تنتهي من سرد هذا الخبر المحزن لاوريجانوس حتى اعلن للحال رغبته في تسليم نفسه للحكومة والالتحاق بابيه طمعاً في نوال مجد الاستشهاد ولكن دموع الشفقة والحنان التي كانت تنحدر من عينيها كالسيل المنهمر وتوسلاتها اليه ليعدل عن عزمه عاقاه برهة عما كان ينويه خصوصاً وان الشمس كانت قد مالت للمغيب ولما جن الظلام وثقل اوريجانوس بالنوم دخلت امه الاسيفة الى مخدعه خلسة وطوت كل ثيابه وابعدتها عنه فصار حينئذ كسجين

عندها لم تطلقه الا بعد ان وعدها وعداً ثابتاً بان لا يتركها الا اذا دعته الضرورة الشديدة لذلك وعليه اطاع الابن عوامل قلب والدته فارسل جواباً لابيه المسجون يرجوه فيه ان لا يتأثر لذكراهم ولا يفكر فيهم أو في مصير أمورهم بل يصرف همه في ما يؤول اليه أمره الشخصي. وثابت ان يوسيبوس جمع مجموعة تحتوي على نيف ومائة مكتوب سطرتها يد اوريجانوس في مثل هذه الظروف تشجيعاً للمضطهدين ولكن عبثت بها ايدي الضياع كغيرها من المؤلفات الثمينة التي ذهبت طعاماً للنار مع المكاتب التي حرقت في مصر وفلسطين

اما عن ليونيدس ابي اوريجانوس فآخر خبر عنه ان قد قطعت رأسه وضمت املاكه لجانب الحكومة . ولذا اصبح اوريجانوس صفر اليدين لا سنيد له وعلى عاتقه ام ديولها وصبية ستة يربيهم ولكن قيض الله له سيدة من ربات الثروة واليسار — لا يعرف اسمها — بذلت كل ما في وسعها لتدافع عن المسيحيين في الوقت الذي كانوا فيه يتراوحون بين عاملي الخوف والاضطراب في الاسكندرية . ويستدل من بقاء اسم هذه السيدة في طي الكتمان مع ما كانت عليه من الشهرة الواسعة انها لم تكن مسيحية ولكنها فتحت خزائنها وبيتها ليس لاعضاء الكنيسة الارثذوكسية فقط بل وللهراطقة ايضاً سواء في مصر وانطاكيه

وظلت نار الاضطهاد مندلعة بضع سنوات في أثناءها لم يصب اوريجانوس بسوء وسبب ذلك كونه اشتهر عنه انه تحت كنف تلك

السيدة المشار اليها وذلك انه بعد استشهاد ابيه لم يبق في المكان الذي اختباء فيه طويلا بل خرج منه كما يخرج الاسد من عرينه وذهب وقلبه مملوء بالشجاعة لزيارة المسيحيين الذين ضاقت بهم رحبات السجون وكان يخدم كلاً منهم بقدر جهده منشطاً اياهم ليظلوا على ايمانهم ثابتين ولوجرعهم هذا كأس المنون . فسر البطريرك ديمتريوس من عمل هذا الشاب الباسل وشجعه في الاستمرار على الدرس والمطالعة كما انه اوجد له ايضاً تلامذة في اوقات الخطر هذه لتدريسهم وكانت تصرف لهم مرتباتهم من الاموال المخصصة لدار الفقراء والمعوزين . ومع ان هؤلاء التلامذة لم يمكنهم الالتئام في المدرسة نفسها مبدئياً الا انه لم يمض طويل زمن حتى التف كل تلامذتها حول هذا الشاب الذي صار فيما بعد من نوابغ متخرجيها . وقد يصعب على الباحث المدقق معرفة الحالة التي كان عليها المصريون اثناء هذه الاضطهادات ولكن يظهر ان احوالهم لم تكن على وتيرة واحدة بل كانت تختلف باختلاف الظروف ففي بعض الاوقات كان المسيحيون يقشعرون ويتشنجون عند ما يلقى القبض فجأة على الرجال والنساء منهم ويؤخذون على غرة من الاماكن التي يقطنونها وكثيرون منهم يعذبون عذاباً اليماً ثم يتجرعون كاس الحمام في لحظة من الزمن وبعضهم يتركون في السجون حتى يصيبهم الضنى والنحول وكانوا احياناً يعاملون بمنتهى القسوة والصرامة كما يشاء المكلفون بحراستهم واحياناً يرفق بهم قليلاً فيسمح لهم بمقابلة اصدقائهم والتكلم معهم بما يخفف

السجن ويزيل الهم نوعاً بيد ان مجرى الاعمال الاعتيادية كالبيع والشراء والرياضة وغيرها بقيت على ما هي عليه في الاسكندرية وكان المسيحيون يخطرون ذهاباً وجيئة بين جيرانهم الوثنيين واليهود وهم غير عارفين متى يجيء دورهم او ما الذي يحل بالمسجونين منهم . ولم يكونوا يستطيعون التفوه بخبر الاهمساً في الآذان فكان الواحد منهم يقول لصاحبه «هل سمعت ان فلاناً قبض عليه وسجن وقيل انه لا يعود يفلت» وكقول بعضهم «لقد اصبنا بخسائر لا تقدر فما العمل» ولم يزل الامر كذلك حتى اختفى خبر الكثيرين واصبحت السجون مكتظة بهم حتى اذا لم يبق فيها مكان أعدم من فيها لايجاد محل لغيرهم . كل هذا والبطريرك الفلاح الشيخ ديمتريوس والشاب المهذب العالم اوريجانوس وكثيرون غيرهما من اولي الشجاعة والايمان ظلوا يؤدون ما يطلب منهم نحو الآخرين بكل ثبات وسكون جاش وكانوا ينتقلون من مكان الى آخر دون ان يجسر احد ويمد يده اليهم بسوء مع انهم كانوا محفوفين باخطار جمة . ولم يك طويلاً حتى القي القبض على خمسة من التلامذة الذين كانوا يتلقون الدروس اللاهوتية على اوريجانوس وبعد ان قضوا اياماً مرة ذاقوا فيها من الاهانة القاسية والسجن الاليم ماتنوء تحته اجسام الرجال تجرعوا غصص المنون لانهم رفضوا ان ينكروا ايمانهم بانفة وشهامة . وكان بين هؤلاء الشبان الخمسة بلوطارخوس وهو شقيق لتلميذ آخر اسمه هراكلاس الذي فر من الذين امسكوه بطريقة

وقدر له ان يعيش حتى يكون رئيساً للمدرسة اللاهوتية ثم بطريركاً للاسكندرية . وكان اوريجانوس مع بلوطارخوس عند ما قبضوا عليه لانه كان صديقه فلم يتركه برهة بل ظل مرافقاً له الى آخر لحظة من حياته فلما قدم بلوطارخوس للاعدام اندفع اوريجانوس كالسهم يخترق الجمع المزدحم وتقدم نحو صديقه بلوطارخوس ليقبله قبلة الوداع الاخيرة وهو بين السيف والنطع بينما كان الرعاع المتجمهرون هناك يضجون ويصخبون طالبين القبض عليه ايضاً ورجمه بالحجارة ولكنه تمكن من الفرار فلم يقفوا له على أثر . اما باقي هؤلاء التلامذة الخمسة فهم ساويرس وقد أحرق بالنار وهيراكليدس وهرون وقد قطعت رأساهما وآخر اسمه ساويرس ذاق العذاب الواناً قبل ان يريحه السيف منه

وبعد مضي سنتين على هذه الصفة اضطر البطريرك ديمتريوس ان يعين اوريجانوس نهائياً رئيساً للمدرسة اللاهوتية التي كانت لا تزال ملتئمة تحت رئاسته منذما بدأ الاضطهاد . فهذا التعيين جعل اوريجانوس مبغوضاً جداً من عامة الوثنيين الذين كانوا ينظرون اليه شذراً بعين ملؤها الكره والغيظ فاحس ديمتريوس بذلك وشعر بمقدار الخطر الذي يحيق باوريجانوس ولذا وضع حراسة قوية لحمايته من الاذى الذي كان ينتظر ان يصيبه من الاوباش الذين كانوا يقصدون القبض عليه في احد الشوارع لا ان تقبض عليه الحكومة بالطريقة القانونية . قال يوسيبيوس يصف الحالة التي كان فيها اوريجانوس « ان عوامل

الاضطهاد كانت تزداد ضده كل يوم وحنق القوم عليه اصبح شديداً حتى ان اهالي الاسكندرية عن بكرة ابيهم لم يستطيعوا احتماله ولا الصبر على انتقاله من منزل الى آخر وجولانه في كل ناحية مرشداً ومشجعاً الجم الغفير الذين هداهم الى الايمان الصحيح والدين القويم » . ومن الغريب ان هؤلاء السفلة الرعاع بداء فيهم شعور الاحترام لهذا الشاب الهمام الذي سحرهم بأعماله بينما كان يستخف بهم كلهم ليس ازدراء وسخرية بل بفطنة زائدة وطبع دمث وخلق سلس . قال ابيفانيوس انه في يوم ما امسك اولئك الرعاع اوريجانوس بينما كان سائراً في الطريق وحملوه بين ضجيج القوم الى هيكل سيرابيس الشاهق واضطروه اضطراراً بان يضع القلنسوة [١] على رأسه والبسوه الحلة البيضاء (التونية) التي يلبسها كاهن هيكل سيرابيس ومن ثم اخرجوه خارج الهيكل واصعدوه على قمة الطياره الكبرى التي في اعلى السلم وحينئذ امروه ان يوزع سعف النخل على عبدة الاوثان الذين كانوا مجتمعين كالنحل وهم يسخرون به ويصفقون له بالاكف من الأسف . فلم يتأخر اوريجانوس ان مد يده واخذ اغصان النخل وقدمها للشعب المتجمهر وصرخ بصوت كالرعد قائلا « هلموا خذوا هذه الاغصان . لكن ليس برسم الاوثان . بل باسم الرب يسوع المسيح خالق الانسان » — حقاً ان هذا المنظر لمن اعظم المناظر سروراً للعواطف الحية في مثل هاتيك الايام المظلمة

(١) هذه اشارة كان يلبسها الكهنة الوثنيون في تلك الايام وليست من خصائص المسيحيين

المضطربة — منظر ترى فيه ذلك الهيكل العظيم يناطح السحاب وحوله من الاسفل ردهة ملآنة باسافل القوم من كل جنس وطبقة وهم يضحكون ويصيحون بصوت كهزيم البرق كما تشاهد امثالهم في وقتنا الحاضر عند الاحتفال (بالمحمل) — ترى ايضاً طيارة السلم الشامخة مزدحمة بالوثنيين المترفضين يحملون الاغصان المقدسة وفي وسطهم صورة ذلك الشاب الباسل كانها القمر في ليلة حالكة وهناك ضوء الشمس يسطع على حلته الناصعة البياض فينعكس على تلك الاعين الشريرة فيبهرها كما كان ينعكس فضله على افئدتهم فيسحرها واوريجانوس واقف كالاسد يبتسم عن ثغر نقي وبيده سعف النخل يشير به على هذا الشعب لينبههم الى الدعوة التي يدعوهم اليها وهي عبادة المسيح بدل سيرابيس . وكان صوته الجهوري يرن في الآذان وسكون جاشه وثباته حيرا الاذهان

اما اوريجانوس هذا فكان علامة دهره في حقائق الديانة المسيحية عند ما تقرر تعيينه رئيساً للمدرسة اللاهوتية كما انه كان متضلعاً في العلوم والمعارف التي شب على درسها واستيعابها . والذي اوصله الى هذه الدرجة من المعرفة والعلم هو انه قبل بدائة هذا الاضطهاد درس كثيراً هو وجماعة من الشبان المسيحيين في المدرسة اللاهوتية درساً مدققاً ثم في المدرسة الوثنية التي كان يديرها امونيوس ساكوس من اشهر علماء الاسكندرية وكبار اساتذتها . قال يوسيبوس في هذا الصدد « ولما رأى اوريجانوس ان التلامذة الذين عهد اليه البطريرك

ديمتريوس امر تعليمهم قد اخذوا يزدادون ويتكاثرون ارتأى ان استمراره في درس العلوم الطبيعية والدروس الادبية لا يتلائم مع تدريس العلوم الدينية للطلبة الذين أسند اليه تعليمهم ولذا لم يلبث ان ترك مدرسة الفلسفة الوثنية السابقة الذكر واعتبرها عديمة الجدوي وان دروسها سحابة تحجب الانوار الساطعة التي يأخذها من علم اللاهوت، ولكنه لم يتبع خطة الافراط والتفريط مرة واحدة بل بقي يطالع ما سطره الاقدمون من العلوم المفيدة بجد متواصل وفي هذه المدة اخذ يبيع كل كتبه المدرسية القديمة وجميع النسخ التي كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية وعليه اتفق مع رجل باعه هذه الكتب الوثنية برمتها على ان يدفع له اربع بارات[1] يومياً يقتات بها في حياته . فهذا الفكر كان مبداء لخطة سار عليها اوريجانوس في ما بعد قاعدتها الغيرة الروحية التي تسوق الى انكار الذات وتكريس النفس وهي خطة اتبعها اكثر المصريين المتدينين في هاتيك الايام وتطرفوا فيها حتى حرموا كل بحث وتنقيب في الامور العالمية . ولما كان اوريجانوس قد اشتهر بالحذق والتواضع ورقة الجانب فلم يصب بتلك المصيبة التي وقع فيها اكثر الاتقياء من المصريين وهي الالتجاء الى الصحارى والقفار والابتعاد عن العالم بحجة التبتل والزهد أو هو موت الاحياء بل ان ذكاءه ومواهبه السامية جعلته مفيداً اكثر باختلاطه مع الآخرين الذين هم في حاجة اليه اكثر من

(١) كانت البارة عبارة عن قطعة نحاسية تساوي مليمين تقريبا

احتياج الدير له الا انه لم يبق كامل القوى بمعنى انه اسلم نفسه لعوامل الضعف وقهر الجسد حتى شعر بخطائه وندم على ما فعله من اذلال جسمه وود لو امكنه استرجاع قواه ولكن لم يفد الندم ولم ينفع الاسف فظل ضعيفاً منهوكاً . والذي يراجع تاريخه يعجب جداً من الطريقة التي اتبعها كما انه يعرف السبب الذي اضعفه واضناه في انه اجهد نفسه ليتمم كل فرائض العهد الجديد واوامره حرفياً حتى امتنع من اقتناء ثوبين معاً في وقت واحد وكان يسير حافياً شتاء وصيفاً وكان يأكل الخبز ويشرب الماء فقط ويأدم ببقول خضراء غير مطبوخة اسوة بافقر فلاح مصري وكف عن درس الدروس الادبية والعلمية التي كانت اعظم ما تسر به نفسه ولم يزد حرفاً واحداً على الاصل في ترجمته لسفر من الاسفار المقدسة — كل هذا ولم يكن اوريجانوس الا شاباً في عنفوان الصبا وريعان العمر تقاومه الشهوة الطبيعية فكان يتغلب عليها بعد عناء يعرفه من يقاوم ارادته البشرية حتى انه لما كانت تضطره واجباته في ايام الاضطهاد الى الدخول وسط العائلات وارشادها لطريق السداد ومناقشة الجنسين النشيط واللطيف ساعات متوالية كان يتألم ويرتعب خوفاً من الوقوع في تجربة وقصد ان يصد نفسه بعزم شديد عن اي عمل يوجب الخجل والارتياب متبعاً في ذلك نص ما ورد في الاصحاح التاسع عشر من انجيل متى

هذا ولو ذكر القارىء الكريم حالة البطريرك ديمتريوس عند ما

سمي بطريركاً وكيف انه جاء ليصلي لله لاجل زوجته ويقدم لكنيسته تقدمة هي محصول كرمه وهو حينئذ رجل فلاح أمي وقداختير لهـذا المنصب الخطير — لو ذكر ذلك وعرف مقدار حبه لاوريجانوس ظهيره ونصيره لادرك ما استحوذ على افكار هذا البطريرك من الحزن والقلق عند ما رأى هذا الشاب الغض قد سقط في وهدة الضعف والنحول لسبب زهده وتقشفه خصوصاً لاغراقه وتعمقه في مبدأ تكريس نفسه وانكار ذاته ولانه لم يتبعه كمبداء شخصي اختطه لنفسه بل قصد منه ان ينزع من فكر البطريرك ترشيحه لرتبة الكهنوتية كما ترشحا كليمنضس وبنتينوس من قبله . ولم يكن لحد هذا الزمن قد سن قانون رسمي يعمل به في مسألة الرتب الكهنوتية الا ان رأي الشعب العام كان له القول الفصل في هذا الامر لقوته ونفوذه ولذا كان كل من وقع عليه الاختيار سيم للحال لاي رتبة كيفما كانت درجته . زد على ذلك ان عمل اوريجانوس هذا خالف كل المخالفة قانون المملكة المدني التي تعتبره كقاتل نفس كما انه تقرر في المجمع النيقاوي ان كل كاهن يعمل بنفسه هذا العمل اي الزهد الزائد والتنسك المفرط لحد الاضرار بنفسه « يقطع من الكهنوت » الا ان غلطة اوريجانوس هذه تغفر له لانه اعترف بها اعتراف المقر بذنبه الشاعر بثقل خطيئته كما ورد ذلك في هامش رساله التي سبقت الاشارة اليها

وقداستمر الاضطهاد السالف ذكره سبع سنوات لم يصب مسيحيو

رومية ضرر يذكر خصوصاً الذين كانوا منهم في خدمة البلاط الملوكي ولعل سبب ذلك عدم وجود عصبية قوية لهم توجد التأثير المطلوب مع كثرة عديدهم واهمية مراكزهم ولذا لم يخش الامبراطور شرهم كما كان يخشى شر المصريين الذين كانوا في درجة عظيمة من الثروة والعلم عارفين تمام المعرفة بما سلب منهم من الشهرة السياسية والادبية ولا يعوزهم للايقاع بمملكته سوى رباط متين يربطهم معاً كأن يكون دين واحد كالدين المسيحي ولذا كان القصد محو آثاره في قرطجنة وانطاكية وفي باقي الاقاليم المصرية اما رومية عاصمة المملكة التي كانت تحت حمى الجيش والحكومة فلم يكونوا يهتمون بامره كثيراً. وقد يغلب على الظن ان اوريجانوس زار كنيسة رومية ربيبة الكنيسة المصرية وذلك اثناء مدة هذا الاضطهاد. وبعد عودته او ربما قبل سفره كان قد اشرك معه هراكلاس زميله في التلمذة في تدبير مهام المدرسة اللاهوتية بينما كان هذا قد سيم كاهناً . وفي هذا الوقت ايضاً انكب اوريجانوس على تعلم اللغة العبرانية وذلك ليؤهل نفسه الى ترجمة الكتب المقدسة الى ست لغات وهو عمل يعد من اهم الاعمال الخطيرة التي عملها اوريجانوس في حياته ولو ان هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة . وكان حجم هذه التوراة المترجمة يساوي ستة اضعاف حجم التوراة الاصلية مرتبة في جداول متوازية في الاول منها النص العبراني

الاصلي وفي الثاني النص اليوناني وفي الثالث ترجمة اكويلا [١] وفي الرابع ترجمة سيماخوس وهو مسيحي عاش في مدة مرقس اوريليوس او ساويوس كما يظن البعض وكان مسكنه فلسطين حيثما يحتمل انه انم هذه الترجمة المنسوبة اليه وقد يمكن ان اوريجانوس كان عارفاً بترجمة سيماخوس قبل ان يعثر على النسخة التي قال بلاديوس ان اوريجانوس كتب عليها بخط يده هذه العبارة « قد وجدت هذه النسخة في بيت يوليانا العذراء في قيصرية بينما كنت مختبئاً هناك وقد قالت لي يوليانا انها اخذتها من يد سيماخوس مترجم اليهود » . اما الجدول الخامس فكان يحتوي على الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية والسادس على ترجمة تيودوشن الافسي كتبها نحو سنة ١٨٠ ب.م وقد قال عنه ايرينوس انه كان وثنياً واعتنق الديانة المسيحية ولم يترجم سوى العهد القديم فقط ويحتمل انه اهمل مراثي ارميا الا ان هذه الترجمة قورنت مع نسخ عديدة متنوعة مكتوبة بخط اليد قال عنها يوسيبيوس ان اوريجانوس بحث عنها ونقب في مخابيء قديمة حتى وجدها مطمورة فاخرجها بعد ان مرت عليها ايام كثيرة . ولما لم يهتد اوريجانوس الى معرفة اسم المؤلف لهذه النسخ نوه في حاشية منها بانه وجدها في نيكوبوليس بالقرب من اكتيوم كما انه وجد هذه الترجمة الاخيرة في مكان مثل هذا . اما ترجمة المزامير في هذه التوراة فكانت تحتوي على الاربعة جداول الاولى ثم اضيف اليها ثلاثة ايضاً

---

(١) هو من بنطس كان يشتغل في اعمال متنوعة في ايام ادريانوس وقد اعتنق الديانة اليهودية او الديانة المسيحية على قول البعض

فاصبحت المزامير مترجمة الى سبع لغات واحد هذة الجداول الثلاثة قيل انه اكتشف باريحا في مرجل وذلك في مدة كارا كلا ابن ساويرس

فهذه الترجمة الشهيرة التي كتبها اوريجانوس قد عبثت بها ايدي الضياع كما لعبت في غيرها من المؤلفات الثمينة ولم يبق لها اثر ولكن الجدول المأخوذ من الترجمة السبعينية كان قد نسخ صورة منه من الاصل الذي كان محفوظاً في قيصرية في ايام يوسيبيوس وبامفيليوس وعرضت هذه النسخة ليقراءها من شاء . وفي القرن السابع قام بولس اسقف بلاّ وترجم نسخة الترجمة السبعينية الى اللغة السريانية وظلت نسخة من هذه الترجمة محفوظة في دير في وادي النطرون اكثر من الف سنة وهي الآن موجودة في المتحف البريطاني ولكنها غير كاملة

هنا اخذ اوريجانوس يشعر بخطائه الذى ارتكبه في قمع جسده وعقله وهو شعور ازداد معه عندما اخذ على عاتقه اتمام العمل المار ذكره الذي يحتاج لعقل سليم في جسم غير سقيم ولذا عول على اصلاح غلطته هذه بقدر استطاعته ولكن لم تعد تجدي الوسائط نفعاً ولم يكن في طوقه استرجاع نضارة شبابه التي اضاعها بنزقه وتهوره ولكنه افرغ قواه في اعادة غضاضة عقله ان لم يقدر على جسمه وذلك بمعاودته درس المؤلفات العلمية والادبية . فلما عمل هذا اصبح عرضة للوم وتقريع الجهلاء وسخيفي العقول ولذا اضطر ان يبرىء نفسه ويناضل عن مبادئه وهاك شذرة من رسالة له في هذا المعنى قال فيها : —

«لما كنت قد كرست نفسي لخدمة كلمة الخلاص وكان قد ذاع صيتي في الآفاق نظراً لبراعتي واقتداري وكثيراً ما كنت معضداً للهراطقة واهل البدع الذين يجيئون لزيارتي والبحث معي وكنت مرموقاً بجماعة من المغرمين بالعلوم اليونانية خصوصاً المتعمقين في الفلسفة ـ قصدت ان الخص افكار الهراطقة وامتحن تآليف الفلاسفة الذين أحياناً ينطقون بحقائق مهمة وقد اتبعت في هذا خطوات بنتينوس الذي افاد الكثيرين قبل ان اوجد انا ولم اكن معارفه قاصرة على هذا الحد كما انني تفوت آثار هراكلاس الذي كان عضواً في مجمع الاسكندرية وقد علمت انه واظب مدة خمس سنوات يحضر عند معلم الفلسفة قبل ان ابتدئ انا في استيعاب هذه العلوم»

وقد كتب غريغوري ثومترغس وهو من اشهر تلامذة اوريجانوس كتاباً على نسق ما كتبه استاذه وهذا نصه :

«لم يحرم علينا البحث في اي موضوع ولا استعصى علينا علم ولا خفي عنا أمر وقد أبيح لنا الوقوف على سر كل تعليم سواء كان للمتوحشين او اليونان ومعرفة غوامض الامور روحية وجسدية الهية او بشرية . وقد استقصينا بحرية كل انواع العلوم ومتعنا انفسنا بكل المسرات الجائزة التي تميل لها النفس الشريفة»

ولم يكتف اوريجانوس بترجمة التوراة الى ست لغات بل في الوقت نفسه وضع ايضاً شرحاً طويلاً لاسفار التوراة ضاع اكثره من زمن مديد مع انه كان متداولاً في ايام يوسيبيوس . فهذا هو اوريجانوس الذي يعد بين الطبقة العليا من علماء المسيحيين بالاسكندرية في الاعصر الاولى حتى لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الافاق فكان يأتي اليه الناس افواجاً من كل فج عميق وترسل الامم في طلبه ليرشدها الى طريق الخلاص خصوصاً لما عرف عنه من الفرح في وقت الشدائد والابتهاج

بالعذاب والآلام وكان من أهم اعماله ثلاث ارساليات أنفذت الى بلاد العرب كل على حدتها وقد ذكرها يوسيبيوس في تاريخه . ولا بد ان يتذكر القارىء ان بلاد العرب كانت في ذلك العهد اشبه ببلاد الهند حينئذ التي مر بك وصفها في انها كانت عبارة عن بلاد واسعة الارجاء لا يعرف عنها شيء . اما مدينة البصرة التي كانت بمثابة واحة في صحراء سورية وهي تسمى الآن حوران على مسيرة اربعة ايام شمالي دمشق

وأول ارسالية من الارساليات الثلاث التي انفذها اوريجانوس كانت بين سنة ٢٠٣ — ٢١٥ ب . م وسبب ارسالها هو ان حاكم بلاد العرب أرسل جوابات الى والي مصر وبطريرك الاسكندرية يطلب فيها ارسال الرجل المسمى اوريجانوس بدون تأخير وذلك لكي يشرح له تعاليم الديانة المسيحية ويرشده الى طريق الخلاص . وقد يبعد على الظن كثيراً ان حاكماً يرسل لحاكم آخر ارسالية مثل هذه لنشر الدين المسيحي بينما كان الاضطهاد مستمراً والغرض منه ابادة هذا الدين واضمحلاله . وكما ان الهدو لم يدم طويلاً للمسيحيين كذلك الاضطهاد ايضاً كف سنة ٢١١ ب . م عند موت ساويرس فبدأ مسيحيو مصر يذوقون لذة الراحة خصوصاً عند جلوس ابنه كاراكلا الذي كان ميالاً للمسيحيين لما شب عليه من العلم والتهذيب وهذا الذي مكن اوريجانوس من انفاذ أول ارسالية لبلاد العرب بين سنتي ٢١٢ و٢١٣ ب . م ولما سار اوريجانوس قاصداً بلاد العرب وكل ادارة المدرسة اللاهوتية لعهدة

هرا كلاس ولم تطل غيبته كثيراً عن مصر وذلك لانه عين شخصاً اسمه بيرلوس اسقفاً للبصرة وكان البطريرك ديمتريوس قد سامه رئيساً لهذه الارسالية . اما عدم بقاء اوريجانوس زمناً طويلا في بلاد العرب فهو لضيق وقته وكثرة اشغاله فضلاً عن ان البطريرك ديمتريوس لم يسند اليه مركز الرئاسة على هذه الارسالية وهي وظيفة لا تعطى الا للكهنة واريجانوس لم يكن منهم مع ما اشتهر به من العلم والفضل

اما الامبراطور كاراكلا فكان رجلا مستشرقاً وهو وصف ينطبق عليه تماماً ذلك لان اباه كان خليطاً من اوروبي وافريقية وامه كانت امرأة سورية الجنس وكأن الخلط والتباين في اصله اوجدا خلطاً وتبايناً في صفاته وطباعه التي كانت تختلف من مكر وخداع الى لطف وملاينة الى همجية وقسوة حتى ان الصفة الاخيرة هذه تغلبت عليه مرة فقتل اخاه على مرآى من امه وذلك بعد ان رقيا عرش المملكة بسنة واحدة وهذا ليس بغريب في الطبع البشري ان يتغلب شيطان الشر على ملاك الخير ما دام الانسان مستسلماً لعوامل ارادته الفاسدة . وقد خطر على بال كاراكلا ان يعمل على زيادة دخله فغير النظام الذي كان يسير عليه مسيحيو مصر فيما يختص بتأدية الجزية وابدله بنظام آخر ضرب فيه ضريبة على نزلاء الرومانيين الذين طال زمن استيطانهم لمصر ولكنه أعفى منها المهاجرين والارقاء وضاعفها على المصريين باجمعهم دون ان يستثنى منهم احداً وعليه ضجر هؤلاء من هذا الظلم الجديد وشاركهم

في تذمرهم جماعة القرطجنيين والسوريين فعقدوا الخناصر على تغيير هذه الحال والمطالبة بالعدل واتفقوا على رأي يسيرون عليه . وكان بين القوانين المعمول بها حينئذ قانون يقضي على المسيحي الذي يعرف عنه انه قاوم الحكومة في امر ما بالصلب او بطرحه للوحوش الضارية فتمزقه اربًا هذا ان لم يكن عبداً ذليلاً فيكتفي بعبوديته وذله . وكان النزيل الروماني عرضة لمثل هذه العذابات المفروضة على المسيحي المصري اذا قاوم الحكومة الا ان نهايتهما لم تكن واحدة فان الاول يقتصر قصاصه على العذاب فقط ثم يعفى عنه اما الثاني فبعد هذا العذاب يذوق كاس الحمام بحد الحسام

وقد مر بك ان اهالي الاسكندرية سواء كانوا مسيحيين او وثنيين كانوا يزدرون بحكامهم ولا يهتمون بالامبراطرة مطلقاً حتى كثيراً ما لقبوهم بالقاب الهزء والسخرية واطلقوا على القياصرة انفسهم اسماء مستعارة تضحك الثكلى ونال كاراكلا حظاً وفيرا من هذا السخر حتى تضايق جداً وود لو قدر ان يقابلهم بالاحتقار وعدم الاهتمام الا ان هذا الازدراء اثر كثيراً في احساساته فبات يرقب فرصة فيها لينتقم من الذين حقروه واهانوه . وحدث في سنة ٢١٥ ب . م بينما كان كاراكلا في سورية اعلن رغبته في زيارة الاسكندرية ولم يكد يبلغ هذا الخبر مسامع سكانها حتى قاموا يستعدون لمقابلته باحتفال عظيم وذلك اقراراً بفضله عليهم بمنع الاضطهاد عنهم وكأنهم تناسوا ايضاً قوارص الكلام

الذي رموه به عند قتله اخيه وارتكابه لجرائم اخرى ثم قصدوا من الجهة الاخرى اقامة احتفالات مضى عليهم وقت طويل وهم محرومون منها وعليه تقاطرت الجموع الى الاسكندرية حتى ضاقت بهم على سعتها وذلك لكي يشهدوا ذلك العيد العظيم ويحيوا الامبراطور عند مجيئه بنداء التكريم

وكان كراكلا يستصحب معه ثلتين من العساكر احداهما من مكدونية والثانية من اسبرطه لحرس له فقصد عند زيارته مصر ان يشرف الاسكندرية وهي اشهر مدينة في هذه الديار بان يتخذ له منها كتيبة من الجنود ضمن حرسه الخصوصي فسر الاسكندريون بهذه المنة سروراً كبيراً وقابلوا هذا الفكر بمزيد الفرح والابتهاج . فلما جاء اليوم المعين لاتمام هذا الغرض وفد الوف من الشبان واجتمعوا في ردهة واسعة خارج المدينة واصطفوا فيها صفوفاً حتى يسهل على الامبراطور افتقادهم وانتخاب من يليق منهم قبل ان ينتظموا في سلك الجندية ويحملوا الاسلحة . وكان لذلك يوم مشهوداً ازدحم فيه اقارب اولئك الفتيان واصحابهم فرحين متهللين وهم وقوف في ضوء شمس سطع نورها تحت قبة زرقاء رق اديمها وغرضهم من ذلك مشاهدة هذا الاستعراض وتهنئة من يحوز الفخر والشرف بانضمامه للحرس الامبراطوري . وكان الجيش المنظم الذي جاء مع الامبراطور مصطفاً على شكل دائرة حول ساحة الاستعراض وكان الامبراطور مع حرسه واركان حربه يتفقد

صفوف المتطوعين والشعب يقابله باصوات الاستحسان وعبارات الدعاء والاكرام . ولم يكن كلمح البصر حتى خرج الامبراطور خارج الصفوف وأشار اشارة اتفق عليها مع اولئك العساكر الادنياء الخالين من الرحمة والحنان الذين كانوا عالمين قبلاً بان مولاهم سيعهد اليهم اليوم اتمام مذبحة هائلة تشيب لها النواصي وعليه جردو احرابهم وسيوفهم وانقضوا على هذا الجمع الاعزل من كل سلاح كما ينقض الباشق على عصفور صغير وأعملوا فيهم مرهفات الصوارم وزرق الانياب حتى انقلبت اصوات الفرح والحان الموسيقى الى صراخ الحنق والقنوط وعويل الحزن والموت وذبح اولئك الشبان ذبحاً وجزت رؤوس اقاربهم وأصحابهم جزاً وسال الدم يجري كالغدران والذين لم ينتابهم السيف طرحوا في لجج البحر وصاروا طعاماً للاسماك . قيل ان ماء النيل الذي يصب في البحر المتوسط امتزج بدماء المذبوحين امتزاجاً حتى صار احمر كالبقم ولم ينج من كل ذلك الجمع الهائل سوى رجل او رجلين فرا هاربين ولجآ الى المدينة والقيا الرعب والحزن في قلوب أهلها بهذه الاخبار التي ينفطر منها الفؤاد وبات القوم في خوف وجزع مما ينتظر ان يحل بهم فيما بعد وظن الكثيرون ان هذا العمل كان كمقدمة فقط لاضطهاد يهول لا يبقي ولا يذر وظلوا يترقبون هجوم الجيوش على الاسكندرية فتدمرها وبنوا ظنهم هذا على امر اصدره الامبراطور بارفاض الجمعيات العلمية التي كان يعتبرها كسد يحول دون تنفيذ انتقامه . ولما رسخ هذا الفكر في اذهان

الناس اسرعوا بالفرار من المدينة لا يلؤون على شيء . وقد ذكر يوسيبيوس هذه الحادثة بقوله انها حرب عوان انتشبت في المدينة ولكنه لم يذكر اسم كاراكلا ولا علاقته بهذه الحرب وقد أشار ايضاً الى هروب الناس من المدينة وذكر ان اوريجانوس كان ضمن الفارين ذلك لانه ادرك ان بقاءه في مصر خطر على حياته فجاء الى فلسطين وأقام في قيصرية . اما البطريرك ديمتريوس وهرا كلاس فظلا في الاسكندرية وبواسطتهما ظهر للمسيحيين ان غضب الامبراطور لم يكن موجهاً لهم خاصة بل لجميع السكان على اختلاف اديانهم وان انتقامه لم ينته عند هذا الحد بعد بل بداء ينتقم من الاسكندرية انتقاماً ادبياً بان أصدر أوامره بابطال الالعاب العمومية وعدم صرف مرتبات من الحنطة للوطنيين وشاد معاقل وحصوناً بين المدينة الاصلية وبين الحي الذي فيه قصر الامبراطرة المدعو بروخيوم وذلك لكي يكون في مأمن من الثورات والعصيان . ولم يكتف بذلك بل سعى في احياء رميم الديانة المصرية القديمة وبنى هيكلاً للاله ايزيس في رومية . وقد قصر مدة اقامته في الاسكندرية بعد ذلك فلم يمكث بها طويلاً بل قفل راجعاً الى رومية حيث هجم عليه مكرينوس واورده حتفه بعد هذه الحادثة المريعة بسنتين « ولا ظالم الا وسيبلى باظلم »

اما اوريجانوس الذي عرفت انه هرب لفلسطين وأقام بقيصرية فقد قوبل فيها بمزيد الحفاوة والاكرام كما يليق بفاضل مثله وعلت

منزلته في اعين علماء هاتيك البلاد حتى عهدوا اليه القاء دروس ادبية علمية في بحر الاسبوع ثم طلب منه اسكندر اسقف اورشليم — وهو رفيق اوريجانوس في التلمذة — وثيوسيستوس اسقف قيصرية ان يعظ جهاراً في كنائسهما . فلما بلغ هذا الخبر مسامع ديمتريوس بطريرك الاسكندرية كتب يعترض على الاسقفين المذكورين سماحهما لرجل عالماني الوعظ في الكنائس جهاراً وهو عمل لا يجوز الا للكهنة فقط ويحرم على من عداهم حتى اوريجانوس نفسه . فلم يسكت الاسقفان على هذا الاعتراض بل ردا عليه ولكن بلهجة معتدله وكلام يدل على مقدار احترامهما لهذا البطريرك واستشهدا على عملهما هذا بما اجراه السلف الصالح الا ان البطريرك ديمتريوس الشديد العارضة لم يقتنع بهذا الرد بل عاد فانفذ شمامسة من الكنيسة المصرية يحملون رسائل لاوريجانوس نفسه يحرضه فيها على الكف عن هذه الاعمال التي تنافي قانون الكنيسة وطلب اليه ان يعود الى الاسكندرية ليمارس عمله فيها لان المياه عادت الي مجاريها واصبحت الاحوال في هدو وسكينة. فبناء على ما جبل عليه اوريجانوس من الطاعة والتواضع وهي اعظم حلية تحلى بها رضخ لاشارة رئيسه وعاد لاسكندرية على جناح السرعة

اما مكرينوس الذي اغتال حياة كاراكلا فلم يملك سوى شهرين فقط سمى نفسه فيهما والي مصر وعين صديقاً له اسمه باسيليانوس مع آخر اسمه مرقس سكندوس لينوباعنه في حكم مصر. ومرقس سكندوس

هذا هو اول عضو في مجلس النواب ناب عن والٍ في مصر

ولم يكن لكاراكلا عقب يخلفه على سرير المملكة الا ان خالته يوليامويسا وهي فينيقية الاصل كان لها بنتان ولدت كل منهما ولداً. فهؤلاء النساء الثلاث وهن يوليامويسا و يولياسويميا ويولياماميا كن موجودات في البلاط الروماني اثناء وجود كاراكلا في عالم الوجود ولكن بعد موته اضطررن ان يلجأن الي سوريا حيث دبرن مكيدة محبوكة الاطراف قصدن بها استرداد السلطة التي سلبها مكرينوس قاتل كاراكلا من ايديهن وعليه اشاعت يولياسويميا ان كاراكلا هو الآب الشرعي لابنها الذي كان له ستة اسماء معاً ولكنه كان كغيره من سالفيه يعرف باسم واحد هو لقب يلقب به وهو هليوجابلوس نسبة الى ديانته السورية التي يشتق هذا اللقب منها. وقد ساعد على اتمام هذه الحيلة ان الجيوش الرومانية التي كانت معسكرة في سوريا بايعت هذا الصبي الامبراطورية واقبلوه مع امه وجدته بكل ترحاب واكرام وانزلوهم في معسكرهم منزلاً رحيباً فبدأت حينئذ حرب سجال بين انصار مكرينوس وهليوجابلوس كان الفوز فيها لهذا الذي استولى على الملك واصبحت السلطة في يده . اما الحالة في الاسكندرية فكانت على غير ما يرام اذ ظل السلام مفقوداً منها بما كان يثيره اعداء المسيحيين من الخصام والعراك حتى في وسط شوارع المدينة الى ان قتل مكرينوس سكندوس كما مر وفر والي مصر الذي كان نائباً عنه تاركاً الدار تنعي من بناها

وحكم هليوجابلوس اربع سنوات كانت كلها شؤماً ونحساً على المملكة الرومانية خاصة اما مصر فقد تمتعت بشيء من السلم والامن خصوصاً في الثلاث سنوات الاخيرة من حكمه واستفاد اوريجانوس كثيراً من هذه السكينة اذ اخذ يمارس التدريس والتأليف بعزيمة ماضية وجد متواصل وكذلك البطريرك ديمتريوس الذي لم يبرح مركزه يوماً واحداً حتى في اشد ايام الاضطراب بداء يزاول اعمال الكنيسة بهمة عليا ونشاط غريب . واستفاد الوثنيون ايضاً من هذا السلام اذ اخذت مدرستهم الجديد التي اسسها امونيوس سكاس (١) لتدريس الفلسفة اليونانية تنمو وتترعرع . وفي هذه المدة ايضاً تعرف اوريجانوس برجل من ارباب الثروة والنفوذ اسمه امبروز الاسكندري وهو ليس اسكندرياً حقيقة — والا لكنا عرفنا شيئاً عنه قبل أوبة اوريجانوس من فلسطين بناء على شهرته الواسعة — بل يحتمل انه كان احد الاصدقاء الذين اصطفاهم اوريجانوس في فلسطين . فهذه الصداقة التي كانت بين اوريجانوس وامبروز وظلت متينة العرى لحد موته اثرت تأثيراً يذكر بالشكر في حياة اوريجانوس ذلك ان امبروز كان تابعاً لشيعة من اهل البدع والهرطقة فاقنعه اوريجانوس بترك الافكار السخيفة واكتتبه ضمن اعضاء الكنيسة المستقيمة الرأي وقد افاده امبروز ايضاً

(١) قد اتفق جميع المؤرخين على ان امونيوس سكاس هذا هو الذي اسس مدرسة الاسكندرية الوثنية لتعليم الفلسفة الافلاطونية وان بلوطينوس ولونجينوس الوثنيين واوريجانوس وهراكلاس المسيحيين وكثيرين غيرهم كانوا من تلامذته الا ان الآراء اختلفت فيما اذا كان امونيوس سكاس قد اعتنق الديانة المسيحية ام لا

بان حثه على تأليف اكثر الكتب التي الفها ونسخها على مصاريفه الخصوصية وذلك بان اوجد له فرقة من الناسخين الذين يكتبون الخط المختذل ومن الذين ينسخون الكتب بالطريقة المعروفة وكان بين جماعة الكاتبين هذه عدد من الفتيات اتخذن هذه الصناعة مهنة لهن للافادة والاستفادة

وحدث في سنة ٢٢٢ ب٠م ان الجيش الروماني ضجر من معاملة هليوجابلوس الشاب معاملة تدل على القسوة والوحشية ضد هذا الجيش الذي مال بكليته الى اسكندر ساويرس ابن يوليامامميا خالة هليوجابلوس وكانت امه قد ذهبت به الى رومية مع اختها عند ما ارتقى هليوجابلوس كرسي المملكة وظلا في مناظرة ومساجلة الى ان افضى الامر اخيراً بوقوع حرب عوان بين الاختين وابنيهما كل منهم يقود جيشاً من انصاره بنفسه وانفض الخصام بانتصار ماميا على اختها سوميا فقتلتها مع ابنها واستحوذت هي على المملكة مع ابنها

ملك اسكندر ساويرس سنة ٢٢٢ وكان عمره ١٧ سنة حين ملك وهو يعد من اعظم امبراطرة الرومان واحسنهم صفات وجلس على العرش الامبراطوري احدى عشرة سنة هي عبارة عن جهاد مستمر لاصلاح الخلل والفساد اللذين استوليا على المملكة كما انه بذل ما في وسعه ليوقف تقدم الفرس وتوغلهم في المملكة الرومانية وهم اعداء الداء لها كانوا قد بلغوا في ذلك الحين مبلغاً عظيماً من القوة والمنعة بواسطة ارتباطهم واتحادهم معاً . ومما يسطر لهذا الامبراطور بالثناء

هو دفاعه عن المسيحيين وشهادته عنهم بانهم اكثر الناس كفاءة لحكم البلاد وادارة امور العباد على محور الاستقامة والامانة . ومع انه ظل متمسكاً بديانته السورية الوثنية التي شب عليها تمسكاً ظاهرياً الا انه كان يعتبر المسيح من اعاظم العلماء الكبار الذين نشأوا في العالم وافادوا الناس بتعاليمهم وآدابهم واقام له تمثالاً في معبده الخصوصي ووضعه بين تماثيل العلماء الاخرين مثل ابراهام واورفيوس وسكندر الكبير وابولونيوس الذي من تيانا . وقد عرفنا في ما مر ان كل امبراطور كان له اسم يختلف عن غيره او لقب خاص يطلق عليه في البلاد كلها وذلك لكثرة التشابه في اسماء الامبراطرة وهو امر كان كثير الوقوع حينئذ وهكذا لقب اسكندر ساويرس في أخريات ايامه بلقب مضطهد المسيحيين وهي ريبة ينفيها عنه ما ورد في اقوال المؤرخين الذين عاصروه والذين جاؤا بعده باكثر من جيلين . ولقد ازهر العلم في ايامه وأخذ فلاسفة الاسكندرية من مسيحيين ووثنيين يمارسون اعمالهم العلمية ويدأبون في التأليف والتصنيف فوضع بلوطينوس من ليكوبوليس (اسيوط) مبادىء الفلسفة الافلاطونية على طريقة تويمة وعمم نشرها وكذلك هروديان المؤرخ اتم تاريخه في هاتيك الايام

وقد يغلب على الظن ان اوريجانوس بارح الاسكندرية مرتين أثناء حكم اسكندر هذا احداهما أنفذ فيها لمقابلة ماميا والدة هذا الامبراطور والثانية أرسل الى بلاد اليونان في اعمال تختص بالكنيسة المصرية حيث

اتى أمراً يستوجب الانتقاد اذ كانت نهايته قطع العلاقات بينه وبين صديقه الحميم ورئيسه الموقر البطريرك ديمتريوس وهو امر يذكر بالاسف الشديد خصوصاً لالتصاق اللوم بالاثنين معاً ووقوعهما في الخطاء سواء ولو ان استفحال الخرق بينهما واتساع مجال اللدد والخصام يعزى الى تحزب اصدقاء الطرفين وتحريضهم لهما جرياً وراء الغايات والاغراض

ومن الواضح البين ان ديمتريوس مع اعجابه بغيرة اوريجانوس وحماسه اللذين اوصلاه الى غلطة فادحة هي قمع جسده واضعافه وهو في عنفوان شبابه — اعتبر غيرة اوريجانوس هذه مانعة اياه من ترشيحه للرتب الكهنوتية مع انه كان اهلاً لها من كل الوجوه عدا هذا الوجه اما اوريجانوس نفسه فكان ميالاً لارتقاء الرتبة الكهنوتية الا انه كان يحترم ارادة رئيسه البطريرك في هذا الشأن ويرضخ لحكمه . وكان ديمتريوس يؤكد ثقته باوريجانوس بين كل آونة واخرى بواسطة معاملته له معاملة تدل على الثقة التامة وبارساله في مهام مهمة لها علاقة كبرى بالكنيسة مع انه عالماني كغيره من عامة الناس . وليس من العجيب ان يكون روح العداء بداء بين البطريرك واوريجانوس بواسطة اصحاب الطرفين كما سبقت الاشارة كأن يكون امبروز وغيره من محبي اوريجانوس والمعجبين به اظهروا استهجاناً من حرمان اعظم لاهوتي في تلك الايام من الوظائف الروحية بواسطة بطريرك كان لم يزل الى وقت

ارتقائه السدة البطريركية فلاحاً امياً وحرضوا اوريجانوس ان يستخف بهذا البطريرك ويترك بلاده هذه ويقصد اساقفة فلسطين الذين كانوا رفقاء له في المدرسة ويعرفون قيمته ومقداره ويودون من صميم افئدتهم تعيينه في وظيفة كهنوتية . فاذا صح هذا الاحتمال فقد يكون تحريض هؤلاء القوم السبب الوحيد الذي جعل اوريجانوس يعدل عن الذهاب تواً الى بلاد اليونان لاتمام المأمورية التي عهدت اليه وان يعرّج على فلسطين حيث سيم كاهناً على قيصرية

وقد احتدم ديمتريوس غيظاً لاحتقار سلطته والاستهانة به فكتب للذين كانوا السبب في الذي حدث كتابة شديدة اللهجة وغضب من اوريجانوس غضباً شديداً حتى انه لما عاد هذا الى الاسكندرية بعد مضي بضعة اشهر على رسامته في فلسطين وجد مكانته قد سقطت ومركزه لم يبق له ولكنه ظن نفسه محقاً في الخطة التي اتبعها وان ما عمله هو الصواب بعينه ولكنه لعلو همته واتساع مداركه رأى انه يخطيء اذا هو بقي في الاسكندرية في مثل هذه الظروف التي زعزعت مقامه ولذلك فض كل علاقة له مع المدرسة اللاهوتية التي كان رئيساً لها وعول على ترك الاسكندرية وكل ما فيها وهجر مصر هجراناً لالقاء بعده . وقد يصعب على المرء ان يتصور مقدار الشقاق والانقسام اللذين كان يمكن حدوثهما في الكنيسة لو لم يتدارك اوريجانوس الامر بما فطر عليه من شرف النفس والتواضع وتحمل بطيب خاطر نتيجة ما جنته عليه يده فينسحب بنفسه طوعاً

واختياراً تاركاً هذه البلاد الى بلاد اخرى اختارها لشخصه بذاته. وكان لسوء الحظ ان ديمتريوس لم يظهر هذه الشهامة والانفة اللتين اظهرهما خصمه . صحيح قد كان له الحق في ان لا يقبل في بلاده كاهناً يعتقد بعدم صحة كهنوته وعدم صلاحيته لهذه الرتبة كما ان باقي اساقفة البلاد كتبوا له يسفهون رأي اوريجانوس تسفيهاً ولكنه لم يكتف بهذا كله فيقف عند هذا الحد. ذلك لانه مع قبول اوريجانوس حكم المجلس الذى شكله ديمتريوس من الاساقفة والشيوخ واستعفائه من رئاسة المدرسة اللاهوتية ومهاجرته مسقط رأسه ومنبت أسلته. كل هذا لم يزد ديمتريوس الا حنقاً عليه وسخطاً خصوصاً وان اوريجانوس قوبل في فلسطين مقابلة المنتصر الفائز على خصمه واكرم اصدقاءه الاساقفة هنالك وفادته ورفعوا منزلته كثيراً ولا ريب انهم كانوا مستعدين لاجراء هذه المظاهرة لاوريجانوس لمعرفتهم بما سيتم له في مصر . والذى يراجع ما كتبه يوسيبيوس في هذا الصدد يتضح له ان اساقفة فلسطين اظهروا اعجاباً واستحساناً لاعمال اوريجانوس وتحقيراً وتسفيهاً لاراء ديمتريوس الامر الذى اغاظه غيظاً يعذر عليه ولكن كيفما كانت اسباب هذا الغيظ فهي لا تخلي ديمتريوس من الملام الواقع عليه بما عمله من جمعه اساقفته وحصوله على قرار منهم يقضي بحرمان اوريجانوس حرماً باتاً وارساله خطابات الى جميع الكنائس يعلمها بهذا القرار وذلك لانه استشاط غضباً من هروب اوريجانوس الى فلسطين كما يهرب العبد الآبق

واحتقاره اياه مع ماكان له من عميم الفضل عليه وحق الرئاسة ايضاً وحبه له وهو بعد في مهد الطفولية . اما اوريجانوس فعد هذا الحرم غاية في القسوة والحدة كما يظهر لك ذلك من نص كتاب كتبه اثناء اقامته في قيصرية وهاك ملخصه :

« وحدث بعد هذه الامور ان الله اخرجني من ارض مصر بيت العبوديه كما خلص شعبه منها قديماً . ثم قام عدوي (يعني البطريرك) واقام في وجهي حرباً عواناً بواسطة مكاتيبه التافهة التي تغاير مبادىء الانجيل تماماً وحرك ضدي ريحاً صرصراً فرأيت من الصواب ان اقاوم جهد استطاعتي مدافعاً عن المبداء المهم الذي اختطيته لنفسي وسرت عليه وهو الافاده والاستفادة وكنت اخشى من ان هذه المباحكات العقيمة يستفحل شرها فتثير ثائرة النفس الامارة فتضعف الذاكرة حينئذ واعجز عن اتمام شرح الكتاب المقدس الذي بدأت به قبل ان ينطمس ذهني خصوصاً وان ابتعادي عن النساخ الذين كانوا يكتبون الخط المختذل منعني من تملية ما يخطر على بالي من الافكار . اما الآن وقد بعدت عن كل عوامل التأثير وقدر الله جل وعلا ان تمايش تلك السهام الناريه التي صوبت نحوي وتذهب في الهواء ألفت نفسي حينئذ وقوع الملمات التي كانت تصيبني بسبب التبشير بكلمة الانجيل واضطرت هذه النفس ان تتحمل بطيب خاطر جميع المصائب التي انتابتني فهدأ روعي وسكن جاشي لجودة الهواء وحسن الطقس فعقدت النية على عدم تأجيل نسخ وتنقية المؤلفات المطلوب مني اتمامها »

ولنرجع الى القرار الذي صدر بحرم اوريجانوس فنرى ان اساقفة بلاد العرب واليونان وكبدوكية وفلسطين قابلوا هذا الحكم الصارم غضاء وعدم اهتمام وظل اوريجانوس يزاول في فلسطين كل العمل المطلوب منه ككاهن فوق مشاغله اليومية في التدريس والابحاث اللاهوتية .

ولم يسلم اوريجانوس من غلطات يقع فيها جميع البشر على السواء فيما

يختص بمعاملتهم لاعدائهم ومبغضيهم وقلما ينجو منها احد خصوصاً وقت الحدة التي تبدل الحلم بعنف والتواضع بتشامخ وكان من اوريجانوس انه وعظ يوماً في اورشليم فاتخذ آية موضوعه قوله « يقول الله للاشرار لماذا تضعون عهدي في افواهكم وانتم قد رفضتم الاصلاح واطرحتم كلامي خلف ظهوركم » ولكنه لم يكد يتم قراءة هذه الآية حتى نخسه ضميره ووبخه قلبه وشعر ان صديقه ورئيسه البطريرك ديمتريوس قد يمكن ان يأوّل هذا الكلام تأويلاً يطبقه على نفسه فسالت دموعه على خديه كالسيل المنهمر واجهش في البكاء حتى لم يعد يستطيع النطق فتأثرت الكنيسة لتأثره وبكت لبكائه .وهذه احدى نتائج الضمير الحي الذي لم يقض عليه القضاء الآخير

واقام اوريجانوس نهائياً في قيصرية وتبعه اليها امبروز وزوجته وكل عائلته وتوافد اليه التلامذة افواجاً للاستنارة بمشكاة علمه وفضله . اما رفيقاه في التلمذة وهما هراكلاس وديونيشيوس اللذان كانا من اعز اصدقائه في مصر فلم تخمد نار محبتهما له ولكن عندما حمي وطيس الجدال بينه وبين البطريرك ديمتريوس انحازا لرأي البطريرك والدليل على ذلك انه عندما رقيا الكرسي البطريركي بالتوالى في اثناء حياة اوريجانوس لم يفكرا في ارجاعه الى الاسكندرية مرة اخرى . وبعد هذه المخاصمة الغبية بين هذين الصديقين بقليل تنيح البطريرك ديمتريوس شيخاً وشبعان من الايام بعد ان شهد ستة امبراطرة توالوا على العرش الروماني وخلفه

هراكلاس اما ديونيشيوس فعين رئيساً للمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية

الفصل الثامن

اضطهاد ديشيوس للمسيحيين . سنة ٢٣٥ ب . م

بعد ان رحل اوريجانوس الى فلسطين بسنتين من الزمان قتل الامبراطور اسكندر بيد مكسيمينوس وهو بطل مغوار جمع كل شيء تحت سلطته وساعده على ذلك اهمية مركزه في الجيش حتى اصبح سيداً تعنو له رقاب اولئك الجنود الذين كانوا يتلونون كالحرباء ويخضعون لمن ملك وهم الذين عضدوه في تدبير المؤامرة ضد سيده فقلب عرشه ورقي كرسي الامبراطورية ضد رغبة مجلس النواب الذي لم يستطع الاعتراض على عمل كهذا يعضده الجيش ويرغب فيه . وكان اول امر شرع فيه مكسيمينوس مقاومة المسيحيين ومناجزتهم وذلك لان اسكندر سلفه كان يثق بهم ويعطف عليهم فبداء اضطهاده في ايطاليا وفلسطين والقى القبض في قيصرية على امبروز وصديق آخر لاوريجانوس كان تلميذاً له قبلاً واستاقوهما الى المانيا ليسجنا في سجونها اما اوريجانوس ففر هارباً وجاء الى قيصرية كبدوكية والتقى فيها باسقفها فرميليانوس الذي كان من ضمن اصدقائه والمعجبين به كثيراً واقام اوريجانوس مدة في هذه المدينة في منزل امرأة اسمها يوليانا كانت على جانب عظيم من الثروة والتهذيب . ولما بداء الاضطهاد في مصر اضطر البطريرك هراكلاس

ان يترك الاسكندرية فراراً من وجه مكسيمينوس ولكن كثيرين من المصريين المسيحيين تجرعوا الموت كأساً دهاقاً في الاسكندرية والاقاليم

ولم تدم مدة هذا الظالم المشؤوم طويلاً فلم تكد تمض ثلاث سنوات على ملكه حتى حدثت ثورة في موريتانيا احدى المقاطعات الرومانية اندك بها عرشه وخلفه غورديان وابنه اللذان ملكا ثلاثة شهور انتهت بان انتحر الاب انتحاراً وقتل الابن في حرب اغتيالاً وعقبهما مكسيموس وبلبينوس اللذان انتخبا انتخاباً اما مكسيموس فهجم عليه جيشه وقتله غيلة. ولما كان لعائلة غورديان مكانة سامية في ذلك الوقت لم يرض الجيش وعامة الشعب بغيرها ولذلك اجهزوا على بلبينوس الذي انتخبه مجلس النواب مع مكسيموس فقتلوه في القصر الامبراطوري برومية ونادى الجيش بغورديان الثالث امبراطوراً والبسوه التاج الروماني وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره. وعندما ملك هذا الفتى استراحت البلاد من الاضطهاد ولو ان الحرب لم تلق اوزارها بعد. ولما هداء ثائر الاضطهاد عاد اوريجانوس من كبدوكية الى قيصرية والتقى بامبروز الذي يحتمل انه استفاد من المصائب التي وقعت على الحكومة اذ انتهز فرصة انقلاب السلطنة بواسطة الثورات المتتالية وفر من سجنه. اما غورديان فملك ست سنين لم يحدث فيها ما يستحق الذكر سوى انها كانت سني سلام وآمان فنمت فيها الكنيسة المسيحية في مصر نمواً يوجب الشكر والدليل على ذلك ان البطريرك هراكلاس أوجد عدة ابروشيات جديدة في

الاقاليم. وقدذهب بعض المؤرخين الى ان هرا كلاس كان اول بطاريرك مصري اطلق عليه لقب بابا وهذا خطاء فان اللقب المذكور كان معروفاً في مصر من اول نشأة الديانة المسيحية فيها وكان يطلق على القس والاسقف سواء. وفي هذه المدة جاء مصر يوليوس افريكانوس الشهير

ويغلب على الظن انه في اواخر حكم غورديان شرع اوريجانوس في رحلته الثانية الى بلاد العرب وكان بريلوس اسقفها الذي سبقت الاشارة اليه قد وقع في حبائل بدعة جديدة كان يعلمها للناس وهي ان مخلصنا يسوع المسيح لم يكن له في عالم الوجود وجود قبل ان يولد بالناسوت فباحثه اوريجانوس طويلا وناقشه كثيراً في هذا الشأن حتى تغلب عليه بقوة الحجة والبرهان واقنعه بغلطه وبذا منع شقاق جديد كاد يقع في الكنيسة . وقد يكون اوريجانوس عرف شيئاً كثيراً في هذه الرحلة عن رجل اسمه فيليب من البصرة كان ابوه يلقب برئيس عصابة لصوص — وبعبارة اوضح كان بدوياً يسكن القفار — وعين فيليب هذا ضابطاً قضائياً وكان قبل تعيينه يدس الدسائس ضد مولاه الملك. اما الفرس الذين عرفناهم قبلاً اقوياء متحدين فقد بداؤا يستعملون قوتهم في أثناء حكم غورديان باغارتهم على الحدود الشرقية للمملكة فضاق غورديان ذرعاً من معاملتهم هذه وصمم اخيراً ان يسير اليهم بجيش يتولى قيادته بنفسه ٠ ومع ان انهزام احد الطرفين كان لا بد منه الا ان بلوطينوس الفيلسوف الافلاطوني الاسكندري الشهير رافق هذه

الحملة آملاً ان يستفيد شيئاً من فلسفة الفرس التي كانت لا تقل كثيراً عن فلسفة اليونان . فانتهز فيليب السابق ذكره هذه الفرصة للايقاع بسيده الامبراطور غورديان فتوصل اخيراً الى اغتياله وذبحه وله من العمر احدى وعشرون سنة ثم عقد فيليب معاهدة صلح مع الفرس وذهب مسرعاً الى رومية. وقد عاد بلوطينوس بعد ان لاقى صعوبات جمة في طريقه اذ كان يخشى عليه من الوقوع في ايدي الجيش الفارسي وقطن في رومية ينشر فيها علومه التي استوعبها من فلاسفة الفرس وعلماء الاسكندرية

قال يوسيبيوس ان فيليب هذا كان مسيحياً وهذا خطاء يناقض ما رواه يوسيبيوس نفسه من ان قسطنطين هو اول امبراطور مسيحي كما ان فيليب اضطهد المسيحيين في مصر ولا يمكن ان يضطهدهم لو كان مسيحياً . وقبل ان يبتدىء اضطهاد ديشيوس الآتي ذكره تنيح البطريرك هراكلاس وخلفه ديونيشيوس الذي كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية

وكان ديونيشيوس هذا من عائلة عريقة في النسب وتربى تربية وثنية . ومما يروى عنه ان امرأة مسيحة فقيرة اقرضته يوماً ما رسائل بولس الرسول ليقرأها فما اتم قراءتها حتى استفاد منها فائدة كبرى وشعر بلذة عظمى من مطالعة هذه الرسائل فاشتراها حالاً ودار يسأل عن الكتب الاخرى التي يقتنيها المسيحيون حتى يستعيرها منهم فاشارت

عليه تلك الامرأة التقية ان يذهب الى القسوس فهم اعرف منها بذلك فعمد اليهم من فوره وعرض عليهم امره فقدموا له باقي الاسفار وهم فرحين مسرورين . فعمل الروح القدس في قلبه عمله المعروف واعتنق هذا الشاب الوثني الديانة المسيحية ومن ثم تتلمذ لاوريجانوس كما سبق القول . ومن المؤكد ان ديونيشيوس كان متزوجاً ولكن يحتمل ان امرأته كانت قد ماتت عند ارتقائه الكرسي البطريركي وكان ايضاً من مشاهير رجال عصره ومن فطاحل علماء زمانه وقد كتب كثيراً في مواضيع شتى لم تزل بعض كتاباته باقية الى يومنا هذا سندرج بعضها فيما يلي ومنها يتضح الشدة والضيق اللذان قاساهما المسيحيون بمصر في هاتيك الايام المرة . وبعد ان تعين ديونيشيوس بطريركاً اعقبه بيروس في رئاسة المدرسة اللاهوتية وكان كغيره من ائمة تلك الاعصر قساً عالماً وكاتباً ماهراً فضلاً عن انه عرف بزلاقة اللسان وفصاحة المنطق وبلاغة الكلام حتى سموه اوريجانوس الصغير . وقد ذهب البعض الى انه مات شهيداً فاذا صدق قولهم فيكون استشهد في الاضطهاد الذي احدثه الامبراطور فاليريان كما سيجيء القول ولكن تاريخ موته لم يعلم قط وعلى اي حال فانه مات قبل سنة ٢٨٢ ب . م وذلك لانه عند ما سيم ثيوناس بطريركاً في السنة المذكورة لم يكن بيروس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بل كانت تحت رئاسة ثيوغنوسطس الذي لا يعرف عنه شيء . ومن الذين رضعوا لبان العلوم اللاهوتية على يد

بيروس رجل شهير من قيصرية اسمه بامفيليوس وذلك في مدرسة الاسكندرية الطائرة الصيت حينئذ

وكان الاضطهاد الذي وقع في حكم فاليريان محصوراً في مصر فقط فلم يتعدها الى غيرها وسببه التعصب الديني من الوثنيين ضد المسيحيين وليس هو بامر من الحكومة كالاضطهادات الاخرى .وقد كتب ديونيشيوس بعد نهاية هذا الاضطهاد كتاباً بعث به الى فابيان اسقف انطاكية وفيه وصف للاضطهاد المذكور كما انه احد الخطابات التي وعدناك بنشرها دلالة على مقدرة ديونيشيوس على الكتابة والتحرير وهاك هو :—

« ان الاضطهاد الذي اصابنا لم يحدث بناء على أمر من الحكومة بل ان ناره كانت مخبوءة تحت رماده مدة سنة كاملة فالتظت عند ما اثارتها زند التعصب . وتفصيل ذلك ان شاعراً يدعي النبوة وفد على الاسكندريه وكان مجيئه شؤماً عليها اذ جال فيها يهيج سخط الوثنيين ضدنا ويحرضهم على الدفاع عن خرافاتهم واباطيلهم التافهة فتم له ذلك واثار ثائرة الوثنيين نحونا وساعدهم على عملهم ما اباحته لهم الحكومة من اجراء اي شر وضر يرغبونهما لنا كما انهم ظنوا ان منتهى التقوى والقداسة تحصر في عبادة اوثانهم وشياطينهم وان هذه العبادة تتم بذبحنا وتقديم اجسادنا قرباناً لاصنامهم . وكان اول شر ارتكبوه ان امسكوا رجلاً هرماً اسمه متري وطلبوا منه ان يجدف ويهزي بكلام

يذي فرفض الرجل طلبهم بتاتاً وحينئذ انقضوا عليه كالوحوش واخذوا يضربونه بالعصي ويخزون وجهه وعينيه بمناخس وهو ثابت القلب ساكن الجاش فلما يئسوا منه اخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتى مات . ثم اتفقوا جميعهم وساروا مندفعين الى منازل المسيحيين فكانوا يدخلونها بقوة غير مراعين حرمة الجيرة ولا شروط المروة ويخرجون السكان منها ثم يتلفون كل ما وصلت اليه ايديهم الاثيمة فيأخذون الاشياء الثمينة القيمة اما الاثاث والامتعة البيتية فيجعلونها طعاماً للنار اذ يحرقونها على قارعة الطريق حتى اذا رآهم احد وهم يركضون ويسلبون ويقتلون ويحرقون ظنهم جيشاً ظفر بمدينة ففعل بها فعل الغالب المنتصر . اما المسيحيون فلم يبدوا ادنى مقاومة بل وقفوا يراقبون خراب بيوتهم وهم سكوت صامتين فكانوا مثل اخوتهم الذين اشار اليهم بولس الرسول في انهم كانو ينظرون سلب امتعتهم بفرح . ولست اعرف سوى رجل فقط من الذين وقعوا في ايديهم انكر ايمانه ولكن بعد عناء شديد وعذاب قاس واعرف ايضاً انهم القوا القبض على عذراء عفيفة فاضلة اسمها ابولونيا وكانت قد هرمت وشابت ناصيتها واخذوا يضربونها على فكيها حتى حطموا اسنانها تحطيماً ثم اشعلوا ناراً خارج المدينة وهددوها بالحرق حية ان لم تنطق بكلمات التجديف والسخر التي كانوا يلقنونها اياها فاصابتها في اول الامر قشعريرة شديدة من شدة الآلام ولكنها عادت فتجلدت وثبتت فلما

رأى معذبوها عدم فائدة هذا العذاب طرحوها في النار واحرقوها حتى صارت رماداً . وقد امسكوا ايضاً رجلاً اسمه سرابيون بينما كان في بيته واذاقوه عذابات يقصر القلم عن وصفها ويرق الحجر الصلد من تأثيرها حتى كسروا جميع اضلاعه وسحقوها سحقاً واخيراً طرحوه على ام رأسه من فوق علو شاهق . وكان اذا سار الانسان ليلا او نهاراً في الشوارع والازقة لا يسمع سوى صراخ وضجيج وقوم يهددون ويعذبون كل من رفض ان يجحد ايمانه وينكر مسيحه ولا يشاهد المرء غير اناس اتقياء بجرهم الاشرار على وجوههم ثم يطرحونهم في النار المتقدة فيحرقونهم كالهشيم . وقد بقيت هذه الخطوب متفاقمة مدة من الزمن الى ان ظهر هياج سياسي اعقبه حرب اهلية (١) جرفت في سبيلها كل شرير اثيم ولذلك استرحنا قليلا اذ انصرف شرهم عنا الى بعضهم بعض ولم نكد نتنفس الصعداء حتى حاق بنا الخوف وحفنا الخطر عند ما أبدل ذلك الملك الذي كان ارق جانباً واقل شراً من غيره بملك آخر قد لا يجلس على كرسي المملكة الا ويوجه انظاره نحونا ليعمل على اضطهادنا . وقد بدأ حدسنا يصدق وظننا يتحقق حالما صدر (٢) امر شديد الوطأة مثلما انباء بذلك مخلصنا له المجد متضمناً عبارات تصك منها الركب حتى اوشك المختارون على السقوط والعثار وعم الخوف الجميع وارکن كثيرون من المشاهير الى الفرار ورفت كل مسيحي في خدمة

(١) كانت نتيجة هذه الحرب الاهلية قتل فيلبس وارتقاء ديشيوس الى الكرسي الامبراطوري
(٢) هذا الأمر اصدره ديشيوس في سنة ٢٥٠ ب · م

الحكومة كيفما كان زكاءه ونباهته وكان كل وثني يعرف احد المسيحيين ويرشد عنه كان يؤتى به على عجل ويدعون الواحد باسمه حتى يتقدم الى هيكل الاوثان فيطلب منه تقديم الذبيحة الوثنية وكان عقاب من يرفض تقديم الذبيحة للصنم ان يكون هو نفسه ذبيحة للصنم بعد ان يجهدوا في اقناعه بذلك بكل وسائط التخويف والارهاب بينما كان يوجد جمهور من الوثنيين التأم هنالك وهو يهزاء ويسخر بكل مسيحي يكون حظه اما نكران الايمان وتقديم الذبائح للاوثان واما الموت الذي هو نهاية كل انسان.ولكن بعض ضعيفي الايمان انكر ايمانه وهو واقف امام المذبح الوثني واثبت انه لم يكن مسيحياً قط فمثل هذا يصدق عليهم قول المخلص المجيد انهم بالجهد يخلصون . وكان البعض يقتدون بهذ الجاحد والبعض يتمسكون باذيال الفرار وغيرهم قبض عليهم وطرحوا في السجون مكبكين بالقيود والاغلال ومنهم من انكر الديانة المسيحية بعد ان سجن قليلا ولم يحاكم وكثيرون بقوا متمسكين بالدين المسيحي معترفين به مع صعوبة العذابات التي ذاقوها مدة طويلة. وكثيرون قواهم الله وارسل لهم معونة من لدنه فبقوا مرتبطين بوحدانية الايمان الصحيح ولم يميلوا عنه يمنةاو يسرة وكان من امرهم ان صاروا اركاناً متينة في بيت الرب وعليهم بنيت الكنيسة المصرية كما انهم دعوا شهوداً امناء على مجد ملكوت ابن الله . وكان في مقدمة هؤلاء الاتقياء رجل اسمه يوليانوس اصيب بالنقرس (داء المفاصل)

فلم تكن له مقدرة على السير او القيام من مكانه فساقوه الى المحاكمة يحمله رجلان على كتفيهما ولما تقدم هذان الرجلان امام المحكمة انكر احدهما ايمانه بلا امهال واما الثاني واسمه كرونيون ولقبه انوس فاعترف بايمانه اعترافاً صريحاً كما اعترف يوليانوس ايضاً ولذلك حملوهما على جمالٍ وطافوا بهما في جميع انحاء الاسكندرية – وهي كما تعلم واسعة الاطراف – وكانوا يجلدونهما بالسياط جلداً عنيفاً واخيراً طرحوهما في لهيب يتقد بالنيران فصارا رماداً بينما كان مضطهدوهما وقوفاً يتفرجون عليهما كأنه من المناظر التي تسر لها النفوس »

وقد سطر ديونيثيوس ايضاً ما حدث من استشهاد ستة رجالٍ واربع نساء فيهم شاب في ريعان عمره اسمه ديوسقوروس . وكان بعض هؤلاء المذكورين من الاقاليم وبعضهم من الاسكندرية . وهاك مضمون الجواب المذكور

« بعدان جلد اولئك الاتقياء بالسياط طرحوا في أتون النار انتقدامادي ديوسقوروس فاعطاه القاضي مهلة يتدبر فيها نتيجة اصراره على التمسك بايمانه عساه يعود فيجحده اشفاقا من القاضي على نضارة شبابه وخصوصاً لما آنسه فيه من العقل والرصانة عند ما كان يجيب لى الاسئلة التي سألوه اياها . قال الكاتب — وها انا اخط هذه السطور وديوسقوروس قائم بجانبي يطفر من الفرح الروحي منتظراً عذاباً مريعاً والماً موجعاً قد يصيبه الآن »

كتب الجواب المذكور آنفاً حالاً بعد بداءة الاضطهاد الذي اثاره الامبراطور ديثيوس اما المكتوب الذي سيجيء ذكره فيستدل من

اوائله انه كتب في زمن سابق لهذا الزمن غالباً في ايام الاضطهاد الذي وقع في مدة فيليب . اما السبب الذي الجأ البطريرك ديونيشيوس الى كتابة الرسالة التالية فهو ان جرمانوس احد اساقفة الاقاليم بلغه ان هذا البطريرك لم يتبع الخطة التي سار عليها سلفه الاسبق ديمتريوس في انه هرب من الاسكندرية بعد بداءة الاضطهاد بقليل ولم يعد اليها الا بعد ان استراح المسيحيون هنيهة لسبب الخصومة التي وقعت بين الامبراطورين ديثيوس وفيليب عن المملكة وقد اشار اليها ديونيشيوس في كتابه الآنف ذكره . فرأى جرمانوس ان هروب البطريرك ديونيشيوس من الاسكندرية أثناء الاضطهاد ناتج عن جبن وخوف ولذلك وبخه توبيخاً عنيفاً فقام ديونيشيوس يدافع عن نفسه وينفي التهمة التي وجهت اليه بأنفة وغيرة حيث قال :—

« الى جرمانوس سلام

« وبعد فانني اتكلم امام الله واشهده على نفسي انني لا اكذب فيما اقول بان هروبي لم يكن طبقاً لارادتي كما لا ادعي انني اتيته بناء على الهام من الله بل الواقع انه قبل ما ابتدي الاضطهاد الذي اثاره دشيوس جاء رجل اسمه فرومنتاريوس من قبل حاكم ليبحث عني وكنت قد مكثت في منزلي نحو اربعة ايام انتظر مجيء فرومنتاريوس الذي لم يأت الى بيتي تواً بل ذهب ينقب في كل مكان في الشوارع والحقول وبقرب الانهر حيثما ظن انني اختبيء هناك وكأنه ضرب بالعمى فلم يستطع العثور على منزلي لانه لم يخطر بباله قط انني ابقى في البيت وقت الاضطهاد . فمرت الاربعة ايام على هذه الحالة الى ان اذن لي الله ان اترك كمني وفتح لي طريقاً سلكت فيه بكيفية عجيبة جداً فخرجت من المنزل ومعي اتباعي وكثيرون من الاخوة

المسيحيين وكان ذلك بتدبير من الله وعناية منه ظهرت لنا في كل الذي تم معنا بعد ذلك وبدونها لم نكن نذكر بشيء او نفيد شيئاً . وعند ما آذنت الشمس بالمغيب امسكني العساكر انا ورفقائي وقادونا الى سجن نابوسيرس ولكن تيموناوس (يحتمل انه ابن هذا البطريرك) لم يكن موجوداً ولم يلق القبض عليه وذلك بعناية الهية فانه لما دخل البيت وجده قفراً والمزار بعيدا وليس فيه سوى خدام يحرسونه اما نحن فصرنا عبيدا ارقاء وقد اتفق ان رجلا من الارياف رأى تيموناوس راكضاً تلوح عليه دلائل الخوف والجزع فسأله الرجل عن سبب جريه فاوضح له تيموناوس جلية الخبر . وبعد ان سمع الرجل هذا الامر ذهب في طريقه وكان قاصدا وليمة عرس – وكانت العادة ان الناس يحيون كل الليل في الافراح – فلما استقر به الجلوس في المجلس قص هذا الخبر على آذان المدعوين لهذه الوليمة فلم يكن الا كلمح البصر حتى نهضوا جميعهم نهضة رجل واحد كانهم كانوا على اتفاق سواء وجاؤا مسرعين كالسيل الجارف واندفعوا علينا كالنسور واخذوا يصرخون ويضجون باصوات كالرعد القاصف فلما رأى العساكر الذين كانوا يحرسوننا ما جرى ولوا الادبار وار كنوا الى الفرار فانقض اولئك علينا انقضاض البواشق بينما كنا نياماً على اسرة ليس عليها شيء من الفراش . ويعلم الله انني ظننتهم في باديء الامر جماعة من اللصوص جاؤا قاصدين السلب والنهب ولذلك ظللت نائماً على فراشي كما كنت دون ان ابدي حراكا وليس علي شيء من الملابس سوى قميص من الكتان اتدثر به واما باقي ثيابي فكانت مطروحة بجانبي فقدمتها لهم عند ما اقتربوا مني . اما هم فلم يكونوا يقصدون النهب ولا يبتغون الثياب بل امروني ان اقوم من مربضي واسير معهم مسرعا الى حيث يريدون . فلما ادركت قصدهم من المجيء الينا اخذت في البكاء والعويل واخذت اتوسل اليهم متضرعا ان ينصرفوا عنا ويتركونا وشأننا وقلت لهم انهم اذا شاؤا ان يعملوا معنا جميلا فليستأذنوا الذين ادخلوني في هذا المكان ومن ثم يقطعون رأسي فلما صحت عليهم هكذا كما يشهد بذلك رفاقي والذين اشتركوا معي في الضيقات اجتهد اولئك القوم ان يأخذوني قسرا رغما عني ولذلك القيت بنفسي على الارض مطروحا على ظهري ولكنهم لم يشفقوا علي بل امسكوا يدي

ورجلي وجروني خارجا وتبعني الذين شاهدوا هذه الحادثة وهم كايوس وفوسطس وبطرس وبولس (غير الرسولين المعروفين) فاخرجوني خارج المدينة واركبوني حمارا غير مسرج »

وقد بلغ اضطهاد ديشيوس منتهى القسوة والصرامة في فلسطين ولكن اوريجانوس تقوى هذا المرة فلم يهرب وكان قد عاد حديثا من زيارته الثالثة لبلاد العرب حيث اضل الشيطان بعض اعضاء الكنيسة فيها فصاروا يكرزون بمبداء جديد هو ان اللاهوت مات مع الناسوت وقام معه ثانية في وقت واحد (١) . فجرد اوريجانوس سيف الحجة والبرهان في هذه المرة ايضاً وفاز باقناع اولئك المبتدعين الذين خالفت اراؤهم وافكارهم تعاليم الكنيسة كل المخالفة اما اوريجانوس فلم يكد يصل فلسطين عند عودته اليها من بلاد العرب حتى طرح في السجن . ولم يذكر يوسيبيوس شيئاً عن كيفية القاء القبض على اوريجانوس بل ذكر عنه ماياتي في سياق كلامه عن اسكندر اسقف اورشليم وبسيليوس اسقف انطاكية اللذين قال عنهما انهما ماتا في السجن بعد عذاب اليم. قال يوسيبيوس :ـ

« يصعب على الكاتب الماهر وصف ماقاساه اوريجانوس واحتمله بصبر وفرح من العذابات المرة والآلامات القاسية أثناء هذا الاضطهاد اذ وضعوه في مقطرة من حديد وزجوه في اعماق السجن حيث ظل بضعة ايام مطروحاً على خشبة وهو

(١) كان المصريون القدماء يعتقدون انه ولو مات الجسد الا ان الروح والنفس البشرية تبقيان حيتين الروح في عالم آخر والنفس في الجثة المحنطة (المومياء) التي خصت لبقاء النفس فيها الى يوم القيامة الى ان تعود الروح وتتحد مع النفس كما كانتا قبلا . ومن هذا الاعتقاد وجدت عندهم اهمية تحنيط الجثث كمسكن للروح ليس الا

مشدود باربعة وثاقات لا يستطيع معها الحراك وهم يشعلون النار من حوله تهديداً له وتخويفاً وغير ذلك من مرائر شرحها يطول ووصفها يهول ذاقها هذا المسيحي من اعدائه العديدين ولكنه لم يبد ضجراً ولا اظهر مللاً ولم يقل يا ازمة انفرجي وعند ما انتهى القوم من تجريع اوريجانوس كل اصناف العذاب قدموه للحكم عليه بالموت فسعى القاضي الموكل بالحكم جهده في تأخير موته ليس لينجي اوريجانوس منه بل ليطيل عذابه باطالة ايام حياته . فالذي تم لاوريجانوس من آلام وعذاب يجدر بان يكون عبرة لمن يعتبر وذكرى لمن يذكر وتعزية للذي وقع في مصاب او اصابه شر وتجربة وعلى من يرغب شرحاً وافياً عن ذلك عليه بمراجعة رسائل اوريجانوس التي بقيت بعده فيجد فيها اخباراً يوثق بصحتها وتفصيلاً وافياً عما اصابه واصاب غيره من قبله .

اما الرسائل الكثيرة التي كتبها اوريجانوس واشار اليها يوسيبيوس في ما كتبه آنفاً فلم يبق منها سوى رسالتين فقط ليس فيهما شيء عن الاضطهاد الذي احدثه ديثيوس وقد يمكن ان ما ذكره عن هذا الاضطهاد موجود في رسائله الاخرى التي اصبحت هباء منثوراً . ولو ان كل ما ورد في كتاب يوسيبيوس عن اوريجانوس قد ضاع ولم يبق شيء منه الا انه عجيب في ان ذكرى هذا الرجل وتأثيره الشخصي بقي فعالاً مؤثراً في ايام كان ديجور ظلامها يلمس بالايدي وشرها يسمع صريره بالآذان . اما عذاب اوريجانوس فلم يقف عند الحد المار ذكره بل بقي مدة طويلة تنلب فيها الرجل على فراش الضنى والحول حتى بلغت روحه الحلقوم ولكن ظهر له شعاع من الفرح والسرور عند ما وافاه مكتوب من البطريرك ديونيثيوس يشجعه فيه ويشاطره الاسى والاسف مظهراً فيه ارق العواطف

واشرف الاحساس الا ان هذا الجواب الثمين ضاع كما ضاع غيره من المكاتيب المفيدة

وقد زل كثيرون من المسيحيين أثناء اضطهاد ديثيوس هذا وقدموا الذبائح للاوثان اجابة لطلب معذبيهم فاخذت هذه المسألة دوراً مهماً في الكنيسة عن كيفية المعاملة التي يعامل بها الذين سقطوا عند ما يخف وزر الاضطهاد ويأتون ليعترفوا بخطاياهم ويتوسلوا الى الكنيسة لكي تقبلهم ثانية في احضانها . فقر الرأي على قانون للتوبة سن بعد ذلك بقليل للسير بمقتضاه في هذه الاحوال والظروف الصعبة وقد يمكن ان هاته المسألة كانت موضوع البحث في كل اضطهاد حدث ولكن بت الحكم فيها هذه المرة فقط واصبح العمل بها امراً مقرراً بعد ان تداولت عنها مكاتبات ورسائل كثيرة بين اساقفة الاقاليم وكان اكثرهم ميالا للرفق بحال من يتوب توبة حقيقية الا ان نوفاتوس احد كهنة رومية خالف زملاءه في هذا الشأن وكان رأيه ليس مما يحمد عليه فضلا عن انه تحصل على تصديق مزور من اساقفة في بلاد بعيدة يدعي فيه انه عين اسقفاً لرومية. فرجل بمثل هذه الصفات يرتقي المناصب الكهنوتية زوراً وبهتاناً لا يصعب عليه ان يشدد النكير على الذين زلت بهم القدم في مدة الاضطهادات ويقسو عليهم قسوة متناهية حتى انه اوجد قانوناً مخصوصاً في هذا الصدد مفاده ان الذين جحدوا الدين المسيحي ولو مرة واحدة لسبب الاضطهاد لا يمكن قبولهم في عضوية الكنيسة مرة ثانية ولو تابوا توبة بدموع

ما دام ان الكنيسة لا قدرة لها على مسامحتهم وغفران خطاياهم وعليه انعقد مجمع في قرطجنة مؤلف من نيف وستين اسقفاً عدا الكهنة والشمامسة تحت رئاسة كبريانوس للنظر في هذا الامر فقرر اخيراً باجماع الاراء القرار الآتي وهو :

« حيث ان نوفاتوس والذين جاروه على آرائه عولوا على انتهاج طريق العدوان وسلكوا مسلكاً يخالف الطبيعة البشرية كل المخالفة فهؤلاء يعتبرون منشقين عن الكنيسة ما داموا يخالفونها في قراراتها . اما الاخوة الذين وقعت عليهم المصائب الروحية وضلوا السبيل السوي فيلزم علاجهم بدواء التوبة الشافي حتى ينقهوا »

وقد اتفق المجمع كله على استئناف القضية الى اسقف الاسكندرية أو هو بابا الاسكندرية . اما كرنيليوس الذي انتخب حديثاً اسقفاً لرومية بدل فابيان الشهيد — ذلك لان تعيين نوفاتوس الغير القانوني لم يقر عليه الرأي ولا اعترف به احد سوى رهط يعد على الاصابع — كتب الى ديونيثيوس كتاباً شديد اللهجة متين العبارة يشكو فيه « الثعلب الخبيث المحتال » وهو يقصد بذلك نوفاتوس المذكور . اما نوفاتوس فكتب الى دنيثيوس يعتذر عن رسامته الغير قانونية ويقول انه اضطر لقبولها اضطراراً اجابة لملتمس بعض الاخوة والحاحهم عليه . فقوارص الكلام التي طعن بها كرنيليوس وكبريانوس في صدر نوفاتوس لم تؤثر فيه بشيء ولكن الرسالة التالية التي ارسلها اليه البطريرك دنيثيوس فعلت في قلبه فعل قطرات الماء في جرف هار وهاك الرسالة :

« ديونيثيوس يهدي سلامه الى اخيه نوفاتوس — وبعد . فاذا صح ما قلته وصدق اعتذارك في انك قبلت الوظيفة بطريقة غير قانونية ضد رغبتك فعليك ان تبرهن ذلك بان تترك هذه الوظيفة برغبتك وتعتزلها بارادتك لان الواجب علينا ان نحتمل كل شيء ونذوق كل هوان وعذاب لا ان نسيء اساءة تؤثر في كنيسة المسيح التي افتداها بدمه. واعلم هداك الله ان المجد الاسنى والشرف الاعظم يكونان لنا كاملين اذا نحن متنا شهداء لاجل الكنيسة من ان نسهل لابنائنا تقديم الذبائح للاوثان وانكار الايمان . ومن رأيي ان الذي يموت شهيداً لاجل ايمانه انما يربح نفسه وينال المجد والثواب لشخصه فقط ولكن الذي يموت لاجل الكنيسة فهو يفيد الكنيسة ونفسه ايضاً . والنتيجة انك اذا اقنعت اخوانك وحملتهم على اتمام مبادىء الاتفاق والوئام فتكون حسناتك قد زادت عن سيئاتك والا ان لم تستطع التأثير عليهم وخالفوا وسلطتك فاعمل على الاقل لخلاص نفسك وارأبها . وفي الختام اهديك تحيتي وسلامي على أمل انك راغب في السلام عامل على توطيد دعائمه باسم ربنا يسوع المسيح »

وقد يحتمل ان فابيوس اسقف انطاكية كان ميالاً لاحتذاء حذو نوفاتوس من حيث التشديد على الذين انكروا ايمانهم وتابوا ومعاملتهم بالعدوان والقسوة ولذلك كتب اليه ديونيثيوس كتاباً نأتي على ملخصه هنا وهو :

« اليك مثال عما حدث في مثل هذه الامور التي نتناقش فيها الآن ومنه يظهر لك كيف تصرفنا نحن : حدث ان رجلا هرماً اسمه سيرابيون وهو مسيحي لا غش فيه قضى حياة طويلة بكل تقوى وامانة كان قد ذبح للاوثان اثناء اضطهادهم اياه ولكنه عاد فاقر بذنبه واستغفر ربه عن خطيته فلم يقبله احد او يرق لحاله انسان . فاصاب الرجل مرض عضال الزمه الفراش وظل ثلاثة ايام متوالية لا يعي ولا يتكلم وفي اليوم الرابع افاق قليلا من غشوته فدعي اليه ابنه الاكبر وقال له « لقد طال يا ابني زمن حجزك لي فاتوسل اليك ان تسرع وتطلقني من عقالي فارجوك ان تذهب وتأتي لي باحد شيوخ الكنيسة » ولما قال هذا عاد الى غشوته وصمته واما الغلام فاسرع الى شيخ من مشائخ الكنيسة ليدعوه كامر ابيه وكان الوقت ليلا والشيخ مريضاً . وكنت قد اصدرت امراً قبل هذا الوقت يقضي بان الذين على حافة الموت اذا شعروا بحاجتهم للتوبة والحوا في طلب المغفرة يجب ان يمنحوها حتى ينتقلوا من هذا العالم وقلبهم مملوء من التعزية والرجاء بالحياة الابدية . وعليه جاءني الغلام فاعطيته جزءاً من العشاء الرباني وقلت له ان يغمسه في الماء ويضعه في فم هذا الرجل الهرم . فذهب الولد مسرعاً الى البيت ومعه لقمة الخبز التي اعطيته له ولما قرب من مدخل الباب كان سيرابيون قد عاد اليه رشده فنهض قائلا « لقد جئت يا بني ولكن الشيخ لم يقدر على المجيء معك فعليك اتمام ما أُمرت به ومن ثم اطلقني بسلام فقد ابصرت عيناي خلاص الرب » قبل الشاب اللقمة ووضعها حالا في فم ابيه الذي لم يلبث حتى ازدردها وفاضت روحه الى خالقها . ألم يكن هذا الرجل قد تاب توبة حقيقية ولم يظل حياً الى ان نال المغفرة ومحيت جميع ذنوبه ؟ وهلا يعتبر هذا الرجل التقي مؤمناً لاجل اعماله الصالحة الكثيرة التي عملها في حياته وعند موته ؟ »

وقد يذكر القراء الكرام رجلاً اسمه بولس الناسك وهو احد اركان الرهبنة في برمصر نشأ هذا الرجل في مدة هذا الاضطهاد ولكن شهرته لم تبلغ حدها الا بعد انقضاء الاضطهاد بمدة طويلة حتى ان البطريرك

ديونيثيوس فلما يعرف شيئاً عنه . وكان مسقط رأسه مدينة طيبة الوسطى . ومات ابواه وله من العمر خمس عشرة سنة وتركا له ارثاً وافراً واملاكاً واسعة ساعدته على التربية الحسنة التي شب عليها وكان بعد موت ابويه يقطن في منزل لاخته التي كانت متزوجة بزوج غير مسيحي وبقي عندها الى ان حدث الاضطهاد الذي اثار غباره ديثيوس فاعتزل منزلا في الارياف كان لصهره وذلك لكي ينجو بنفسه من هول الاضطهاد وويله ولم يمكث في هذا المنزل المعتزل طويلا حتى انذرته اخته بان زوجها عقد النية على اخبار الحكومة بحقيقة حاله وارشادها اليه حتى تقتنصه فيتمتع هو بماله وعقاره الذي يؤول اليه بالارث من بعده . فخطر على بال بولس حينئذ قول السيد المسيح له المجد « من أحب أخا أو أختاً أو حقولاً الخ اكثر مني فلا يستحقني » وعليه وهب أخته وزوجها جميع ما يمتلكه من حطام العالم وصمم على أن يعيش عيشة منفردة في الصحاري والقفار ولا يستأنس باحد الا بالله كما فعل القديس فردنتونيوس من قبله . فجاء الى شقيقته الوحيدة يودعها وداعا لالقاء بعده وسار يحث مطايا الجد في عرض الفلاء قاصداً الصحراء التي كان فيها فردنتونيوس على مسيرة يوم من نهر النيل الى شمالي ممفيس وهناك صرف جزءاً من حياته في التجوال والطواف يبحث عن مكان مناسب يقيم فيه الى أن عثر بطريق الصدفة على خلوة تحيط بها كثبان وتلال فاصابت غرضه واتخذها دار اقامة ما بقي من أيام حياته . وكان باب

هذه الخلوة غير ظاهرة من الخارج فلا يستطيع أحد أن يلجها الا اذا كان عارفاً بها من قبل وعند مدخل الباب توجد ردهة واسعة يمر بها النسيم رطباً ناشفاً وهي محاطة من جميع الجوانب بصخور صماء يعسر حتى على الايل أن تمر عليها وليس بينها وبين القبة الزرقاء فاصل أو حاجز بل من كان داخلها يسهل عليه أن يرى « السموات تنطق بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » فهي من كل وجه تليق برجل يريد العبادة الانفرادية ويرغب فيها . واتفق ان بولس وجد في هذا المكان آلات عجيبة الصنع وكثير من المعادن القديمة مرت عليها حقبات من الزمن وهي باقية هنالك لم تمسها يد بشر فاخذ يبحث وينقب عن أصل هذه المعادن وسبب وجودها هنا فعرف بما كان عليه من العلم والتربية وفرط الذكاء ان هذا الموضع كان يستعمل لصك النقود الزائفة التي كان يشتغل فيها المزيفون في عهد الملكة كليوبترا الشهيرة . وأهم شيء سر له صاحبنا هذا ان نخلة برزت من جوف الارض ونمت في هذه الخلوة وكان يجري تحتها ينبوع صغير من ماء كالزلال الذي لم يبق له أثر الآن كانما قد غار في الرمال وانطفى خبره . ففي هذه العزلة المار وصفها اقام بولس الناسك وقضى في زهده بتوليته مدة تسعين سنه على ما يقال فاذا صح ذلك فيكون مات وعمره ١١٢ سنه لان عمره كان ٢٢ عاما لما فارق أهله وذويه وعكف على النسك . وليس في هذه العبارة ما يدعو للعجب والاستغراب بالنسبة لطول حياة بولس الناسك

فان الباحث المدقق يعرف ان كثيرين من النساك المصريين عمروا طويلا . اما بولس فكان يقتات في بادىء أمره ببلح تلك النخلة ويشرب من ماء النبع الذي ينساب تحتها ولكن بعد قليل بلغ خبره مسامع أهالي البلاد القريبة منه وعلموا بما جبلوا عليه من البساطة والسذاجة ان رجلا صالحاً تقياً جاء وقطن على مقربة منهم ولذلك وفدوا اليه زرافات ووحداناً ومعهم هدايا من خضار وخبز وكانوا يستشيرونه في أمورهم ويهتدون بهديه في حل معضلات أعمالهم فكان ينصحهم في الامور الدنيوية كما انه كان يعظهم ويبشرهم بالديانة المسيحية فذاع صيته في الآفاق وسمع به كل مصري حتى ان انطونيوس جاءه قبل موته بقليل ليزوده النظرة الاخيرة ويقبل دعواته الطيبات وظل مقيما معه الى أن مات فواراه لحده (١)

وفي الوقت الذي فيه نبذ بولس العالم وعمد الى الزهد كان مئات غيره في جميع البلاد المصرية تركوا كل شيء واتبعوا المسيح بطريق التنسك والاعتزال في الصحاري والقفار ولكن قلما يعرف شيء عنهم . أما اضطهاد ديشيوس الذي طال واستطر قد انتهى الآن وجاء وقت الفرج بعد ضيق شديد وذلك انه في ١ اكتوبر سنة ٢٥١ ب . م قتل ديشيوس هذا في غارة شنها عليه سكان شمالي أوربا الذين بدأوا

١ - في كتاب العلامة كنجسلي عن « النساك » نجد شرحاً وافياً عن تاريخ حياة بولس الناسك وكيفية موته

يغيرون على المملكة الرومانية في سنة ٢٥٠ وبعد موت هذا الامبراطور خلفه غالوس الذي أوقف سريان الاضطهاد . وقد كتب البطريرك ديونيسيوس كتابا بعد هذا الوقت بقليل الى اسطفانوس أسقف رومية الجديد يثني فيه عاطر الثناء على الكنيسة التي وضعت حداً للشقاق الذي أوجده نوفاتوس في الوقت الذي فيه كف الاضطهاد عنها

وممن وقعوا تحت طائلة اضطهاد ديسيوس القديس مركوريوس المعروف « بابي سيفين » وقد استشهد بعد عذاب طويل . هذا القديس له عند المصريين منزلة علياء فهم يجلونه ويحترمونه ولذا تجدهم قد لفقوا عنه أقاصيص وخرافات لا طائل تحتها وبالغوا في أمره حتى قالوا انه هبط من السماء لقتل يوليانوس المترفض ويؤكدون لك صحة هذه الخرافة تأكيد من شهد الشيء بعينه واذا راجعت كتاب مستر بتلر الانكليزي عن « الكنائس القبطية » تجد في الجزء الثاني منه روايتين من الروايات التي يتناقلها المصريون عن أبي سيفين هما من الغرابة بمكان

أما أوريجانوس فقد أفرج عنه عند موت ديسيوس ولكن هذا الافراج لم يغنه شيئاً بعد أن ذاق عذابات الاضطهاد ومصائب السجون فلم يعش بعد ذلك سوى سنة واحدة ومات في مدينة صور وله من العمر تسع وستين سنة ودفن في المكان الذي مات فيه وظل قبره معروفاً يحج اليه الزوار الى أن جر الخراب أذياله على هذه المدينة ولاشاها من الوجود . وقد بنيت كنيسة عظيمة فوق ضريحه كان يزورها

كثيرون من السياح والرواد وبقيت على عظمتها وأهميتها الى منتصف القرن السادس عشر اذ زال المكان الذي دفن فيه أوريجانوس ولم يبق له ذكر سوى في بطون الروايات والتواريخ . ولو ذهبت الآن الى صور وسألت أهاليها عن ضريح أوريجانوس لاشاروا لك الى اطلال كنيسة قديمة بنيت اكواخهم الآن عليها وقالوا لك ان جسد أورينوس — وهو أوريجانوس عندهم — مدفون في قبو من قباب تلك الكنيسة هو الآن تحت الارض

والذي يتصدى لنقد تأليف هذا الرجل العظيم الذي يعد من مشاهير المصريين في تاريخ كهذا قد تداولته الايدي — لا يكون مصيباً في نقده بل قد يشذ عن الحقيقة ويبتعد عنها خصوصاً وان كتبه التي الفها تفوق الحصر والعد حتى ان ابيفانوس نقل عن بعض التقارير المنسوبة في ذلك العهد ان اوريجانوس الف نحو ستة آلاف كتاب ونبذة وغير ذلك وهذا قول لا يخلو من المبالغة والغلو اوهو غلطة من الناسخ الذي كتب ٦٠٠٠ بدل ٦٠٠ بزيادة نقطة لا تقدم ولا تأخر في الكتابة ولكنها تفيد معنى اكبر واوسع في القراءة والفهم . وعلى اي حال فان الستمائة كتاب يؤلفها رجل واحد كان يشتغل باعمال كثيرة ليس مما يستخف به بل هو عدد وافر قد لا يأتيه الكثيرون من ذوي العقول الواسعة . ولم يبق من هذه الكتب الكثيرة سوى بعضها واكثر هذا البعض ناقص ضاع اهمه ولكن الكتب الكاملة انما هي عبارة عن شرح مسهب لاكثر اسفار العهدين القديم والجديد

وردود مفحمة على شلسوس وغيره من الهراطقة الذين جادلهم مشافهة وكتابة وبين هذه الكتب الموجودة رسائل تحتوي على مواعظ وخطابات وانذارات وابحاث عديدة في كل موضوع اهمها واشهرها نبذة له عنوانها « المبادي الاساسية » كتبها في الاسكندرية وعمره اذ ذاك ٣٥ سنة ثم « ترجمة التوراة الى ست لغات » وقد سبق القول عنها « والرد على شلوس المبتدع » « وكيفية الصلاة وفائدتها »

ومع ان تاريخ قرطجنة لا علاقة له بتاريخنا هذا ولكننا لا نرى مندوحة من ذكر لمحة منه بها يظهر الفرق بين الكنيستين العظيمتين في افريقيا هما كنيسة مصر وكنيسة قرطجنة وفيها تتضح صفات اعاظم الرجال الذين نبغوا منهما في ذلك العهد . فلنأخذ اثنين من كنيسة قرطجنة واثنين من كنيسة مصر مثالاً على ما سيأتي . فمن الاولى طرطوليانوس وهو رجل عمر طويلاً ومات في مدة الامبراطور ديشيوس ثم كبريانوس كان في ذلك الحين قد بلغ شأواً يذكر من السلطة وطيب السمعة . فاذا انت قرأت ما كتبه ذانك الرجلان وقابلت كتاباتهما مع ما سطره اكليمنضس واوريجانوس تعجب كثيراً وتسأل عما اذا كان هؤلاء الاربعة رجال قد نبغوا في وقت واحد ويعتقدون اعتقاداً واحد . وكان يمكن ان الكنيستين تكونان على نظام واحد خصوصاً وانهما زرعتا في ارض واحدة بيد رجل واحد وترعرعتا تحت سماء واحدة ولكن الفرق وجد من ان كنيسة

الاسكندرية كانت مصرية النسبة والاصل يونانية اللغة واما كنيسة قرطجنة فكانت فينيقية النسبة والاصل ولاتينية اللغة

والذي يجهد نفسه للوقوف على كنه الكنيستين الافريقيتين يأخذه العجب والاندهاش عند ما يرى الاختلاف العظيم بينهما في السجايا والتعاليم . ولو ان هاتين الكنيستين تمسكتا بتعاليم الديانة المسيحية الجوهرية واعترفتا برب واحد واله واحد الا ان هذه التعاليم كانت مثل القمر يظهر نصفه منيراً لجزء من العالم بينما النصف الآخر المظلم الذي يبعد عن الشمس يكون ظاهراً للجزء الآخر من سكان الكرة الارضية ولكنه مظلم . فعلى هذا القياس كان قانون الايمان المسيحي يظهر امام الكنيسة المصرية كنور لامع وضوء ساطع ويتجلى امام اعين كنيسة قرطجنة ككتلة من الاسرار المبهمة والرموز الغامضة التي لا يحدها العقل ولا يتصورها الادراك . واذا سألت طرطوليانوس واوريجانوس واوغسطينوس عن قواعد الدين المسيحي لاجابوك جميعهم جواباً واحداً ولاتفقوا معاً في جوهره ونصه ولكنهم يختلفون (أي المصريون والقرطجنيون) اختلافاً كبيراً في عمله وتأثيره في قلوبهم واخلاقهم اذ ترى القرطجني مثلاً يسلك الطريق المسيحي من غير الوجهة التي يسلك فيها المصري ولعل سبب هذا الاختلاف والتباين في سلوك الكنيستين اختلافهما في ديانتيهما الوثنيتين القديمتين اللتين ظل تأثيرهما فيهما حتى بعد اعتناقهما الدين المسيحي . فاذا

بحثت مثلا في ديانة القرطجنيين القديمة وجدتها ديانة مركبة من عقائد صارمة وعوائد قاسية تقضي بتقديم الذبائح البشرية وتحتم على المتمسكين بها وجوب الانتقام من المسيء ولو طال عليه المطال ومرت عليه الايام والليال وهي عادات او فرائض كان القوم يفتخرون بها ويتباهون بانفاذها فلما دخل القرطجنيون داخل حظيرة المسيح ولبسوا ثوب الديانة المسيحية القشيب ضعفت فيهم روح القسوة وحب الانتقام ولكنها لم تنزع تماما بل ظل اثرها موجوداً في صدورهم كما تشاهد اثر الشمس في الافق عند المغيب ولذلك كان طرطوليانوس مثلا يعتقد ان الله هو اله يسر بعذاب مخلوقاته التي تشذ عن طاعته ويفرح بالانتقام من الذين يخالفون ويحيدون عن طريقه السوي وانه يفتقد ذنوب الاباء في الابناء ويدخر العقاب من جيل الى جيل . ولما كان الطبع البشري يميل من عادته الى مثل هذه المبادىء ويود لو ان يصرح للانسان ان ينتقم ويقاص كل من يغيظه ويغضبه عم هذا الروح كل الكنيسة الغربية التي سارت على تعاليم اوغسطينوس من حيث تشديد العقاب على كل من اساء ولو اساءة صغيرة وتشهير كل من اقترف ذنباً . وهو تعليم صارم جرت عليه الكنيسة الغربية نقلا عن كنيسة قرطجنة بينما رفضت تعاليم اوريجانوس التي تأمر بالمحبة والتساهل والمسامحة وغض الطرف عن الهفوات والذنوب وتجاهلت تواضعه ودماثة اخلاقه ولم تكتف بذلك بل حكمت عليه بالهرطقة والابتداع ولا ذنب له يستوجب ذلك الحكم الا ان يكون علو افكاره

وغزارة مادته وتبحره في العلوم والمعارف التي كانت تسر بها نفسه ويصبو اليها قلبه . والنتيجة ان الكنيسة الغربية استصوبت تعاليم اوغسطينوس الصارمة وحسبته ضمن اعمدة الكنيسة بينما خطاءت روح اوريجانوس الحية وشجبته شجباً ولا عجب في ذلك ولا غرابة ما دام الانسان يميل الى ما يوافق طبيعته المنحطة وافكاره الساقطة

فكنيسة قرطجنة التي مر بك وصفها قد زالت من الارض واختفى منها العين والاثر واما الكنيسة المصرية فلم تزل باقية لليوم ولم تختلف شيء عن الكنيسة الاصلية بل هي رسم جوهرها وصورة مجدها. وقد وصفها احد العلماء العصريين — هو مستر بتلر الانكليزي — المشهور بميله الى الكنيسة القبطية وحبه لها فقال ان نظام هذه الكنيسة يمتاز عن نظام الكنائس الاخرى شرفا ورفعة لتجرده من كل ما يشين ويهين وانها اسمى الكنائس ولو انها وصلت الآن الى درجة من الانحطاط يأسف عليها محبوها. والذي يرفع الكنيسة القبطية في اعين العقلاء هو انها قاست من الاضطهادات المريعة ما يكفي لاضمحلال الممالك وعانت من العذابات والمشقات ما لم يقع لاي كنيسة اخرى في العالم ولكنها لم تزل حية نامية وقد ساعدها على الحياة الطويلة هذه روح الرجاء والامل اللذين نشأ معها وثقتها الوطيدة في مخلصها وفاديها . واذا انت طفت الكنائس المصرية ودخلت افقر واحقر كنيسة من الكنائس القبطية لرأيت علامات الرجاء والامل تبدو على جدرانها وقلما

شاهدت فيها صورة تشير الى جهنم او عذاب مقبل بل قلما وجدت فيها تمثال جمجمة باهتة ولا هيكل عظام عار مما يشير الى آلام وسقام ولكن ترى شهداءها تبتسم تماثيلهم المرسومة على الجدران كأن ما قاسوه من العذابات والاضطهادات لم يكن شيئاً يذكر بل اصبح نسياً منسياً وهناك تشاهد القديسين الابطال مصورين بشكل يدل على انهم قتلوا ثعباناً او احد رؤساء هذا العالم الشرير دون ان يجدوا في قتله عناء يذكر اما آلامهم واوجاعهم فليس لها اثر في ذلك الرسم كما لا تجد صورة تمثل الخاطيء بعد موته مما تشمئز منه النفس وتنكمش لمرآه الروح. فهؤلاء الاتقياء الابرار الذين اسسوا الكنيسة القبطية بدمائهم كانوا يطرحون انفسهم بين يدي الله وهم مسرورون فرحون كما انهم كانوا يطلبون رحمة منه على الذين كانوا يضطهدونهم ويذيقونهم الخسف والجور »

الفصل التاسع

اضطهاد فاريان للمسيحيين . سنة ٢٥٤ ب . م

بعد موت ديشيوس تزاحم القوم وتعاركوا كعادتهم للحصول على الملك وانتهى الامر اخيراً بارتقاء غالوس العرش الملوكي وظل قابضاً على صولجانه مدة سنتين ثم استلمه ابنه ايمليانوس الذي نادى بنفسه امبراطوراً وبقي مقيماً بضعة شهور في مقاطعة بانونيا . ففي هذه المدة خفت وطأة الاضطهاد عن المسيحيين ولكن داء الدفتيريا (الخانوق) الذي اشار اليه

ديونيشيوس في جواب يلي كان قد انتشر في البلاد ربما قبل حكم غالوس وبعده

وفي شهر يوليو سنة ٢٥٤ ب ٠ م نودي بفاليريان امبراطوراً على المملكة الرومانية وهو رجل من سلالة عائلة رومانية طائرة الصيت كان قد تقلب في اهم مناصب الحكومة ورتبها وبعد ان استتب له الامر اشرك معه ابنه غالينوس في ادارة شؤون المملكة . وقد رأيت فيما مر بك ان الامبراطرة الرومانيين كانوا يتعاقبون بسرعة على الكرسي الامبراطوري ولم تطل مدة احكامهم بل كانو يمرون على العرش مر السحاب في الصيف ويظهر ان داء التغيير السريع والابدال المتوالى عم اساقفة رومية ايضاً فساووا امبراطرتهم في كثرة التغيير والتعاقب فانه منذ عهد تعيين ديونيشيوس بطريركاً للكنيسة المصرية تعين في رومية من الاساقفة فابيان وكرنيليوس ولوشيوس واسطفانوس ثم اكسيستوس الذي كتب له ديونيشيوس في ذلك العهد كتاباً بشأن رجل عمدة الهراطقة المشار اليهم هم من اتباع نوفاموتوس اسقف رومية الغير القانوني الذي كان يعلم بعدم وجود مغفرة للخطايا التي يرتكبها الانسان بعد عماده وهو تعليم أثر تأثيراً سيء العواقب في انه جعل الكثيرين يؤجلون عمادهم الى ساعة احتضارهم كما فعل الامبراطور قسطنطين . وقد سار فاليريان على الخطة التي سار عليها اكثر الامبراطرة الرومانيين في انه اظهر ميلاً وانعطافاً نحو المسيحيين في اوائل حكمه وكان قصره

منتدي يؤمه المسيحيون وكثيرون منهم استخدموا عنده . الا انه كان مغرماً كثيراً بحكمة المصريين القدماء وعلومهم يحب المتضلعين منهم بهذه العلوم حتى انه اتخذ احد المصريين واسمه مكريانوس الحاكم القضائى مشيراً له وكان يثق به تمام الثقة وكان البطريرك ديونيشيوس يلقب مكريانوس هذا « استاذ السحرة المصريين ورئيسهم الاعظم » وربما كان يقصد بذلك ما لمكريانوس من التأثير الشديد في عقل الامبراطور كما كان يؤثر كهنة المصريين القدماء في اذهان الملوك ويقتادونهم وراءهم. وعلى اي حال فان مكريانوس كان متمسكا اشد التمسك بديانة اجداده القدماء ولذلك كان لا ينفك يلح على مولاه الامبراطور ليقنعه بان المصائب التي تحيق بالمملكة سببها تغاضي الآلهة الحقيقيين « يقصد بهم آلهة المصريين القدماء » عن المملكة واهمالهم شأنها والترخيص للناس بان يعتقدوا بخرافة لا اساس لها وهي صلب ذلك النجار « اعني به يسوع المسيح » . وقد صادف قول هـذا الرجل قبولا خصوصاً وان المملكة كانت في ذلك الحين واقعة في اشد المصائب ومحاطة باقوى الملمات لدرجة لم يسبق لها مثيل اذ اكتنفها البرابرة وسكان شمالي اوروبا والجرمانيون والفرنساويون والبورغنديون والفرس من كل ناحية وانهاروا على المقاطعات الرومانية كالسيل الجارف وكانوا يعيثون في الارض فساداً ويهلكون الزرع والضرع في كل بلدة وطئتها اقدامهم وصاروا يجرفون في طريقهم مدينة بعد اخرى مبتدئين من طاراقونا في اسبانيا

الى انطاكية في سوريا . ومما زاد الطين بلة ان الدفتيريا التى بداءت قبل موت ديشيوس زاد انتشارها وعم بلاؤها خصوصاً في بر مصر حيث بقيت خمس عشرة سنة تفعل في الناس فعل الصارم البتار . وقد القى البطريرك ديونيشيوس تبعة تجديد الاضطهاد على عاتق مكريانوس وعزى اليه سبب كل شر وقع على المسيحيين وهو امر لا يستوجب الريب لان مكريانوس عدو لدود لديونيشيوس ورعيته دينيا وقد عرفنا انه ملاء قلب الامبراطور بغضا وحقداً على المسيحيين اخوته في الوطنية الذين لم يتكلم عنهم كلمة واحدة توجب الشفقة والحنان

وقد علمت فيما مضى ان جرمانوس احد اساقفة الاقاليم المصرية كان قد ارسل الى بطريركية ديونيشيوس يلومه لانه هرب في ايام الاضطهاد الذي احدثه ديشيوس وقد عاد جرمانوس فارسل جواباً الى ديونيشيوس ايضاً يعنفه فيه لانه امر بابطال الاجتماعات الجمهورية في الكنيسة فردعليه ديونيشيوس بكتاب يصف له فيه كيفية القاء القبض عليه واحضاره مع قومه امام الوالى واعترافهم جميعاً بايمانهم وكيف انهم ارسلوا اسرى ليسجنوا في مكان اسمه سيفرد شمالي القطر المصري . قال ديونيشيوس : —

« ولما حللنا سيفرد التف حولنا جم غفير من الاخوة الذين جاؤا معنا من الاسكندرية ومن الذين وفدوا الينا من مصر بعد وصولنا الى هنا وهكذا مهد الله سبيلا لكلمته في هذه الجهة كما في كل الاماكن الاخرى . صحيح ان اعداءنا في بادىء الامر اضطهدونا ورشقونا بالاحجار ولكن اخيراً ترك كثيرون

من الوثنيين اصنامهم ونبذوها ظهرياً واقبلوا الى الله بقلوبهم لان كلمته غرست في افئدتهم كما يغرس البذار في ارض ذات زرع وكانوا لم يسمعوا عنها من ذي قبل. وكان الله جل وعلا اراد ان يأتي بنا الى هذا المنفى لنذيع بشرى الخلاص فيه فلما تم ذلك وافلحنا شاءت مشيئته ان ننقل الى مكان آخر لهذه الغاية عينها وذلك ان ايمليانوس ابن الامبراطور غالوس قصد ان ينقلنا الى اماكن اشد ضرراً واكثر تعباً مشحونة بالمخاوف والمخاطر ثم امر سكان اقليم مريوط ان يلتئموا في مكان واحد خصصه لهم وعين لهم قرى معروفة يقيمون فيها فيما بعد اما نحن والذين تبعونا فاوصى بان نبقى مطروحين في الطريق بلا مأوى ولا ملجاء لانه لم يكن يشك في اننا اناس لا نركن للفرار ولا نميل للهرب بل وثق انه متى اراد يسهل عليه القبض علينا بدون مشقة. ولا اخفي عنك انه عند ما صدر اليّ الامر بالارتحال الى سيفرد هذه لم اكن اعلم الى اين اسير ولا اعرف شيئاً عن المكان الذي انفى اليه بل كنت بالكاد اعرف اسمه من قبل ولكني كنت فرحاً جذلا لعلمي ان هكذا كانت ارادة الله الا انه لما امروني بالانتقال الى مكان اسمه كولوثيوس تأثرت تأثيراً شهده الحاضرون لانني علمت بان هذا المكان سيكون كسجن لي لاستطيع فيه ان اتمم العمل المطلوب مني ولذلك تضايقت اولاً لهذا الخبر وثقل سماعه على اذني مع انني كنت عالماً بهذا الاقليم واكثر خبرة به من غيري ولكن قيل لي انه خال من الاخوة المسيحيين وليس فيه احد من افاضل الرجال الذين تلتذ النفس لمعاشرتهم فضلا عن انه عرضة لوقاحة المسافرين ورذائلهم ومكمن للصوص وقطاع الطرق الا ان بعض الاخوة واسوني اذ اخبروني انه قريب من مدينة الاسكندرية. ومما يسر القلب ان سيفرد التي نفينا اليها جمعتنا بكثيرين من الاخوة المسيحيين الذين لم نكن لنراهم لولاها وبواسطة اجتماعنا وارتباطنا تمكنا من نشر كلمة الله واذاعة خبر الخلاص بطريقة لم نكن لنحصل عليها لولا هذا المنفى. واذ كانت الاسكندرية قريبة من المكان الذي كنا نقيم فيه تمتعنا كثيراً بمشاهدة الذين نحبهم ونميل اليهم وقد كانوا يجيئون لزيارتنا دائماً ويمكثون معنا طويلا ولذلك كنا نعمل جمعية عظيمة كانت تلتئم في اقصى مكان من الاسكندرية ولم تزل هذه الجمعيات توالي انعقادها لسماع كلمة الله حتى بعد ان تركناها ورجعنا الى مدينتنا.

قال يوسيبوس ان بين القسوس والشمامسة الذين اشار اليهم ديونيشيوس في جوابه المار ذكره قس اسمه فوسطس استشهد في الاضطهاد الذي اوجده ديوكلتيان كما سيجيء وكان قد بلغ من الكبر عتياً . ومن الذين ذكرهم ديونيشيوس في جوابه مكسيموس الذي عين بطريكاً بعده ويوساب الذي سيم فيما بعد اسقفاً للادوكية ومما رواه ديونيشيوس انه بعد ان آب من منفاه الى الاسكندرية لم يجد من شمامسة الكنيسة سوى ثلاثة فقط مع انه ترك عدداً وافراً منهم ظلوا مختبئين في مكانهم وكانوا ينتهزون الفرص ليعظوا الاخوة ويبشروهم ولكنهم ماتوا جميعهم بداء الدفتيريا ولم يبق الا اولئك الثلاثة المذكورين وهم فوسطس ويوساب وكويرمولى

وقد استمر اضطهاد فاليريان للمسيحيين مدة ٤٢ شهراً وانتهى في سنة ٢٦٠ب . م اذ وقع هذا الامبراطور في ايدي الفرس حياً وظل في اسرهم الى ان مات وكان قد خلفه ابنه غالينوس الذي عقد محالفة مع اودينانوس ملك تدمر (بالميرا) واتخذه له صديقاً في الشرق الادنى وفوض اليه الدفاع عن حدود المملكة وصد هجمات الفرس عنها . وكان من اعمال غالينوس ايضاً انه ابطل الاضطهاد حتى تسنى للبطريرك دنيشيوس ان ساح في القطر المصري سياحة طويلة افتقد فيها رعيته التي كادت تتفرق ايدي سبا من اهوال الاضطهادات كما انه دشن كنائس ورسم خداماً لها حسبما دعت الحاجة الى ذلك وبذل

جهده في تعزية شعبه ومواساته في مصائبه كما هو الواجب المحتم على كل راع صالح ولما وصل في سياحته الى ابروشيته ارسينو في (الفيوم) وجد فيها شقاقاً ما كاد يبتدىء حتى استفحل أمره وخيف من نتيجته واتماماً للفائدة نأتي على وصف هذا الشقاق واسبابه وكيفية تصرف هذا البطريرك لازالته فنقول

كان في هذه الابروشية قبل ذهاب البطريرك اليها اسقف اسمه نيبوس اشتهر بالعلم والفضل وسمو المدارك حتى ان شعبه كان يثق به ثقة الاعمى بدليله وينقاد اليه انقياد الخراف لراعيها. هذا الاسقف اخذ يعلم رعيته تعليماً جديداً وهو قرب الزمن الذي يملك فيه المسيح الف سنة على الارض كملك ارضي يأتي بنفسه ويتولى الملك بذاته وقد فسر لهم كل ما ورد عن هذ الموضوع في سفر الرؤيا تفسيراً حرفياً والف كتاباً اعترض فيه على الذين يذهبون الى ان ما جاء في هذا السفر هو مجاز محض ثم اجتهد كثيراً في اثناء حياته باقناع شعبه بقبول هذا التعليم فقبلوه على علاته دون فحص او استقصاء عما يعتقد به باقي اخوتهم المسيحيين في المسكونة . وحدث بعد موته ان اشتدت بينهم المجادلات والمباحثات في هذا الموضوع واخيراً انشق منهم جماعة اتخذت رجلا اسمه كراسيون زعيماً لها . وكان لحسن الحظ ان شعب الابروشية باكمله اتفق على رأي واحد هو استئناف الحكم في هذه المسألة للبطريرك حال وصوله اليهم لاعتقادهم بكفاءته على حل المعضلات وفض المشاكل . فلما جاء

(ديونيشيوس عندهم اجتمع حوله القوم فقابلهم بكل بشاشة وايناس بدون تمييز احدهم عن الاخر ودعا اليه كهنة وشمامسة الابروشية وبعض علماء العلمانيين الذين انتخبهم لهذا الغرض واقترح عليهم البحث والمناقشة في هذا الموضوع ولكن بروح الاخلاص والمحبة وان تقراء على مسامعهم النبذة التي كتبها نيبوس في هذا الصدد بصوت عال ثم يفحصونها وينقبون فيها الى ان يتوصلوا لرأي سديد يقر قرارهم عليه ويكون القول الفصل في هذا المشكل فينتهي الامر على تمام الصفاء والوئام . فرضي الشعب بهذا الرأي الثاقب وظلوا ثلاثة ايام متوالية يلتئمون من الصباح الى المساء حول البطريرك الذي كان جالساً في وسطهم — كما ترى في ايامنا هذه بعض المشائخ يجلسون في حوش الجامع الازهر وحولهم المجاورون يتكأكأون عليهم كتكأكؤهم على ذي جنة يسألونهم ويستفسرون منهم ولكن الفرق بين هؤلاء واولئك ظاهر كالصبح — وكانت نتيجة هذا الاجتماع ما ستقراءه في الرسالة الآتية التي كتبها ديونيشيوس نفسه وهي

« انه ليسرني جداً ان اعلن على رؤوس الاشهاد ما شاهدته في هؤلاء الاخوة من الثبات والاخلاص والمحبة والذكاء عند ما بداءنا بالبحث في هذا المعضل وكيف انهم تبادلوا الاراء وتناقشوا في الاسئلة والابحاث بروح الاعتدال والهدو اذ تجنبنا بقدر الامكان الاصرار على صحة الارفكار التي تتفق معنا ولو ثبتت صحتها قبل ان نمحصها جيداً ونمتحنها كثيراً كما اننا لم نصرف جهدنا في المعارضات والمباحكات بل سعينا جهد استطاعتنا في ان لا نشذ عن الموضوع الذي نتناقش فيه ولا ان نتركه الى غيره قبل ان نبت فيه حكماً نهائياً . ومن احسن ما يقال في

هذا الشأن انه اذا عرض لاحدنا ان يغير فكره في ما يعتقده وشعر بخطائه لا يخجل في اعلان ذلك والعدول عنه الى طريق الصواب بقوة الحجة ومتانة البرهان باخلاص وطهارة قلب ما دامت غايتنا الاقتناع بما ورد في كتاب الله الطاهر والتسلم بتعاليمه المقدسة. وكانت النتيجة ان كوراسيون ـ مبدع هذا التعليم وزعيمه ـ اعترف امام جميع الاخوة جهاراً بخطائه وعقد النية على مسمع منا جميعاً بان لا يعود يتمسك بهذا التعليم ولا يتباحث فيه مع احد ولا يفوه ببنت شفة فيما يتعلق به وذلك بعد ان اقتنع تمام الاقتناع بفساد آرائه وصحة آراء الذين يذهبون غير مذهبه وقد سر جميع الحاضرين لنتيجة هذا المؤتمر الروحي وانثنوا يثنون ويشكرون ما شاهدوه في بعضهم من الميل الى السلام والابتعاد عن كل ما يوجب الشقاق والخصام .

ولم يكتف ديونيشيوس بذلك بل خطر على باله فيما بعد ان يدحض هذه الافكار كتابة فالف فذلكة دعاها « المواعيد الآلهة » نقتطف منها ما يأتي : ـ

« لقد تمسك البعض بما كتبه نيبوس وجعلوا له اهمية عظمى كأن ذلك الرأي من الحقائق الثابتة التي لا يمكن دحضها حيث اكد لهم ان المسيح سوف يملك ملكا ارضياً هذه هي المسألة التي اختلف فيها مع نيبوس وانقضها نقضاً واما في ما عدا ذلك فانني واياه على مبداء واحد كما انني اقول صراحة انني احبه حباً متيناً لا تؤثر فيه المناقشات ولا يزعزعه اختلاف في الرأي ولا انكر انني اقدر هذا الرجل حق قدره لقوة ايمانه وتقواه وتضلعه في الكتاب المقدس ولانه انسان شديد الذكاء حازم الفكر حتى انه وجه التفاته مرة الى تلحين المزامير للترتيل فافاد الكثيرين بهذا العمل الجليل واثار اذهانهم . وما زلت احترم هذا الرجل واجله لانه مات موت الاتقياء العالمين وفارق هذه الدار الفانية دون ان يرهبه الموت او يخشى ظلمة الرمس والنتيجة انه يجب على كل عاقل ان يحبه ويفضله على كثيرين غيره . اذاً فردي عليه وبحثي فيما كتبه ودحضي لافكاره لا يعتبر عملا عدائياً له لانه اذا تحتم علينا ان نقبل الحقيقة ولو كانت صادرة من اعدائنا ونجاهر باستحساننا للصدق

ولو كان من اقل الناس واضعفهم كذلك يجب تقويض اركان كل قول لم يبن على اساس متين وتدقيه كل رأي لم يؤسس على المبادىء الصحيحة والتعاليم الحقة ولو صدر هذا القول من اعز الناس لدينا واكبرهم مقاماً عندنا . ولو كان نيبوس حياً لما اقدمت على الرد على افكاره كتابة بل لاكتفيت بالبحث الشفاهي معه حتى افحمه بقوة البرهان واستميله مع انصاره لجانب الحق بواسطة اللسان فقط ولكن حيث ان تعاليمه هذه نشرت مكتوبة ومال الناس لتصديقها والاقتناع بصحتها كما انه من الجهة الاخرى يوجد بعض معلمين يذهبون الى ان الناموس والانبياء لا قيمة لهم ثم تدرجوا بعد ذلك الى نبذ الانجيل والازدراء برسائل الرسل واذاعوا ان تعاليم نيبوس هذه انما هي سر غامض لا يتسنى لاحد حله مع ما فيه من الاهمية وهم يجهلون كل ذلك ولا يفهمون شيئاً عن الحقائق المسيحية ولا يدركون معنى ظهور مخلصنا الثاني ظهوراً الهياً مجيداً ولا يفهمون كيف اننا نقوم في يوم القيامة اذ نتغير من شكلنا الحاضر ونلبس صورة الله حيث نلتقي معه في السحب عند ظهوره ليدين الاحياء والاموات الامر الذي لا يدركه اولئك المتفلسفين زورا بل هم يعتقدون بملك ارضي زائل لا نتيجة له ولا فائدة منه ولا هو من التعاليم التي تؤمن بها الكنيسة — فلاجل هذه الاسباب جميعها الجأتني الضرورة ان اناقش اخينا نيبوس كما لو كان حياً وارد عليه كتابة حتى لازيل ما علق بالاذهان من تعاليم تافهة وخرافات مضلة لا ثمرة منها .

ولم يقتصر البطريرك ديونيسيوس في كتابه السالف ذكره على الرد على نيبوس بل افاض في البحث في سفر الرؤيا بحثاً دقيقاً وابان الخطاء الكبير في فهم هذا السفر بمعناه الحرفي وقال انه عبارة عن رموز ونبوات تتم بعضها وسوف يتم البعض الآخر ثم أورد البراهين والادلة على ان كاتب هذا السفر ليس يوحنا الرسول ولكنه قال صريحاً ان الذي كتبه هو شخص اسمه يوحنا ولا ينكر انه سفر موحي به من الله وان الذي

سطره هو رجل أوحي اليه من الروح القدس . ثم قال انه يبعد ان يكون كاتب انجيل يوحنا هو ذاته الذي كتب سفر الرؤيا الا انه استدرك وقال « اما انا فلا يمكني ان ابدي رأياً خصوصياً عن هذا السفر كأن يكون منع قرائته والتحريض على عدم البحث فيه ما دام اكثر الاخوة المسيحيين يجلونه كثيراً ويميلون لمطالعته وفهم رموزه ميلا ظاهراً »

فما تقدم يتضح للقاريء الخطة التي سار عليها البطريرك ديونيشيوس في الانتقاد والروح الذي استعمله في تفنيد الاراء المغايرة للتعاليم المسيحية وذلك انه كان يفعم كلامه بالحجة والبرهان شأن الباحث المدقق والمصلح الحقيقي لا بالمهاترة والبهتان وهو دأب قليل البضاعة ضعيف القوى العقلية الذي يفاخر ويهاتر بكلام مبرقش لا فائدة منه لمن يريد الفائدة ولا حجة فيه لمن يهمه البرهان . الا ان ديونيشيوس لم يكن لديه من مشاغل وظيفته وقت يساعده على الايغال في هذه المؤلفات والردود بل ان رسائله الرعوية التي كان يبعث بها للاساقفة والكهنة والشمامسة واعظاً وحاثاً على العمل في كرم الرب لم تدع له فرصة للاشتغال بغيرها بل كان بالكاد يكتبها ويرسلها اذا ساعدته الظروف على ارسالها في هاتيك الايام الصعبة التي كانت اذا خمدت نار الاضطهاد قليلا التهبت نار الحروب الاهلية طويلاً بين اولئك الاباطرة الذين كانوا يتخاصمون ويتحاقرون على العرش الروماني حتى ان الامن والسلم لم يكن لهما سبيلا في هذه البلاد ففي هذا الحين وضع مكريانيوس المصري الوثني التاج الملوكي على رأسه

وسعى ليضع كل المملكة تحت سلطته ويضمها تحت لوائه . الا انه كان من الصعب على مصر التي اصبحت الآن مسيحية ان تقبل هذا الرجل حاكماً عليها ولو انه من لحمها ودمها ولكنه اظهر عداوة مرة لابنائها المسيحيين وناصبهم الشر والعدوان من قبل الآن . وقد شعر بذلك ايميليانوس الوالي فقام في وجه مكريانوس هذا وفي وجه غالينوس الذي كان يعيش في روميه عيشة مصرف خامل فانتحل ايميليانوس لنفسه اسم « اسكندر » وحكم مصر مدة قصيرة اظهر فيها كل انواع الشدة والعنف ولكنه جال يفتقد احوال البلاد وطرد منها البرابرة الذين جاؤها من الجنوب وارجعهم القهقرى الى السودان بشجاعة وسرعة لم يحلموا بهما من قبل . ثم انه ابطل الجزية التي كانت ترسل الى روميه فتفاءلت مصر خيراً باعادة استقلالها الذي فقدته من قديم . ولم يزهر غرس ايميليانوس حتى جاءه ثيودوتس قائد جيوش غالينوس وشن عليه الغارة في الاسكندريه قاصداً بذلك استخلاص المملكة الرومانية في يده فاسرع ايميليانوس وتحصن في حي بروخيوم حيث القصر الامبراطوري وحاصره تيودوتس حصاراً شديداً بعد ان استحوذ على ما بقي من المدينه . وفي ذلك الوقت كتب البطريرك ديونيشيوس كتاباً الى هيراكس أحد اساقفة مصر يصف فيه الحالة وصفاً دقيقاً حيث قال :—

« من الامور التي توجب العجب والاندهاش انه كثيراً ما قامت في وجهي صعوبات جمة فيما يختص بارسال رسائلي الى الانحاء النائية

بينما قد اصبحت الآن في مركز يحتم علي ان احتاط لنفسي من الغوائل واتدبر في امر به امنع الشر الذي يحدق بي في هذه الايام السوداء كما انني اشعر بضرورة قصوى في ان ارسل مكاتيب دينية ومواعظ وجوابات ودية الى اخوتي في الرب الذين احبهم كنفسي واعزهم كحدقة عيني الذين هم اعضاء الكنيسة واركانها ولكنني احترت في كيف ابعث بهذه الرسائل اليهم اذ انه يسهل على المرء ان يجوب البلاد من مشرقها الى مغربها ويطوف سهولها وفيافيها ولكن يشق عليه جداً ان يسير في احد شوارع الاسكندرية او ان يخطو خطوة فيها في هذه الايام التي اشتد فيها الحصار حتى اصبحت المدينة خربة وصار يعسر المرور فيها اكثر من خراب تلك الصحراء المقفرة التي سار فيها بنو اسرائيل وعبروها في مدة اربعين سنة بسهولة لا نشعر بها نحن الآن في الاسكندرية ومن الغريب ان البحر قام للاشتراك في هذه المصائب فانك ترى ميناء الاسكندرية التي كانت صقيلة كالمرآة والبحر ساكن هادىء واذا به الآن يعج ويهدر ويعلو وينخفض فاشبه بذلك البحر الاحمر الذي انقسم الى شطرين وقامت مياهه كالاسوار المنيعة على الجانبين الى ان عبر فيه شعب الله وتبعهم المصريون فاطبق عليهم وغرقوا في لجته وراحوا في غمراته . ولم يكن وجه الشبه بين بحرنا والبحر الاحمر انقسامهما وهديرهما فقط بل ان بحرنا اشبه هذا في اللون ايضاً وامست مياهه حمراء كالبقم لكثرة ما سال فيها من دماء المذبوحين الذين فارقوا حياتهم بالقرب منه حتى

ان النهر [١] الذي كانت امواجه تفيض وتكاد تغمر المدينة اصبح الان وهو انشف من صحراء محرقة وأقفر من القفر الذي عطش فيه بنو اسرائيل حتى اوشك ان يقتلهم الظماء عندما تزمروا على موسى فقام وضرب لهم الصخرة ففاضت منها المياه زلالا بقوة الله القوي الذي صنع العجائب والمعجزات في كل دور وجيل . فهذا النهر الناشف المقفر قد يفيض احياناً ويطفو على البلاد المجاورة له حتى يخل الناظر ان طوفان نوح الذي غمر العالم قديماً ووعد الله بعدم اتيانه ثانية قد عاد الآن وملأ الشوارع والحقول ولكن نهرنا هذا يفيض وقد اختلط ماؤه بدماء القتلى واشلاء الغرقى وجثثهم كما حدث قديماً في ايام فرعون عندما ضرب الله المصريين على يد موسى فحول نهرهم دماً احمر وانتن النهر ومات كل ما فيه من السمك . فاذا كانت الماء قد صارت كما وصفت لك من الفساد والقذارة فمن يطهرها وينظفها وهي واسطة التطهير والتنظيف وهل يستطيع هذا البحر المحيط العجاج ان يجرف في سبيله كل قذر اعترى هذا النهر الرائق الصافي الذي اصبح الان من المزاق ؟ وهل ينتظر ان ذلك النهر العظيم الذي كان ينبع من جنة عدن وينقسم الى اربع رؤوس منها نهر جيحون يزيل هذا الماء الملوث الذي تعافه النفس ؟ ثم متى يصبح هذا الهواء نقياً وذلك النسيم العليل بليلا وقد فسد وصار يخنق الناس ويضيق الانفاس لكثرة ما امتزج به من البخار الممتليء بالغازات السامة المميتة؟ فلقد

(١) ان المقصود بالنهر هو ترعة كانت متصلة بالاسكندرية اما نهر النيل نفسه فلم يكن يصب عندها في ذلك العهد

كثرت الروائح الفاسدة التي يستنشقها الانسان وثار الغبار الذي يعمي ويصم بواسطة الارياح والزوابع التي تهب من ناحية البحر وخيم الضباب فوق الماء واليابسة تحول نور النهار ظلاماً دامساً فصار يظن المرء ان جثث الموتى تتحرك سائرة معنا اونها تحللت الى ذرات دقيقة وامتزجت بكل شيء حولنا وان دماءهم تبخرت وامتزجت بالهواء ثم تكاثفت وسقطت علينا كالطل والنداء وعليه فلم يمض زمن حتى فني كثيرون من سكان هذه المدينة العظيمة (اي الاسكندرية) وصار الفناء يتدرج من الاطفال الرضع الى الشيوخ الذين وقفوا على حافة الابدية قبل الآن وعم القوي والضعيف فلم يبق ولم يذر . وقد ترى هؤلاء القساة العتاة يشاهدون الجنس الادمي يفنى ويضمحل وينظرون اخوانهم في الانسانية يمشي فيهم الهلاك تمشي النار في الهشيم لكثرة عوامل التدمير والخراب التي شيدتها ايديهم ولكن عواطفهم لاتحس ولا تشعر كأن قلوبهم قدت من صخر صلد»

وقد ورد ذكر هذا الحصار والدمار في الرسالة (١) التي كان يكتبها ديونيشيوس لتتلى في عيد الفصح كما كانت العادة في تلك الايام .

---

(١) ان رسالة عيد الفصح هذه كانت عبارة عن نبذة عمومية يصدرها بابا الاسكندرية قبل العيد بقليل وترسل لجميع الكنائس المسيحية عموماً والمصرية خصوصاً في اليوم الذي يقع فيه عيد القيامة من كل سنة . وكان لهذه الرسائل اهمية عظمى حتى عند غير المسيحيين لما تضمنته من الحساب الفلكي الدقيق الذي جرى عليه المصريون القدماء بالضبط ولذلك عهد بكتابتها الى بطريرك الكنيسة القبطية المصرية وحده لعلمه بهذا الحساب التاريخي علما تاماً . وكانت فاتحة هذه الرسائل موعظة بليغة تقرأ في الكنيسة جهاراً

اما تاريخ هذه الرسالة التي نحن بصددها فكان سنة ٢٦٤ ب.م وهاك مغزاها :—

ان الوقت الحاضر اصبح كغيره في الاوقات الغابرة اذ يعسر فيه على الكثيرين من المسيحيين ان يؤدوا فريضة عيد الفصح رسيان عندنا اوقات الحزن والغم وايام الفرح والسرور التي لا يكاد يراها احد ولو في المنام لكثرة توالي المصائب وتتابع النكبات حتى اصبح الانسان لا يقع نظره الا على عيون تدمع وقلوب تفجع ومآق تسيل على الخدود بدل الدمع السخين الذي تنشق له الاعين حزناً على اناس اتقياء كثيرين ماتوا ودرجوا الى العالم الباقي . واذا مررت الآن في المدينة لسمعت التنهدات والزفرات يكاد القلب يتفطر معها اسفاً على اقوام مشرفين على الهلاك ينظرون ابواب القبور مفتوحة امامهم تكاد تبتلعهم قبلما تفارق ارواحهم الاجساد حتى اصبحنا في زمن اشبه بالزمن الذي مات فيه كل بكر في ارض مصر على يد موسى فلم يخل بيت من البكاء والعويل لانه يوجد ميت على الاقل في كل منزل . وكنت اتمنى لو ان يكون هذا كل البلاء ويقف المصاب عند هذا الحد مع ما يسبقه من اهوال تشيب لها النواصي وتصطك منها الركب بل زادوا في انهم طردونا طرداً واقصونا الى اماكن بعيدة ثم اخذوا يضطهدوننا حتى اماتوا اكثرنا ومع ذلك فلا نزال نعيد العيد بكل احتفاء واحتفال . وكلما كان اضطهادنا شديداً كلما كان عيدنا بهياً بهيجاً . وكان المكان الذي نذوق فيه اشد العذابات لابد

وان نقيم فيه اهم الحفلات الدينية ولم نترك حقلاً ولا مفازة ولا سفينة ولا خاناً ولا سجناً الا وعملنا فيه جمعية يذكر فيها اسم الرب وينادي بكلمته جهاراً . اما اهم الاعياد واكثرها مجلبة للفرح والسرور فهو العيد الذي يحتفل به جماعة الشهداء الابرار الآن في السماء حيث يرأس حفلتهم الرب يسوع نفسه حيث لا الم ولا تعب ولا جوع ولا شيء من مصائب هذه الحياة وبلاياها

وقد اعقب هذه النكبات حرب تلاها جوع وسغب اصابنا نحن والوثنيين على السواء ولكن الضرر الاكثر لحق بالفقراء المساكين الذين اثر فينا حالهم تأثيراً شديداً فكنا نواسيهم ونشاطر كل من انتابته مصيبة في بلاياه ونرثي لامرهم ونعطف عليهم عطفاً ينتج من قلوب رقيقة واحساسات مسيحية شريفة تتأثر لمصاب بني البشر الذين هم اخوتنا في الانسانية . ثم جاءت بعد كل هذه هدنة قصيرة منحها لنا الرب يسوع المسيح تمتعنا فيها بشيء من الراحة والفرح ولم نلبث طويلا على هذه الحالة حتى دهمنا وباء فتاك مسنا مساً ولكنه فتك بالوثنيين فتكا ذريعاً

فلما قدم هذا الداء الوبيل بخيله ورجله ظهرت احساسات الاخوة المسيحيين نحو القوم المصابين وبانت نواياهم الحسنة وعواطفهم الحبية مع كل مريض مدنف حتى انهم لم يخشوا شر الداء ولم يخافوا على انفسهم من الهلاك بل عمدوا الى تمريض الضعفاء وسد حاجات المعوزين بهمة شماء ومروءة علياء وهي اعمال كانت تضيء في هذه الايام السوداء كما

يضيء مصباح لامع في حالك الظلام وديجوره فكانوا يداوون المرضى بالادوية الروحية اولاً حتى اذا فارقوا هذه الحياة الدنيا انطلقوا الى الابدية وفي قلوبهم رجاء لا يفنى بالحياة الآتية . وكان كثيرون من هؤلاء الاخوة الذين يخدمون المرضى يموتون معهم بعد ان يصابوا بعدوى امراضهم . نعم كانوا يموتون فرحين مسرورين لموت هو رقاد موقت تعقبه حياة ابدية سعيدة . وكانت العدوى تنتقل من المصاب الى الصحيح لان هذا كان يستخرج مصل الداء من ذاك بواسطة مصه (١) فكأنهم كانوا يحملون اعباء الامراض من على اعناق الاخرين ولذلك مات الكثير من المسيحيين فداء لاخوانهم المرضى وهو عمل يظهر منه الفرق الكبير بين المسيحي الحقيقي الذي يضع نفسه عن الاخرين كما فعل سيده قبله وبين اولئك الذين يظهرون انفسهم في مظهر المحبين المخلصين بواسطة احساس غير حساس يبدونه في آداب باطلة وتحيات فارغة ومودة عقيمة ولكن اذا جاء وقت الشدة فزعوا من اصدقائهم وابتعدوا عنهم او قدموهم قرباناً لاغراضهم اذا كان في تقدمتهم ما يجلب بعض النفع او يزيل شيئاً من الضرر . ففي زمن هذا الوباء انتقل الكثيرون من خيرة الاخوة

---

(١) هذا يدل على ان عملية ايصال الهواء الى الرئتين في حالة مرض الدفتيريا كانت معروفة عند المصريين في ذاك الوقت . اما غرضهم من مص المصل فهو تطهير قناة الهواء (او قصبة الرئة) حتى يسهل مرور الهواء فيها فلا يختنق المصاب وهي ذات الطريقة المستعملة في ايامنا الحاضرة . ولا ريب في انها عملية خطرة مات فيها كثير من الاطباء الانكليز

وافاضل الامة وذهبوا الى الدار الباقية شهداء الخدمة المسيحية وكان فيهم القسوس ومشائخ الكنيسة وشمامستها وغيرهم من الشعب الذين اشتهروا بحسن السيرة وطيب السمعة فالموت بهذه الكيفية وما اقترن به من شفقة عميقة وايمان حار وغيرة تقوية ومحبة مخلصة لا يقل في الاهمية عن الاستشهاد الذي يحدث في زمن الاضطهادات . والذين يموتون بالطريقة المار ذكرها كانوا يكرمون ويحتفل بموتهم احتفالا باهراً اذ كانوا يحملون على الاكف ويوضعون فوق الرؤوس بعد ان تنظف عيونهم وتكفكف كل دمعة ذرفت منها ساعة الحشرجة وتقفل افواههم ويكفنونهم باحسن الاكفان واثمنها ومن ثم يدفنونهم باجلال واكرام وهكذا يودع الواحد منهم اخاه ويعود فلا يلبث طويلا حتى يودعه غيره على الطريقة التي اتبعها هو مع سابقه . اما الوثنيون فكانوا على الضد من ذلك ولا عجب في هذا ولا غرابة ما دامت الاحساسات المسيحيه والعواطف التقوية لم تجد لها طريقاً للقلب ولم تعمل فيه عملها المعروف فكان اولئك الوثنيون عند ما يشعرون بان احدهم مريض يبتعدون عنه ويتنحون حتى عن اعز اصدقائهم ومحبيهم وقد بلغت بهم القساوة مبلغاً عظيما حتى كانوا يطرحون مرضاهم في الازقة والشوارع وهم بين حي وميت فاذا فارق المريض هذه الدار رموا به في عرض الفلاء دون ان يواروه التراب ومن غير ان تظهر على سمائهم ادني المظاهر التي تدل على التأثير والاحساس ولو احتاطت بهم كل العوامل المؤثرة الفعالة »

وقد تلطفت مصائب هذا الحصار كثيراً وخف بعض الشيء من بلاياه المريعة وذلك بواسطة سلوك الكهنة المسيحيين سلوكا يحمد ويمدح نخص منهم بالذكر يوساب واناطوليس اللذان تعاقبا بعد ذلك على اسقفية لاودكية . وقد قال يوسيفوس المؤرخ في عرض كلامه عن اناطوليس ما نصه :—

«قد اسند الكثيرون اكثر الاعمال الخطيرة التي تمت اثناء حصار بروخيوم (جزء من الاسكندرية) الي اناطوليس وذلك لان جميع الموظفين على اختلاف درجاتهم كانوا يجلونه ويحترمونه احتراما زائداً وهو قول لا يحتمل الشك او الريب واليك مثال على صحة ذلك . لما نفذ الزاد في ايام الحصار وندر وجود الخبز في المدينة لدرجة رضي فيها الناس ان يسلموا انفسهم لاعدائهم الادميين من ان يسقطوا بين براثن عدو قاس هو الجوع خطر على بال اناطوليس فكر حميد رأى الخير كله في انفاذه وتفصيل ذلك ان نصف المدينة الثاني كان على وداد تام مع الرومان ولذلك لم يقم عليه حصار ولم ينصب نحوه متراس فلذلك ارسل اناطوليس الى يوساب الذي كان مقيما في الجزء الغير المحاصر (وكان يوساب حينئذ موجوداً في الاسكندريه قبل ان يذهب الى سوريا ويسام اسقفاً في لاودكية ذائع الصيت نافذ الكلمة حتى عند قائد الجيوش الرومانية) واخبره انهم اوشكوا على التلف من جرى الجوع والسغب . فلما سمع يوساب هذا الخبر التمس من القائد الروماني ان يمنح الامان لجميع الذين

يفرون من وجه العدو ويلجأون اليه وعد هذه المنحة اعظم جميل واكبر معروف يعمله معه . فلما اجاب القائد طلبه هذا ارسل يعلم اناطوليس به في الحال وعليه جمع هذا مجلس الشيوخ الاسكندري وعرض عليه الامر القاضي بان كل الناس سواء كانوا رجالا او نساء خالين من خدمة الجيش عليهم المبادرة بالخروج من المدينة ما دام لا يوجد أمل لهم بالنجاة من عوامل الهلاك لو هم ظلوا قاعدين في مكانهم خصوصاً وان الجوع يتهددهم بالفناء اذا انتظروا استتباب الاحول وحسن المآل . فصادق المجلس على هذا الرأي الصائب واتفق مع يوساب على ان الذين يهربون اولا هم اعضاء الكنيسة المسيحية ثم الشيوخ الضعفاء الذين لا نصير لهم ولا مجير

ولم يقتصر الامر على هؤلاء فقط بل ان كثيرين من رجال المدينة تزيوا بزي النساء وخرجوا منها بهذه الحيلة تحت جنح الظلام ومروا على معسكر الرومانيين فلم يميزهم احد ثم جاؤا الى يوساب مع من جاء فاقتبل الجميع بكل ترحاب وتلطف واخذ يؤاسي الحزين منهم كأنه اب شفوق ويضمد جراح كل جريح منهم كطبيب ماهر وبالاجمال فقد رفع عن الكثيرين اعباء مصائب واهوال شديدة تجرعوا غصصها أثناء هذا الحصار »

وقد ألقت الحرب اوزارها في مصر عند ما ألقي القائد الروماني القبض على اميليانوس وقتله فاستراحت هذه البلاد الامينة من هول

الطعن والضرب ولكنها لم تسترح من بلايا الطاعون الذي كان لا يزال يفتك في اهليها فتكاً شديداً . اما البطريرك فكان لم يزل مشتغلاً حينئذ بالمباحثات والتآليف

وقد أتهم البطريرك ديونشيوس بما أتهم به غيره من الميل الى الهرطقة والجنوح الى البدع وهي تهمة اصابت اكثر أعاظم رجال الكنيسة المسيحية واقيالها سواء في حياتهم او بعد موتهم وسواء بحق او بغير حق . وكان من حسن حظ ديونيشيوس ان التهمة وجهت اليه وهو بعد على قيد الحياة ولذلك قدر على دحضها وتبرئة نفسه بطريقة دلت على مقدرته في استخراج الحجج القوية واتضاعه في المناقشة والجدال مما زاد في شرفه ورفع مكانته كثيراً حتى دعي رئيس البطاركة وكبير الباباوات في العالم كله . وقد استاء بعض من شعبه منه لعبارات قاسية وردت له في جواب أرسله الى أساقفة مقاطعة بنتابوليس قصد منه التوفيق بينهم في مسائل اختلفوا عليها وايقاف سير بدعة جديدة كانت على وشك الظهور . اما اهل هذه المقاطعة فأتوا امراً مغايراً للأصول بالمرة اذ عوضاً عن ان يردوا على بطريركهم ويجادلوه بالتي هي أحسن اغراهم بعض الدخلاء من الرومانيين وحرضوهم على الشر والشقاق فكتبوا الى ديونيشيوس أسقف رومية كتاباً فيه يرمون بطريركهم بالهرطقة والبدعة وكان هذا الاسقف سادس أسقف جلس على الكرسي الروماني أثناء جلوس البطريرك ديونيشيوس على

لاريكة القبطية ولذلك كان صاحبنا الروماني شابا في مقتبل عمره قليل الخبرة ضيق المعرفة بالنسبة الى البطريرك المصري الذي كان لا يساويه أحد في العلم والاختبار الكثير . فسار ديونيشيوس الروماني سير الاعتساف وارتكب متن الشطط في انه شكل مجمعاً وقتياً وحكم فيه بالحرمان على دينشيوس الاسكندري وكتب اليه يعلمه بنتيجة هذا الحكم ويسأله عما اذا كان لديه شيء يقوله دفاعاً عن نفسه مما عده بابا الاسكندرية هذا اهانة وافتراء الا ان تقواه وتمسكه بعرى الديانة المسيحية منعاه عن مقابلة الشر بالشر وعوضاً عن ان يقابل شعب تلك الابرشية المتمرد بما يستحقه من اللوم والسخط وبدلا من ان يحتقر ما كتبه له زميله الروماني ويضرب به عرض الحائط لما فيه من القحة والبذاءة . عمد الى قلمه وكتب رداً طويلاً كان آية في البلاغة وحسن البيان شرح فيه كيف ان اعداءه أبدلوا كلماته وحولوها عن معناها الاصلي بقلب مبناها لغاية في النفس حتى صارت تؤول تأويلاً يغاير الحقيقة ثم قال انه تجنب البحث في مسألة « الاستحالة » ولم يذكر شيئاً عنها لانه لم يقف لها على اصل في الكتاب المقدس وان الذي يراجع كلامه الاصلي يقتنع بصحة ما كتبه لانه يجده غير محرّف او مبدل وانه يأسف لعدم امكانه ارسال نسخة منه الى ديونيشيوس الروماني

فبواسطة حكمة ديونيشيوس الاسكندري ورصانته خمدت سورة شقاق كان يمكن ان يستفحل امره فيضر بالكنيسة ضرراً بليغاً كما ان

هذا الاعتدال زاد اعتبار هذا البطريرك الحكيم في أعين الناس عن ذي قبل وأوجد له مهابة كبرى في النفوس

وحدث انه في آخر سني حياة ديونيشيوس هذا دعاه مجمع انطاكية لحضور احدى جلساته حيث حكم بحرمان بولس من ساموساتا (ولا حاجة بنا لشرح حكايته هنا لعدم اهميتها) ولكن ديونيشيوس لم يحضر هذا المجمع معتذراً بضعفه وكبر سنه فكتب لهم رأيه في هذا الشأن وارسله اليهم . وقبل ان يبت المجمع المذكور حكما في قضية بولس هذا نام ذلك البطريرك العظيم في الرب واستراح من اتعاب جمة ودخل الى فرح سيده لانه كان اميناً في القليل فاقامه على الكثير فطوبى له

الفصل العاشر

مار آمون ومار انطونيوس . سنة ٢٦٨ ب . م

في سنة ٢٦٨ ب . م ورد غالينوس الامبراطور حتفه في ميلان (بايطاليا) في حرب عوان مع خصم آخر كان يطالب بسرير الملك . وبعد موته حدث الالتباس المعتاد حدوثه عمن يخلفه فنشأ عن ذلك اضطراب جديد جرَّ شراً على مصر الشقية وانتهى الامر أخيراً بان رقي كلوديوس العرش الامبراطوري في أوروبا وأصبح اسمه يسبك على النقود لمدة ثلاث سنين ولكنه لم يحكم مصر الا بالاسم فقط لان المصريين اعتادوا عدم الخضوع لاي سلطة أجنبية بطيب خاطر الا ان يكون لليونان وعليه يحتمل انهم يكونون قد التجأوا الى زينب (أوزنوبيا) ملكة تدمر وأرملة

أودينانوس وهي الملكة التي جمالها الفتان وشهرتها الواسعة ابقيا ذكراً للمملكة تدمر (التي يسميها الافرنج بالميرا أو مملكة النخل) وطلبوا انها تستولى على مصر وتضمها تحت لوائها. وكانت هذه الملكة تزعم انها سليلة كليوبترا الشهيرة ولذلك رأت ان لها حقاً لان تملك مملكة آبائها

ومما اشتهرت به هذه الملكة ان مجلسها كان يضم كثيرين من العلماء وفطاحل الرجال الذين رضعوا أفاويق العلوم في مدارس الاسكندرية المعروفة وكان أعظم هؤلاء الافاضل شهرة العلامة لونجينوس. أما كون زينب من سلالة كليوبترا المصرية فغير صحيح بل يغلب على الظن انها رومانية الاصل اذ لا يوجد دليل على وجود صلة رحم بينها وبين كليوبترا كما كانت تزعم الا ان يكون تشابه الاثنين في الجمال الباهر والشجاعة الفائقة وفي آخرتهما السوداء. ولما جاءت زينب لاخذ مصر امتلك جيشها الاسكندرية أولاً ثم سار جنوباً في وادي النيل تخيم فوقه أعلام النصر ويرافقه الظفر في كل غزواته وهو تحت قيادة مصري باسل اسمه تيماجينس الذي سار في طليعة المحاربين. وبعد ان افتتح هذا الجيش البلاد المصرية عاد راجعاً فالتقى في طريقه بقائد روماني يقود جيشاً يقصد به مقاتلة ذلك الجيش الا ان خبرة تيماجينس باحوال البلاد ومسالكها ساعدته في قهر عدوه وجعله يعود ناكصاً على أعقابه راضٍ من الغنيمة بالاياب

ولم يدم حكم التدمريين طويلاً في مصر لان أورليانوس الروماني

حارب زينب وأخذها أسيرة ودمّر مدينة تدمر بعد حصار طويل. ولكن المصريين لم يخضعوا لحكم الرومان ولم يرضخوا لسلطتهم بدون جهاد وقتال اذ يؤخذ من بعض المصادر ان ملكين كانا يتنازعان السلطة في مصر عند ملك أوريليانيوس لها وقد قاوماه كثيراً وكانت النتيجة ان مصر عادت تخضعت للسيطرة الرومانية وسلمت زمامها لاوريليانوس الذي لم يمكث فيها طويلا بل قفل راجعاً الى رومية بعد ان عهد بادارة أمور مصر الى وال قادر اسمه بروبوس

أما عن المسيحيين في مدة حكم زينب لمصر فقد عاشوا في صفاء ورفاء وأعطيت لهم الحرية الدينية التامة ولكنهم شاطروا باقي مواطنيهم في قلاقل الحروب الاهلية ومتاعبها . وقد جلس على الكرسي البطريركي بعد ديونيشيوس البطريرك مكسيموس الذي لا يعرف عنه شيء سوى انه اشترك في الحكم الصادر على بولس الساموساتي الذي مرّ ذكره بك كما انه بدأ في مدته اثنان من مشاهير المصريين بان عاشا أولا عيشة الزهد والتنسك ثم أفرطا فيها كثيراً الى ان تخطياها الى التبتل وانكار الذات . أما هذان الراهبان فكانا مارانطونيوس ومار آمون الذي لم يشتهر أمره كثيراً ولكنه كان محبوباً أكثر من غيره عند عارفيه وهو المؤسس لدير النطرون (بالبحيرة) ولو ان القديس نروثونيوس كان قد اتخذ هذا المكان دار اقامة له قبل هذا العهد بنحو جيل

أما انطونيوس فولد في بلدة تسمى « الكوم » في الصعيد من والدين

مسيحيين مثريين ولم يخلق فيه ميل للعلم . ومع انه لم يكن أمياً تماً كما يظن بعض المؤرخين الا انه لم يتعلم من اللغات الاجنبية شيئاً ولم يكن يعرف سوى لغته (القبطي الصعيدي) التي لم تكن دارجة بين الطبقات العليا في مصر . وقد مات والداه وهو في الثامنة من عمره فاصبح تحت رعاية أخته وعنايتها . والذي يبحث في اخلاقه وطباعه يجده شبيهاً باوريجانوس من وجه الغيرة الدينية والميل الى انكار الذات الا ان ظروفه لم تكن كظروف أوريجانوس فان أصحابه هنا الكثيرين ومعارفه الواسعة وعلمه الصحيح كل هذه صدته عن عيشة الوحدة والانفراد والبقاء في عالم الاحياء لاستعمال مواهبه في ماهو نافع ومفيد فكراً وعملاً . أما انطونيوس فمع انه في نشأته لم يكن ميالا كثيراً أو مفكراً في الزهد والرهبنة الا انه بعد موت والديه بنحو ستة شهور (في سنة ٢٦٨ ب.م) كان قد ذهب الى كنيسة ما لسماع الوعظ وكان الموضوع يومئذ قول المسيح للشاب الغني « ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني » (مت ١٩ : ٢١) فلما سمع صاحبنا انطونيوس هذا لم يمض حزيناً كما مضى ذلك الشاب الغني بل صمم على اتمام هذا الامر حرفياً فذهب وباع كل أملاكه ولم يبق منها سوى جزء قليل خصه باخته . وحدث في غد ذلك اليوم انه ذهب الى الكنيسة كعادته فسمع قول المخلص « لا تهتموا للغد فنخسه ضميره وظن ان هذه الآية توبيخ له على ما أبقاه لاخته من العقار فباع هذا

الجزء الصغير فوراً وترك أخته في عهدة امرأة مسيحية في بلدته ووزع كل ما يملكه من حطام الدنيا على الفقراء والمعوزين وهام على وجهه وهو حافي الاقدام لا أنيس له ولا رفيق وعزم أن يعيش عيشة جهاد مع نفسه وأن يحارب جسده ويقمعه وينزع عنه كل خلة أو سجية تغيظ الله وتخالف أوامره وهذا عمل أتاه أناس كثيرون في كل الاعصر ظناً منهم أنه يقربهم الى الله جلّ وعلا . وبعد أن انتقل انطونيوس من مكان لاخر أوجد نفسه في صرح متهدم واقع على شاطىء النيل وامتنع عن النظر في وجه آدمي أياً كان الا انه كان يعظ من وراء الحجاب ويخطب في جماعة رعاة القطعان الذين كانوا يحترمونه احتراماً ناتجاً عن اعتقادات خرافية من نحوه وكانوا يتوافدون لسماع العبارات الحماسية التي كان يتفوه بها هذا الزاهد المختفي ولكنهم قلما كانوا يفهمونها . ولطالما جاؤوا اليه بخبز من بلادهم كثير وبشيء وافر من الكعك المسطح (قرص) فكان يبقيها عنده أشهراً طويلة حتى تستحجر ولا تلين الا بعد أن توضع وقتاً غير قصير في الماء . ومن ثم يسهل مضغها وازدرادها كما يفعل الفلاح المصري اليوم في هذه الايام . ولأنه عاش على هذه الصورة فقد عزيت اليه أمور واشاعات تجسمت فيما بعد وتكبرت حتى صارت خرافات لا يقبلها العقل وأصبح يتناقلها الآن كثيرون من ذوي العقول الضيقة . ففي هذا المكان قضى انطونيوس عشرين عاما بعيداً عن أعين الناس ولكن صيته وشهرته ملأتا الآفاق

أما مار آمون فلا يعرف مسقط رأسه تماماً ولكنه لا يبعد كثيراً عن مدينة الاسكندرية . وهو كزميله انطونيوس ولد من أبوين موسرين وتيتم منهما وهو بعد يافع . ويؤخذ من اسمه انه مصري قح ومع ان كثيرين من المصريين الاصليين اطلقت عليهم اسماء اليونانية وقت عمادهم الا انه لم يكن يسمح ليوناني مسيحي أو لدخيل أن يسمي ابنه باسم اله مصري كآمون أو غيره . ولما دخل آمون دور الشبوبية (غالباً بين سنتي ٢٦٥ — ٢٧٠ ب . م) رغب في عيشة الزهد ومال الى الرهبنة الا ان عمه وولي أمره رفضا طلبه هذا وأغرياه بضرورة عقد خطوبته على آنسة يعرفانها ذات متاع وعقار قد يمكن أن يوسع ثروته بها . ويظهر من قرائن الاحوال ان آمون كان لا يزال الى هذا الحين تحت رعاية عمه ولا يسعه الخروج من طاعته ولذلك شرع حينئذ في مخاطبة هذه الفتاة كما أمره عمه وكانت النتيجة انه أوجد فيها الميل الذي عنده وزرع في فكرها الرغبة في عيشة الزهد وتكريس النفس ومن ثم اتفق الشاب والشابة على ما ظناه خيراً لهما وابقى . فتزوجا بعضهما على شرط اتفقا عليه سراً هو ان يعيشا معاً كاخ واخت لا كزوج وزوجة وقد ظلا على هذه الحالة عدة سنين وهما يحافظان على شروطهما بعفة وامانة . وقد اختلف المؤرخون فيما اذا كان الاثنان قد عكفا على الزهد وذهبا الى الجبل حالا بعد زواجهما أم لا ولكن الذي يقرب من الحقيقة على كلتا الحالتين انهما كانا ينفقان على انفسهما من مالهما الخصوصي وعاشا بسعة من ايراد

املا كما . وبعد ردهة من الزمن ظن آمون انه ليس في غبطة تامة او انه لم يعد يستطيع العزوبة التي فرضها على نفسه وبجانبه واحدة من بنات حواء فاستأذن امرأته هذه وانصرف الى وادي النطرون حيث اقتفى اثره جم غفير من ارباب الغيرة واصحاب الميل الى هذا الانفراد ومعهم مكاريوس الشهير الذي نال الشهرة التي كانت لآمون رئيسه ولم تمض على هذا الحال ثمانون حولاً حتى أصبح وادي النطرون يحتوي على نحو خمسين ديراً او تزيد كما ذكر ذلك روفينوس في تاريخه المعروف . ولم يكن كل سكان وادي النطرون في ذلك العهد من الرهبان والنساك بل ان كثيرين من عامة الشعب سكنوا قبلهم ذلك لان السهول القريبة منه لم تكن جدباء بالمرة بل ان بحيرات الملح كانت تحيط به كما في وقتنا الحاضر وحولها شيء من الخضرة النضرة كما ان الماء لم يكن شحيحاً هنالك بل ان الذي يحفر آباراً يسهل عليه استخراج ماء زلال يشرب منها ويروي بها ارضاً تخرج نباتاً طيباً . اما آمون فقد استماله ما شاهده من رسوب النطرون هنالك وفكر في ايجاد طريقة ينتفع بها في تشغيل الرجال الذين تبعوه في استخراجه . ولم يلبث طويلاً حتى احتشد كثيرون من سكان مدن وقرى الريف التي على مسافة ٣٠ او ٣٥ ميلاً من الدير واتفقوا جماعات الفوا قوافل منتظمة وساروا ليجيئوا بالنطرون الذي كان يستخرجه آمون ورجاله وكانوا يبيعونه في اسواق مصر ويتجرون به . وحدث ان شاباً اسمه مكاريوس سار مع قافلة

من هاتيك القوافل الى وادي النطرون فلم يكد يلقي عصا الترحال حتى جاش صدره داخله غيرة منه عند ما رأى جماعة النساك والزهاد يشتغلون شغلا شاقاً في استخراج النطرون . ولم يكن مكاريوس يظن انه محتم عليه البقاء مع آمون ورفاقه او ان الزهد لا يتم الا بالالتحاق بهم . فانه لما رأى العنصر العالماني (لان اتباع آمون لم يكونوا جميعهم رهباناً) متغلباً هناك كثيراً وان التجارة والكسب هما الغرض الذي يرمي اليه القوم اعتقد ان وادي النطرون لا يناسب عيشة الوحدة والاعتزال وعليه ترك هؤلاء الجماعة المنهمكين في اعمالهم حول بحيرات النطرون واعتزل مكاناً قصياً يبعد كثيراً عن هذا المحل حيث لا توجد شجرة او نخلة تطفيء حرقة حاجرته او تبرّد لظى قفاره . والذي يلقي نظاره على الخرائط الفرنسوية يجد الوادي الذي كان فيه آمون والوادي الذي سكنه مكاريوس واسمهما سيتس ونطريا ـ مرسومين كانهما واد واحد والحقيقة انه يوجد فرق واضح بين الاثنين وتباين في الارتفاع بينهما كما اوضح ذلك مستر هوكر (مدير مصلحة المصلح) في خريطة له رسمها سنة ٩٦ اما الوادي الاعلى الذي يمتد الى الجنوب الشرقي فلم يكن له اسم يعرف به عند ما استوطنه مكاريوس ولكنه أطلق عليه فيما بعد اسم «سيتس» ومعناه موضع الارواح المقدسة وسبب هذا الاسم هو ان مكاريوس تبعه كثير من المريدين كما اتبعوا آمون وسكنوا في كهوف احفروها لانفسهم وبقوا على معزل من اقليم وادي النطرون

وكانوا يتجشمون اتعابا كثيرة للحصول على الماء لطول الشقة ولم تكن لهم حرفة يحترفون بها سوى صنع السلال والمقاطف التي كانوا يحصلون منها على مايساعدهم في معيشتهم الصعبة التي كانوا يظنونها أحسن عيشة في العالم توجد بينهم وبين الله اتصالا متيناً . في هذا المكان قضي مكاريوس حياته التي كانت كلها بينما كان آمون على مقربة منه يكد ويكدح مع جماعته في استخراج النطرون وكان يسمح لنفسه بالتطواف مرتين في السنة يصرف في كل مرة ستة ايام يسير فيها عرض الصحراء والوجه البحري لينظر امرأته ويسأل عن سلامتها . ولاريب في انه اتعب نفسه كثيراً واجهد ذاته اجهاداً مفرطاً ليكفر عما فرط منه من الاهمال والتغاضي وفرض على نفسه فروضاً صعبة كان يؤديها في خلوته . وليس يصعب على الفطن ان يتصور ما كان يعانيه هذا الناسك من العناء وقلق البال انتظاراً لاخبار ترد اليه من الارياف اثناء هذه المدة الطويلة التي صرفها في الجبال من سنة ٣٠٣ ـ ٣٢٢ . ومات آمون هذا في سنة ٣٤٥ بينما كان يراقب على بعد الجهاد العديم الفائدة التي جاهدته مصر في سبيل تحرير بلادها من عبودية الرومان وانتقام ذلك الامبراطور منهم انتقاما تقشعر منه الابدان لانهم جاهدوا في سبيل الحرية مع ان هذا الامبراطور كان قد ولد تحت رق العبودية والذل

الفصل الحادي عشر

الجهاد في سبيل الحرية . سنة ٢٨٢ ب . م

بعد ان قتل اوريليانوس استولى تاسيطس على العرش الروماني في اوربا وظل جالساً عليه مدة قصيرة اما مصر فكانت حينئذ تحت سلطة ارملة اوريليانوس التي جلست على سرير ملكها ثمانية شهور . ولما ان مات تاسيطس اتفق الجيش المحتل مصر على انتخاب القائد بروبوس الذي كان محبوبا من جيشه ومكرما عنده . ولما استتب له الامر في مصر غادرها الى اوربا ليضع يده على ولاياتها وليضم تحت لوائه كل المملكة الرومانية وفي اثناء غيابه انتهزت بقية من التدمريين ـ الذين قلنا انهم اخذوا مصر قبلا ـ هذه الفرصة وسعوا لاخذ مصر العليا واغتصابها من يد بروبوس فاضطر هذا ان يعود قافلا الى مصر ليرد عنها هذه الغارة الجديدة وليشن حربا عوانا يفتح به مدينتي قبطس (اوقفط) وبطوليمايس من جديد . ومع ان الحرب استمرت زمناً لا سيما بين الطرفين الا ان بروبوس لم يكن ليغفل شؤون مصر والعمل على تحسين احوالها العمومية ومعاملة شعبها المنحوس برفق وعدل بعد ان ذاق هذا الشعب اصناف البلاء والحيف مدة طويلة . وفي سنة ٢٨٢ ب . م هجم عساكر بروبوس عليه واخذوا حياته غيلة تخلفه كاروس والي مصر وهذا ايضاً مات سنة ٢٨٣ في حرب اقام سوقها ضد الفرس ولكنها أوقفت عند موته وعقبه ابناه كارينوس ونومريانوس وبعد ان حكما سنة واحدة كلها حروب

ومصائب قام ديوكلتيانوس (او تكلا) واغتصب التاج الامبراطوري واصبح صاحب السلطة كلها على المملكة الرومانية برمتها

وفي خلال ذلك تنيح البطريرك مكسيموس وذلك سنة ٢٨٢ ويحتمل ان الامة وجدت صعوبات ومقاومات في اختيار خلف له ولذا ظل الكرسى البطريركي بدون بطريرك بضعة اشهر الى ان انتخب ثيوناس الذي ساس شعبه بسلام وحكمة مدة من السنين . وفي مدة الهدنة هذه التي جاءت بين الحروب والاضطهادات التي كانت تتوالى على لكنيسة المصرية كالحلقة المفرغة بنيت في مدينة الاسكندريه اكبر كنيسة في بر مصر وكرست باسم العذراء مريم . ولو ان الكنائس الكبرى لم تكن قليلة في هذه البلاد الان هذه الكتدرائية الجديدة دلت على نهضة ممدوحة لانها كانت اول مابناه المصريون المسيحيون من نوعها معبد عظيم يجتمعون فيه للعبادة الجمهورية

اما المسيحيون في مصر فلم يكن لديهم سبب يعرفونه يحملهم على لشك في نوايا ديوكلتيانوس في بدء حكمه ولم يكونوا يظنون به سوءاً ن نحوهم وهذا ظاهر من جواب ارسله البطريرك ثيوناس الى لوسيان لمسيحي الذي كان معيناً حينئذ في وظيفة خطيرة عند الامبراطور هي ناظر بيت الملك) او بمعنى اوضح (مدير الدائرة الخاصة) . وكان يينه في هذه الوظيفة بعد ارتقاء ديوكلتيانوس العرش الملوكي بقليل كتب اليه البطريرك يقول :ـ

« ان الراحة التي تتمتع بها الكنيسة الآن تعزى الى سبب واحد فقط هو سلوك المسيحيين الحسن واعمالهم الممدوحة التي تضيء كالشمس في رابعة النهار فينعكس ضوءها امام اعين الكفرة والملحدين فتبهر انظارهم وبذلك يتمجد ابانا الذي في السموات . اما غرضنا الذي نرمي اليه والغاية القصوى التي نسعى خلفها هي ان نكون مسيحيين فعلا لا بالاسم فقط وان نعمل اعمال المسيحيين الحقيقيين لانه اذا كنا نطلب مجد انفسنا الذاتي فنكون كمن يطلب شيئاً تافهاً زائلا لا فائدة منه . فاذاً يجب على كل مسيحي ان يهتم بمجد الله الآب وبمجد الله الابن الذي سمر لاجلنا على خشبة الصليب وفدانا بدمه فداء ابدياً لا يقوم بذهب او بفضة . فلذلك ايها العزيز لوسيان لا اريد ان يعرف عنك التباهي والفخر لانك اهديت كثيرين من خدمة البلاط الملوكي الى معرفة الحق وادخلتهم في حظيرة المسيح بل بالاحرى بك ان تشكر الله الذي اختارك آلة نافعة للبنيان وجعلك واسطة خير لنفع الاخرين واعطاك نعمة في عيني مولاك لحد تمكنت فيه من نشر كلمة الخلاص واذاعة معرفة فادي المسيحيين وذلك لمجد اسمه وخلاص الكثيرين »

وقد كتب هذا البطريرك كثيراً يوصي ابناءه الموجودين في خدمة الامبراطور بالالتفات لواجباتهم كمسيحيين واتيان الاعمال التي يمتاز بها المستخدم المسيحي في ديوان وثني عن غيره ثم شدد عليهم الوصية بالابتعاد عن شر كثيراً ما سقط فيه المصريون بل الشرقيون

بوجه عام حيث قال :ـ

« ان الله ينهاكم عن ان تبيعوا للآخرين شيئاً من متعلقات القصر خلسة او ان تأخذوا رشوة لكي تقولوا للامبراطور كلاماً ضد الحق ابتعدوا عن الطمع والجشع اللذين يتمسك بهما الوثنيون لا المسيحيون واعلموا ان الربح القبيح والغش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح وعوّل على الاقتداء به ذاك الذي كان فقيراً معدماً . لا تتكلموا بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من افواهكم بل لتكن كل اعمالكم مقرونة باللطف والتأدب مع العدل والحق بذلك يتمجد اسم ربنا والهنا يسوع المسيح فيكم وفي اعمالكم . تمموا واجباتكم التي أسندت اليكم بخوف من الله وبمحبة للامبراطور وبغاية الدقة والاجتهاد واعتبروا ان الاوامر التي تصدر لكم من مولاكم الذي لم يسيء الى احد من رجال الله كانها صادرة من الله نفسه لانه مقام منه ولم يتقلد السيف باطلاً . وأخيراً يا أبنائي الاعزاء البسوا الصبر كرداء وتمنطقوا بالفضيلة وامتلئوا بالرجاء والايمان والمحبة »

وبعد هذه المقدمة العمومية اسهب البطريرك في تفصيل الطريقة التي يسير عليها المستخدمون عند تأدية واجباتهم المتنوّعة المتعدّدة . وكان اكثر موظفي البلاط الامبراطوري من المسيحيين وكانت وظيفة امين الكتبخانة خالية حينئذ وكان البطريرك ثيوناس يرجو تعيين مسيحي فيها . اما أمين الخزانة الخاصة فقد أوصى البطريرك بانتخاب

شخص يكون ماهراً في علم الحساب عارفاً بمسك الدفاتر فلا يعتمد على ذاكرته في هذا العمل وان يكون حسابه مرتباً مبوباً حتى يسهل معرفة الميزانية وفحصها في وقت قصير ويجب كتابة تاريخ صرف النقود وسبب صرفها والمكان الذي صرفت فيه في أعمدة على حدتها في الكشوف (الاستمارات) الخاصة بذلك . وقد وضع هذا البطريرك العارف تعليمات لامين الثياب والملابس واختاره من الرجال الذين اشتهروا بالدقة والامانة وكتب له يوصيه بملاحظة الترتيب الآتي وهو : —

« مقدار الملابس المسلمة لعهدته ونوعها وماهيتها والاماكن الموضوعة فيها وتاريخ وصولها للمخزن واسم المتعهد الذي وردها وهل هي حسب الشروط ام لا وضرورة افتقادها مراراً ومعرفة موضع كل سلعة من الدولاب المخزونة فيه . وعلى الامين أن يفعل كل هذا بتواضع وطول اناة لكي يتمجد اسم المسيح حتى في مثل هذه الاعمال القليلة الاهمية »

وقد شرح ثيوناس بالتفصيل الوافي واجبات أمين الكتبخانة واظهر في شرحه هذا كل حكمة ومهارة مما يدل على غزارة مادته وطول باعه اذ قال — « يجب على أمين الكتبخانة ان يكون عارفاً بما عنده من الكتب والمجلدات وان يفتقدها ويفحصها كل آونة وأخرى وان يرتبها حسب اهميتها ويدرجها في كشف على نسق واضح وان يستخدم امهر النساخ وابرعهم لنسخ ما يحتاج اليه من الكتب الغير

موجودة عنده . كذلك يلزمه ان لا يرتأي ويظن انه ليس في حاجة الى الدرس والمطالعة او الالمام بمحتويات الكتب خصوصاً التي يميل اليها الامبراطور ويبحث عنها ويطلبها . ويتحتم عليه ايضاً معرفة اسماء الخطباء والشعراء والمؤرخين الذين نبغوا في الاعصر الخالية والوقوف على مؤلفاتهم ومصنفاتهم وأقوالهم المأثورة . وحيث ان هذا الامين كثيراً ما تضطره شؤون وظيفته للمحادثة مع الامبراطور وارشاده الى الكتب المهمة التي عنده فينبغي له ان يذكر امامه في اثناء حديثه اهمية الترجمة السبعينية للكتاب المقدس ونفعها وما فيها من الفائدة العظمى وان يفهمه ان هذا الكتاب كانت له منزلة كبرى عند بطليموس فيلادلفوس الشهير الذي كان يقدره حق قدره (١)

وقد وضع هذا البطريرك الماهر ارشادات أخرى عن الكتب التي يشير بقراءتها على مسامع الامبراطور بصوت جهوري كما انه أشار أيضاً على القارىء باقتباس شواهد من كتب أخرى تناسب مقام الموضوع المراد تفهيمه للامبراطور . وقد ذكر أيضاً انه يلزم الامين

(١) معلوم ان بطليموس فيلادلفوس هذا هو الذي اعتني بترجمة التوراة الترجمة المسماة بالسبعينية . ويظهر من قول ثيوفس انه لم يكن يخطر بباله ان امبراطور روماني كمبوكنتيانوس يكون على درجة من الجهل المطلق لحد انه لا يعرف شيئاً عن بطليموس واعماله المعروفة . ولكن جهل ذلك الامبراطور الماني كان حقيقة راهنة حتى ان مريديه ومحبيه شهدوا بخلوه من كل معرفة وتجرده من العلم والعرفان

ان يعتني بالكتب القديمة المنسوخة وان يجلدها تجليداً حسناً وان يعمل كل ما من شأنه حفظها من أيدي العبث . كذا يجب على الذين يقرأ كتاباً للامبراطور ان يمزج كلامه ببعض شواهد عن اعمال المسيح ويدخل في موضوعه امراً يجر الى الحديث عن الديانة المسيحية وكثيراً ما شدّد هذا البطريرك الوصية على المسيحيين المستخدمين في الدوائر الامبراطورية بمراعاة شروط النظافة وحسن الهندام وان تكون دلائل الفرح والابتهاج ظاهرة على سيماتهم وعلائم الهيبة والوقار واضحة في ملامحهم وعلى وجوههم

ولنعد الآن للبحث عن اصل هذا الامبراطور وفصله الذي توسم فيه المسيحيون المصريون كل خير وبركة فنقول :ـ

ان الذي ينظر الي اسم هذا الامبراطور يظنه يونانياً او رومانياً ولكن اسمه في الحقيقة لقب اخذ من مدينة في دلماطية هي مسقط رأس أمه وذلك لانه ولد عبداً من والدين كانا تحت رق العبودية الا انه اظهر من نعومة اظفاره طمعاً اشعبياً وحذقا طبيعياً في طلب التقدم والرفعة كما انه كان يشك كثيرا في الوسائط التي استعملها لنيل غرضه الذي يسعي اليه ولقد تقدم ديوكلتيانوس تقدما سريعاً في الرتب العسكرية الى ان عين قائداً للحرس في الوقت الذي مات فيه الامبراطور نومريانوس في مدينة خلكدونية عند عودته من حرب الفرس كما مر بك . فلما مات نومريانوس هذا دبر حيلة محبوكة الاطراف بها جمل قواد الجيش الذين كانوا في

الحرب مع الحكام الرومانيين ان يصادقوا على انتخابه امبراطوراً فتم له ذلك . ولما استتب له الامر افتتح حكمه بقتل رجل كان يخشى من مطالبته اياه بسرير المملكة ويخاف ان يصيبه شر منه ولذلك اتهمه بانه القاتل لنومريانوس سلفه فجيء بهذا الرجل المسكين امامه وهو مقيد بالاغلال والسلاسل وحوله جمع يصخبون ويصيحون فامسكه وذبحه بيده ذبحاً دون ان يعمل معه تحقيقاً او ان يحيله على محاكمة بل هدر دم الرجل هدراً وبعد مضي سنتين على هذه الحادثة رأى ديوكلتيانوس انه يصعب عليه تنظيم هذه المملكة بمفرده بينما هي مملكة واسعة الاطراف اعتاد شعبها عدم الخضوع بسهولة للذين يغتصبون استقلالهم ويفقدونهم حريتهم فلذلك اشرك معه في ادارة المملكة مكسيميان وهو رجل أمي كان مثله كمثل ديوكلتيانوس في انه ترقى سريعاً في الرتب العسكرية الى ان صار قائد فرقة وذلك لحذقه الطبيعي ومهارته . فلما عينه ديوكلتيانوس وكيلا له اعطاه لقب امبراطور المغرب وبعد هذا التعيين بست سنين شعر الامبراطور الروماني بضرورة تعيين وكيلين له ولشريكه فعين قسطنطينوس وكيلا لمكسيميان وهو رجل من عائلة طيبة وعين غاليروس وكيلا لنفسه وهو رجل راعي قطعان وسمى هذين الوكيلين قيصرين واضطرهما ان يطلق كل منهما امرأته ويقترن بابنة مولاه لينال بذلك الترقي والرفعة

اما هؤلاء الامبرطرة والقياصرة فكان لديهم شغل خطير في انهم يعملون للدفاع عن سلامة المملكة التي كانت تنحل تدريجياً وتستقل ولاية

منابعد الاخرى وذلك لان الشعب رفض مبايعة عبد ذميم كديوكلتيانوس والاعتراف بانه امبراطور عليهم وكانت كل ولاية من هذه الولايات النازعة للاستقلال تختار عميداً لها من بنيها ليقيم الحروب ويشن الغارات طمعاً في اعادة الاستقلال القديم وكانت اول ولاية نزعت الى الحرية بريطانيا وعقدت لواءها الي اميرمنها اسمه كاراشيوس وتبعتها فرنسا تحت قيادة اليانوس واماندوس ثم قرطجنة تحت يوليانوس واخيراً قامت مصر تحت زعامة اخيلوس واعتقلت البيض الصفاح لتسترد استقلالا لها كان قدمات وراح . والذي يتدبر طول مدة الجهاد في مصر لاجل الحرية وماله من الاهمية العظمي لانه جهاد في سبيل الخلاص من رق العبودية يعجب جداً اذ لا يجد مايشفي العلة عن اخيلوس هذا ولا يعرف شيئاً عنه بينما يراه رجلا عنيداً وبطلا صنديداً ظل تسع سنوات متوالية يقاوم القوة الرومانية ويحتقر سطوتها وعظمتها الى ان مات بعد مدة طويلة في الحرب وبموته خابت آمال مواطنيه ولم يعد لهم امل في الاستقلال . وكل ما نعرفه عن اخيلوس هذا على سبيل التخمين انه مصري النزعة مسيحي المذهب ولو انه يوناني الاسم . وقد مضت ستين سنة بعد هذه الحادثة والمصريون يتضجرون ويتململون من حكم هؤلاء البرابرة المغتصبين الذين انتحلوا لانفسهم لقب امبرطورة رومانيين وادعوا ان المملكة المصرية انما هي ارث لهم لا يصح ان ينازعهم فيها منازع . ولم تسكت مصر طول هذه الستين سنة بل انها قامت ست مرات في اثناء هذه

المدة وهي تحتقل السلاح وتسير خلف كل من يقول بانه قاصد استقلا
وساع في تحريرها ولكنها لم تستفد شيئاً ولم يخشها العدو لانه كان مؤكد
انها تنهزم امامه لما اعده لها من جيش متمرن ولانه استأجر لها عسا
متدربة في فنون القتال لا يقف امامها هذا الشعب المصري الضعيف
الذي اعتزل السلاح من قرون مضت ولم تبق له معرفة بالحروب كما
المصريين لم يكونوا ينتظرون نجدة من الخارج ولكنهم ارتبطوا كلهم م
- اليوناني والمصري والمسيحي والوثني على السواء - لكي يجاهدوا اجهاد اليائس
القانط في نوال الحرية

وقد قضت سنة هذا الكون الطبيعية ان يكون السبق للسر
والنصر للقوي . وتفسير ذلك ان اخيلوس المار ذكره بك كا
قد أخذ طيبة وأقيم ملكاً فيها لمدة أربعة اعوام ذاق فيها المصريو
طعم الحرية الممزوج بعلقم تهديد الرومانيين لهم بينما كان غاليروس غير
نافذ الكلمة لا تتعدى سلطته حدود خيمته ولا يسمع صوته سوى
عساكره ولذلك سعى جهده في الحصول على مركز ثابت وايجاد شهرة
له من العدم فسار بجنوده ضد المصريين واخيلوس عساه يذلهم فيعود
بالشهرة والنصر ولكنه لم يفلح في تدبيره هذا وحينئذ اضطر ديوكليتيانوس
ان يحضر بنفسه ومعه جيش مزبد ومن ثم بدأ الحرب بينه وبين
المصريين او بمعنى اخر بين العلم والنصرانية والضعف من الجهة الواحدة
وبين الجهل والكفر والقوة من الجهة الاخرى

وبعد ان حاصر الامبراطور مدينتي قبطس وبوزيريس حصاراً طويلا تغلب عليهما اخيراً واهلكهما عن بكرة أبيهما ومن ثم سار في طيبة الى ان وصل آخر حدود مصر فعقد معاهدة مع أهالي النوبة والحبشة وتنازل لهم فيها عن الاقليم الواقع بين اصوان ووادي حلفا على شرط ان يردّوا غارات الاعداء الذين يغيرون على حدود المملكة . وكانت تجدد هذه المعاهدة سنوياً ويقام لها احتفال ديني تنحر فيه الذبائح حسب طقوس الديانة المصرية القديمة وتعمل لها الولائم الفاخرة في جزيرة فيلا التي عسكرت فيها الحامية الرومانية . ولم تزل بقايا السور الذي شاده ديوكلتيانوس في وسط الوادي قائمة الى يومنا هذا . وقد ذكر بعض المؤرخين ان ديوكليتيانوس لم يثق تمام الثقة بمدافعة اهالي النوبة عن الحدود المصرية فاتفق معهم فيما بعد بان يدفع لهم جزية سنوية ومثلها للبلمبين الذين كان يخشى شر غاراتهم وهم الذين ساعدوا التدمريين قبلاً على افتتاح مصر من جهة الجنوب

ولما اكمل ديوكليتيانوس هذا كله غادر مصر وتبعه جيشه ولذلك تقلص ظل السلطة الرومانية فيها وأوشك بدر قوتها على الافول وعليه التفّ المصريون باجمعهم مرة ثانية حول اخيلوس — الذي كان فرّ من وجه ديوكليتيانوس قبلاً — فقابلته مدينة الاسكندرية بترحاب واجلال بعد ان فاز بالنصر ونال غرضه . وقد يصعب على الباحث تحديد مدة استقلال مصر تحت حكم اخيلوس ولكن البعض زعموا ان

مصر ظلت مستقلة من ست سنوات الى تسع وبنوا ظنهم هذا على أن
ديوكليتيانوس لم يعد لمحاربة مصر وارجاعها لسلطته الا بعد ان قضى
وقتاً طويلاً في رومية كانت مصر في أثنائه تستنشق نسيم الحرية
المنعش

فلما قدم ديوكليتيانوس لاخضاع مصر زاد شقاؤها وعظم بؤسها
ومصابها . فانه بينما كان اخليوس في الاسكندرية يجني ثمار انتصاره
داهمها ديوكلشيانوس قاصداً افتتاحها فبدأ اولاً بتشديد الحصار عليها
بان حوّل مجاري المياه التي تشرب المدينة منها ولم يبق شك في انتصاره
عليها ما دام قد قطع كل صلة بينها وبين باقي مصر وما دام هو قادراً
على ايجاد كل ما يحتاج اليه من مؤونه وذخيرة بواسطة البحر المتوسط
وبينما كان ديوكلتيانوس يحاول أخذ الاسكندرية ويقاتل المصريين
ليسلبهم استقلالهم كانت الامم الاخرى الخاضعة للسلطة الرومانية تجاهد
مع الامبراطرة الرومانيين شركاء ديوكلتيانوس دفاعاً عن حياتها
واحتفاظاً على وحدتها واستقلالها وقد رشى هذا الامبراطور النوبيين
والبلميين ليكونوا على الحياد فلا يمدون يد المساعدة لمصر وكان حرب
ديوكلتيانوس السابق لهذا قد أورد مصر موارد الخراب والدمار وحرمها
من ملكها الذي سجنه في الاسكندرية فلذلك لم تقو هذه المرة على
مقاومة طويلة فان الاسكندرية بعد ان مضى عليها ثمانية شهور في حرب
عوان يدفعها اليها اليأس سلمت للامبراطور وأخذ اخيلوس أسيراً ثم

حكم عليه بالموت . قيل ان ديوكلتيانوس اغتاظ جداً من مقاومة الاسكندرية له وحنق من استبسالها في حربها معه فأقسم ايماناً مغلظة ان لا يكف عن ذبح اهليها حتى تجري دماؤهم كالسيل المنهمر في الشوارع ويبلغ ارتفاعها الى ركبة حصانه قصاصاً لهم على عنادهم وعدم استسلامهم فذبح عشرات الالوف من المصريين وجرى دمهم كالغدران في الازقة والشوارع الى ان شبعت نفس ديوكلتيانوس بهذا المنظر الذي تشيب من رؤيته الاطفال فانتهز فرصة سقوط حصانه عند ما عثر بالجثث المكومة فاوقف الذبح لانه اعتبر عثار جواده علامة من السماء على اتمام هذا الانتقام وهو لم يكن ليكف مطلقاً عن عمله هذا لولا ان دواع سياسية خطرت بباله فوجد له مخرجاً من الحنث بقسمه الذي أقسمه فكف عن خراب المدينة وذبح كل سكانها . وقد زعم البعض ان العمود المنفرد الذي لم يزل الى الآن قائماً في اطلال الاسكندرية القديمة المعروف « بعمود السواري » اقامه الوطنيون هناك او نصب بامر الامبراطور نفسه في هيكل سيرابيس ليكون تذكاراً لهذه الحادثة المشومة الا ان الابحاث الحديثة التي عملت في الاسكندرية لا تثبت صحة هذا الزعم . اما ديوكلتيانوس فعرف كيف يتصرف في مصر فقضى فيها وقتاً ساكناً هادئاً ولم يصب جامات انتقامه على رأس هذه البلاد الشقية الا بعد بضعة اعوام ولكن هذا الانتقام الثاني كان صارماً جداً لا مثيل له بين أعمال الانسان الوحشية

ولما رأى بعض الاشخاص الذين كان قد حكم عليهم بالموت او بالنفي ان ديوكلتيانوس ينوي بهم شراً تركوا مصر وفروا الى بلاد اخرى . وقد بدأ ديوكلتيانوس حينئذ في ابطال سبك النقود المصرية القديمة ولكن هذا لا يعد شيئاً في جانب المصيبة العظمى التي اصابت مصر بضياع كتبها العلمية القديمة التي كانت اثمن الكنوز عندها . فان هذا الامبراطور الجاهل الذي كان عقله مفعماً الخرافات والاوهام ظن ان المصريين قادرون بواسطة علم الكيمياء ان يحولوا كل المعادن الاخرى الى ذهب وهاج وان هذه هي الطريقة الوحيدة التي جمعوا بها مالا طائلا صرفوه في المدة التي كانوا يجاهدون فيها لاستقلالهم وحريتهم . فبناء على هذا الفكر السخيف - الذي يوجد كثيرون يعتقدون به الآن - امر بتسليم جميع هذه الكتب اليه وقد نفذ الامر رغماً عن احتجاج المصريين وتوسلاتهم وتضرعاتهم فاخذ هذه المجلدات العلمية وحرقها هذا الامبراطور الغر الغشوم باحتفال حافل وهي ولو انها تحتوي على بعض امور وهمية واغلاط غير جوهرية الا انها لو بقيت لكانت أحسن ما يقتنيه العالم في علم الكيمياء وفي علوم اخرى مهمة

وبعد هذ بقليل توفي بطريرك الاسكندرية الذي ربما قاسى كثيراً من هذه المصائب التي مرت على ابنائه . وقد يصعب التثبت من معرفة الذين رأسوا المدرسة اللاهوتية بالترتيب في ايام الاضطرابات هذه وقد يمكن معرفة اسماء الذين اداروا حركة هذه المدرسة ولكن تعاقبهم الواحد

بعد الاخر لا تسهل معرفته الا انه يحتمل ان يكون اخيلاس قد خلف ثيوغنوسطس وانه تعين بامر من البطريرك ثيوناس وانه رقي كرسي البطريركية بعد ذلك بمدة طويلة في اثنائها توالي بطرس وسيرابيون على رئاسة المدرسة اللاهوتية . ويقرب من الظن ان اخيلاس هذا فعل ما فعلها كليمنضس قبله في انه ترك الاسكندرية اوقات القلاقل والحروب وحل محله بطرس اثناء غيابه وقد ورد ان البطريرك ثيوناس مات سنة ٣٠٠ ب . م وخلفه بطرس هذا الذي كان حينئذ شاباً بالنسبة الى ثيوناس وكان ايضاً متزوجاً وذا بنات

وقد ظلت مصر ثلاث سنوات هادئة مطمئنة (١) ومن ثم عصفت زوابع المصائب التي تركت الكنيسة على شفا جرف هار وقامت ريح صرصر امطرت على الامة المصرية بلايا ورزايا لم تقم لها قائمة بعدها

الفصل الثامن عشر

تاريخ الشهداء سنة ٣٠٣ ب م

لا ريب في ان الاضطهاد الذي احدثه ديوكلتيانوس وكاد يقضي على مصر قضاء مبرماً لم يكن محصورا في هذه البلاد فقط انما كان بدء مشروع خطير يقصد به محو آثار الديانة المسيحية من على وجه البسيطة

(١) قال يوحنا النيقاوي في تاريخه ان الاضطهاد بداء في مصر عقيب اخماد نار عصيانها . وهذا القول قريب من الصواب كما انه ازاح الستار عن بعض العقد التاريخية فيما يتعلق بالشقاق الذي احدثه ميليتوس في مصر . وقدمر بك أن الاضطهاد الذي اثاره ديشيوس بداء في مصر قبل صدور الامر الامبراطوري بشأنه بسنة كاملة

ولان بطانة هذا الامبراطور العاتي ومعيته لم يكونوا يهتمون باظهار الحقائق له فيما بعد - وجهله موصوف في الذي مضى - بل اوهموه ان القوة والمقاومة التي صادفها في الشعب في مصر وعدم رضوخهم له انما منشأها الديانة المسيحية الشديدة المراس التي تدعي التهذيب والمدنية اكثر من دعوى المملكة الرومانية بهما والتي تدين لاله قدير وتطيعه وتقول انه أعلى من الامبراطور الروماني وارفع وتنكر ان هذا الامبراطور نائبه . والذي زاد هذا الامبراطور ارتياباً في امر الديانة المسيحية ما شاهده في فرنسا وبريطانيا وفي شمال افريقيا من سعي هذه الشعوب لنوال الاستقلال كما تسعى مصر ومن ان الباعث لهذا السعي هو سبب واحد ومحرك واحد هي الديانة المسيحية . ومما زاد هوسه وجنونه ان غاليريوس (١) وكيله جسم له الامر وكبره كما ان المنجمين والعرافين الذين دعاهم ديوكلتيانوس مرارا لينبئوه بما يكون في مستقبله قالوا انه يعسر عليهم اغراء الارواح على مجاوبتهم واظهار مكنونات الغيب ما دام ان قصر الامبراطور مفعم بجماعة الكفرة (يقصدون بذلك المسيحيين) الذين وجودهم في القصر يمنع تجلي الارواح وظهورها

(١) مما ينبغي ذكره هنا انصافاً لديوكلتيانوس ان الاضطهاد المنسوب له لم يصل درجة الفظاعة والقسوة الا وقت جنونه الذي اعقب تنازله قسراً وتركه غاليريوس يتصرف كيف شاء نائباً الفعل لديوكلتيانوس . وقد صدر أمر في البداءة كان صارماً شنيعا ثم تلاه ثان وثالث في ظرف بضعة اسابيع يتضمنان سجن جماعة الاكليروس أولا ثم اجبارهم على أن يذبحوا للاوثان بواسطة العذابات المريعة وكان ذلك نتيجة نار شبت في قصر الامبراطور اتفق جمهور المؤرخين المعاصرين بانها اضرمت بامر غاليريوس نفسه وعزاها الى المسيحيين وبذلك اقتنع ديوكلتيانوس باتخاذ الطرق اللازمة ضدهم . وقد صدر أمر رابع بينما كان ديوكلتيانوس معتوهاً وبلغ الاضطهاد حده بعد تنازله

ولما امتلأ عقل ديوكلتيانوس بخوف ناتج من خرافات عقيمة ولاعتبارات سياسية ايضاً امر باصدار منشور شديد اللهجة ضد المسيحيين وذلك في ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣ ب.م (وهو يوم عيد عند الوثنيين) ولما صدر هذا المنشور كان ديوكلتيانوس وغاليريوس في نيكوميديا يطلان من القصر لينظرا بدء تلك الحادثة المشؤومة التي استمرت تسع سنوات كاملة . وقد بدأ هذا الاضطهاد بان سار الوالي بمشهد حافل الى كنيسة نيكوميديا الكبرى يصحبه جم غفير من الموظفين والكتاب وجماعة من حاملي الفؤوس فكسروا الابواب واحرقوا جميع كتب الكنيسة وستورها ثم اخذ العمال في هدم الكنيسة بالفؤوس والاثقال الى ان ساووها بالارض ولم يتركوا فيها حجراً على حجر الا ونقضوه . اما المنشور السابق ذكره فصدر في ثاني يوم لهذه الحادثة وعلق في الاسواق والاماكن العمومية وهذا نصه :ـ

(١) يجب هدم جميع الكنائس وازالتها من الوجود

(٢) يجب احراق كل الكتب المقدسة

(٣) جميع المسيحيين الموظفين في خدمة الحكومة لا يجردون من وظائفهم فقط بل يحرمون من حقوقهم الوطنية ايضاً (وذلك لكي يتسنى لاعدائهم ان يذيقوهم انواع العذابات واشكال القسوة)

(٤) كل المسيحيين الغير موظفين يصيرون عبيداً ارقاء

وقد يمكن للفطن ان يتصور مقدار ازدحام الناس في الاسواق

لقراءة هذا المنشور . فكان المسيحيون عند سماعهم هذا الخبر المشؤم ينسلون من وسط الجمع لكي يختبؤا او يفروا هاربين ولو ان املهم في هذا الهرب كان ضعيفاً . اما الوثنيون فلم يفرحوا لهذا الخبر بل بالعكس كانوا يريدون المدافعة عن اخوانهم لولا انهم خافوا الشبهة والريبة . قيل ان مسيحياً جريء القلب شديد العارضة اقتحم الجمهور المزدحم في السوق وتقدم ليقرأ هذا المنشور فلما علم بما فيه مد يده بسرعة البرق الخاطف واخذ هذا الامر الامبراطوري ومزقه شذر مذر وذره في الهواء وقد فعل ذلك بغاية الشجاعة والحزم بينما المتفرجون وقفوا مندهشين كأن على رؤوسهم الطير . اما هذا الباسل فقد القي القبض عليه في الحال وذاق الوان العذاب المر وحينئذ احرقوه حياً في نار ضعيفة اللهيب لكي يطول عذابه كثيراً

وقد جاء في روايات العامة ما يثبت ان هذا الشهيد المار ذكره هو مار جرجس الشهير الذي يعد الآن عميد القديسين في البلاد الانكليزية ولا يوجد سبب يدل على عدم احتمال هذا القول الان الحكايه الآنفة لم يرد لها ذكر في الروايات المصرية المنقوله عن مار جرجس . فقد ورد في هذه الروايات المصرية حكاية غريبة عن التنين ومار جرجس مما حدا بالبعض الى الظن ان هذه الحكاية هي من اوضاع برسوس الروائي الشهير وضعها كرمز على حالة المسيحي في هذا العالم وجهاده فيه . اما كلمة « تنين » فكانت لقباً اطلقه المصريون على ديوكلتيانوس وجعلوا

وجه الشبه بينهما الخصام الشديد الذي استحكمت حلقاته بين هـذا الامبراطور وبين ذلك الشهيد الباسل الذي قاومه مقاومة شديدة واخيراً فاز عليه واخضع سلطة وقوة ارادته تحت موطيء قدميه . هذا كلما يتعلق بمسألة التنين الذي اقترن ذكره بتاريخ مار جرجس والذي يتصفح الروايات القديمة على صحتها لا يجد ادنى خبر عن وجود تنين حرفي او عن مقاومة جرت بين هـذا القديس وبين اي حيوان آخر . اما الرواية الصحيحة التي نحن في صددها فتقول ان هذا الامبراطور كان ممثلا في صورة كأنه ملك المسكونة برمتها وتحت يده ثمانية ملوك خاضعة له . وقد جاء فيها ايضاً انه بعد مضي ثلاث سنين على منشور الامبراطور الذي ذكر قبلا لم يكن احد يتجاسر ويقول انه مسيحي خوفا من العذابات المرة التي كان يتوعدهم بها ديوكلتيانوس . اما عن مار جرجس فقد ورد فيها انه وهو بعد ضابط صغير في الجيش طلب الى مدينة الاسكندرية ليرقى الى درجة اعلى فلما مثل بين يدي رؤسائه لم يسعه السكوت بل قال جهاراً انه مسيحي . فعند ما سمع الامبراطور ذلك لم يشأ قتله حالا بل مد له في اجله حرصاً على حياة ضابط امين مثله وكان دائما يجدد العفو عنه ويعده بالترقي والتقدم اذا هو اطاع الامر وانكر المسيح . ولم تسلم حكاية مار جرجس الصحيحة من النسخ والابدال لانه يحتمل ان كاتباً من المذهب الاريوسي (نسبة لاريوس الهرطوقي) وقعت في يده هذه القصة بعد زمن ما فادخل فيها ما قلب وضعها وعلق عليها من الشروح

والحواشي ماوافق غرضه الذي قصد به نسبة فضائل وكرامات مارجرجس المصري الى مارجرجس الاريوسي الروماني الذي جاء بعده كما سيجيء وقد صادف عمل هذا الكاتب بعض النجاح في اوائل الامر ولكن لم يلبث هذا النجاح ان انعكس من وقت ما تلاشت الطائفة الاريوسية من مصر واضمحل ذكرها واصبحت الكنيستان او الثلاث التي كانت تكرست باسم مارجرجس الاريوسي (١) تنسب الى مار جرجس المصري وتقول بسيادته عليها وصارت هذه الكنائس ملأى بصور تمثل حكاية التنين القديمة العهد وهي حكاية لا علاقة لها مع هذا او ذاك كما أسلفنا . في هذه الصور ترى مار جرجس راكباً جواداً أصيلاً مطهماً وقد اغمد سيفه في تنين (٢) وحشي كما يسميه اليونان والمصريون وخلص الاميرة من انيابه كقول برسوص المار ذكره ولكن الروايات المصرية القديمة لم يذكر فيه تنين او أميرة بل ان التنين كان لقباً للامبراطور كما قلنا وكان مار جرجس يلقبه به اما هذه الاميرة فكانت احدى محظيات الامبراطور التي كانت

(١) قيل ان الكنيسة اليونانية المسماة باسم مار جرجس الموجودة في قلعة بابلون (بمصر القديمة) كانت مكرسة قديماً باسم مار جرجس الاريوسي وكان له كنيسة أخرى في جرجا

(٢) لا يعرف شيء عن صفة الحيوان الذي صنفت عنه قديماً حكاية التنين . وقد ترجم في سفر التكوين « حوت » ويشيرون عنه في مصر تارة بتمساح واحياناً بتمساح مجنح واحياناً بحية عظيمة هائلة

قد حبست ليلة كاملة مع هذا الشاب الباسل بعد ان رفض انكار المسيح بقصد ان يؤثر خداعها وكلامها اللين في عزيمته التي لم يزدها العذاب الا ثباتاً ورسوخاً . فلما ادخلوا هذه الحظية الى سجن مار جرجس ذهب الى احدى زوايا الغرفة التي كان مسجوناً فيها وجثا على ركبتيه يصلي لله الى ان جاءت هذه الاميرة وطلبت منه بلطف ان يقول لها بصوت جهوري ما كان يتمتم به في صلاته . فاخذ صاحبنا يشرح لها كل ما يختص بالمسيح وصلبه وموته وقيامته فأثر فيها كلامه تأثيراً عميقاً . فلما بدأت تباشير الصباح اقبل رجال الامبراطور لاخذها اليه فلم يكن من الفتاة الا ان أعلنت بصريح اللفظ بانها صارت مسيحية تماماً ولذلك صدر امر الامبراطور باعدامها في الحال فأعدمت (١)

وقد يحسن هنا الرد بابسط عبارة على الذين ذهبوا مذهب العلاّمة رينولدس في القرن السابع عشر الذين اجتهدوا حينئذ في التوفيق بين مار جرجس قاتل التنين وبين مار جرجس الآريوسي . فان مار جرجس الآريوسي لم يمت حتى سنة ٣٦١ ولم تبن كنائس باسمه الا بعد موته بزمن . اما مار جرجس المصري فقد كرّست كنائس باسمه قبل ذلك بكثير اي سنة ٣٤٦ ب . م

(١) في واحة برقا وجدت في القرن الثالث عشر كنيسة لمار جرجس قيل انها تضم عظامه . وزعموا ان رأسه موجودة في ليدا ويقول أهل الواحات ان جسده أرسل اليهم بعد استشهاده بمدة طويلة للاحتفاظ عليه

كذا قد عمّ الخلط في مصر الآن بين قديستين ولم يعد احد يميز بينهما حتى خيف كثيراً ان حداثة عهد الواحدة بالنسبة للثانية وعدم معرفة شخصيتها يمحى ذكر الاخرى . ذلك ان كل غربي سمع عن القديسة كاترينا التي من الاسكندرية بينما قليل من الفرنجة لا يعرف عن الست دميانة سوى اسمها فقط وهي العذراء الشهيرة التي تكرمها مصر وتحترمها ولذلك تجد صورتها مرسومة في كل كنيسة ويندر من لا يعرف تاريخها تفصيلا بين المسيحيين المصريين . فاذا سلمنا جدلا ان القديسة كاترينا وجدت في مصر - وهو امر مشكوك في صحته - فقد يمكن ان تكون هي القديسة تاوضورا بعينها وهي التي استشهدت في الاسكندرية في الزمن الذي يقولون ان القديسة كاترينا استشهدت فيه . ويوجد محل للنظر في ان تاوضورا كانت تسمى هيكاترينا قبل اعتناقها الديانة المسيحية - وهو اسم مشتق من اسم الآلهة هيكات ثم أبدلته باسمها الحالي وقت عمادها . كل هذا ظن فقط ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي ان الكنيسة المصرية لا تعرف القديسة كاترينا ولم تسمع عن اسمها قط الى ان جاء الروم الكاثوليك هذه الديار واذاعوا خبرها فيها لتوهمهم بانها مسقط رأسها وكان ذلك بعد الزمن الذي خيل لهم انها استشهدت فيه بعد قرون

وقد يحدث كثيراً انه عندما يفد السياح الافرنج الى هذه البلاد يذهبون لمشاهدة الكنائس المصرية ويسألون عن صورة القديسة

كاترينا فيضطر الترجمان ان يشير لهم الى صورة الست دميانة وهي أشهر عذراء استشهدت والتي لا يعرف القسوس شيئاً عنها فيراها السياح مرسومة وبيدها سعف النخل تحيط بها أربعون راهبة من أترابها .

(قالت المؤلفة) : وقد اتفق لي من مدة مضت ان زرت احدى الكنائس الكبرى في القاهرة وسمعت القس يشير الى صورة الست دميانة كأنها صورة الست كاترينا . فلما رأيت منه ذلك ابتدرته بالسؤال قائلة : كيف تقول هذا القول ؟ أليست هذه صورة الست دميانة ؟ . فاجابني القس بوجه شاحب مقطب : « ماذا عساني أقول غير هذا ؟ نعم ان جنابك الفخيم تعلمين انها الست دميانة ولكن السائحين لا يعرفون شيئاً عنها فاذا قلت لهم انها الست دميانة لا يفقهون قولي ولا يفهمون وقد يقولون لي انها الست كاترينا وانا لا اعرف اكثر من هذا ولا يسعني مجادلتهم وقد تكون كاترينا كلمة انكليزية معناها دميانة !!! ولذلك فانني اقول لهم انها كاترينا وهم راضون بقولي ومن ذلك الوقت اتضح لي أن تلك الصورة الموجودة في الكنيسة أوماً اليها — وهي الكنيسة الوحيدة تقريباً التي يزورها السياح — يقولون عنها انها القديسة كاترينا وقد وجدت هذا الاعتقاد شائعاً في الاسكندرية فيما بعد ذلك لان الروم الكاثوليك بنوا كنيسة في هذه المدينة وكرسوها باسم القديسة كاترينا وشاركهم في ذلك الاقباط الكاثوليك واصبحوا يحجون اليها . قالت المؤلفة وقد تمكنت من زيارة الكنيسة القبطية الوحيدة في الاسكندرية وهي التي أعيد بناؤها

من عهد قريب فوجدت ان الست دميانة قد رسمت فيها بشكل حديث تحيط بها الاربعون راهبة ولكنها ليست ماسكة سعف النخل في يدها بل هي في وسط عجلة مرسومة حولها . فلما رأيت اسم الست دميانة منقوشاً على الصورة استفهمت لماذا صوروها محاطة بعجلة كالقديسة كاترينا فكان جوابهم لي « ان جماعة الفرنجة يقولون انها القديسة كاترينا وقد تكون كاترينا كلمة افرنجية ترجمتها دميانة فلذلك رسمنا الست دميانة وحولها عجلة كاترين » !!!*

وقد نصيب الغرض اذا نحن اتينا بذكر شيء عن الست دميانة فنقول : ان كلمة دميانة مأخوذة من مذكر هذا الاسم « دميان » وان هذه القديسة كانت من ضحايا هذا الاضطهاد الذي نحن في حكايته وكانت بارعة الجمال غضة الشباب خصت نفسها بالزهد والتنسك وهي في الخامسة عشرة من عمرها . وكان أبوها مصري الموطن تعين مديراً لاحدى مديريات مصر وابتنى ديراً لابنته على مسيرة ساعتين من بلقاس شمالا (غربيه) حيثما اعتزلت فيه مع راهباتها وصارت رئيسة لهذا الدير رغماً عن حداثة سنها . وقد قدر بعضهم عدد الراهبات اللواتي كنّ في الدير

* (المترجم) هذا ما سمعته حضرة المؤلفة في مصر والاسكندرية عن الست دميانة ومنه يستدل على ان الخطاء والجهل يتفشيان بين القوم ويسريان في عقول هذه الفئة المعلومة اكثر من سريان الحقائق الصحيحة بينهم . وهو عيب فاضح يعيرنا به الافرنج ويقولون ان المعرفة والعلم بعيدان عنا بعداً شاسعاً مادام هذا مقدار علمنا باحوال قديسينا وشهدائنا المشهورين

عندما شبت نار الاضطهاد باربعين راهبة . وكان والد دميانة معتبراً في قومه ذا مكانة عند الامبراطور الذي استعمل معه كل نفوذه الشخصي ليقنعه بان يذبح للاوثان لانه لم يكن يرغب هلاك خادم أمين مثله قل ان يوجد له مثيل في بلاد عمها الاضطراب والقلاقل وكثر فيها أعداء الامبراطور. قيل ان هذا الامبراطور قبل من والد دميانة ان يظهر له اشارة خفيفة تدل على الرضوخ لاوامره في هذا الشأن بدل أن يذبح للاوثان كغيره ومن ثم يعهد اليه الامبراطور تنفيذ أمره القاضي بالاضطهاد في المديرية التي يحكمها هو فيتسنى له حينئذ انقاذ اصدقائه ومحبيه من العذاب بهذه الطريقة . فتردد صاحبنا بين القبول والرفض ولما سمعت دميانة بذلك أرسلت الى ابيها تستعطفه وترجوه وتستحلفه أن يرفض طلب الامبراطور رفضاً باتاً ففعل ابوها كذلك وازدرى بمواعيد الامبراطور واستخف به ايضاً . فلما بلغ ديوكلتيانوس ذلك استشاط غضباً خصوصاً لان فتاة مكسورة الجناح ابطلت كلامه ولم تعبأ بقوله فسكب سخطه ورجزه ليس على الاب فقط بل على الابنة ايضاً والقى القبض على دميانة والراهبات اللاتي معها واضطرهن لان يذبحن للاوثان ولما رفضن ذلك قطعياً وضعن تحت طائلة العذابات القاسية الطويلة المدى ولما لم يعدلن عن رأيهن قطعت رؤوسهن جميعاً . ولم يزل الدير الذي قيل ان رفاتهن موجودة فيه قريباً من بلقاس . ومن الحقائق الراهنة ان المسلمين الوطنيين ـ الذين من سلالة المصريين المسيحيين وارتدوا عن الايمان في أوقات مختلفة ـ

لا زالوا يؤدون الاكرام لست دميانة كما وصل اليهم من أجدادهم فيقصدون مزارها مع مواطنيهم المسيحيين سنويآ ويفدون زرافات ووحدانآ الى ديرها الذي يعد من اجمل الآثار منظرآ في مصر

وقد ظلت نار الاضطهاد مستعرة في انحاء المملكة الرومانية لمدة ثلاث سنوات حيث بلغت منتهى القسوة والفظاعة . وأول امر صدر باثارة الاضطهادات كان في سنة ٣٠٣ ولم تأت سنة ٣٠٤ حتى صدر الامر الرابع المار ذكره بك أصدره غاليريوس عندما كان ديوكلتيانوس مصابآ بالعته والجنون . وهذا الامر الاخير زاد عن غيره في الصرامة والخشونة ولم يقتصر على فريق معلوم من المسيحيين بل عم جميعهم بغض النظر عن العمر وبدون تمييز بين الرجال والنساء ولم يستثن منه ذو حيثية وصاحب مركز رفيع . والذي يريد معرفة درجة ذلك الاضطهاد ومقدار ما قاساه المسيحيون من العذاب عليه بمراجعة الفقرة الآتية التي كتبها يوسيبوس أسقف قيصرية وكان قد جاء الاسكندرية عندما خمدت نار الاضطهاد وعندما كان صدى بلاياه لا يزال يرن في آذان الذين شاهدوه وذاقوا مرارته . ومما يذكر في هذا الصدد ان برسوم العريان الذي نال الشهادة بعدئذ وستأتي حكايته معنا كان اكثر الحكام غيرة في تنفيذ اوامر الامبراطور القاضية بالاضطهاد ولكنه اهتدى واستشهد . ولا يؤخذ من كلام يوسيبوس التالي انه كان في مصر عند حدوث هذا الاضطهاد ولكن يحتمل من كلامه الآتي بانه شاهد الامر بعينه انه يقصد بذلك

ما نظره في فلسطين من استشهاد الكثيرين وموتهم لاجل اسم المسيح مما جعله يقيس ما جرى في صعيد مصر به ويتخذه دليلا على شدة الاضطهاد في هذه الديار وهوله . وهاك ملخص ما كتبه :

انه يعسر على الكاتب الماهر ان يصف مقدار ما تجرّعه الشهداء في صعيد مصر من عذابات قاسية والامات تشيب من ذكرها النواصي فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويخدشون اجسامهم ويقطعونها من الجلد وينكشف اللحم وهكذا يفعلون بباقي اجزاء الجسم الى ان يموتوا اما النساء منهم فكانت تربط احداهنّ في احدى رجليها وترفع في الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد ان يخلعوا عنها ملابسها ويكشفوا كل جسمها وتظهر امام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منها الانسانية وتأباه النفوس الابية . وكثيرون ماتوا بواسطة الاشجار بالطريقة الآتية وهي انهم كانوا يقرّبون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة وضعت لهذا الغرض ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهذين الغصنين ومن ثم يتركان ليعودوا الى اصلهما فهذا يعتدل لجهة اليمين مثلا والآخر للشمال والشهيد بينهما تمزق اضلاعه وتسحق عظامه سحقاً ويتطاير جسمه في الفضاء . ولم يكف لهذه الفظائع اياماً وشهوراً بل كانت تستمر سنيناً طوالا وهي في افظع حالاتها وكثيراً ما كان يصدر حكم بقتل عشرة اشخاص في لحظة واحدة واحياناً يقتلون عشرين رجلا مرة واحدة واحياناً ثلاثين وستين ومرة حكم على مائة رجل

بالموت فماتوا في يوم واحد مع زوجاتهم واولادهم الصغار وذلك بعد ان ذاقوا من العذاب الوانا . قال المكاتب : وقد شاهدت بعيني بينما كنت واقفاً بقرب النطع جماً غفيراً من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة ولكن بطرق مختلفة فكان بعضهم تجز رؤوسهم وبعضهم يحرقون في اتون النار المتقدة حتى ان السيف الذي كانت تقطع به الرؤوس ثلم وفل حده وتحطم تحطيما لكثرة ما سحق من الرقاب وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم من ذبح الآدميين فكانوا يستريحون هنيهة ريثما يتنفسون الصعداء. فمما تقدم يتضح ولا شك اننا نحن شهود عدول على ما شاهدناه باعيننا من الغيرة الخارقة والقوة الالهية الصحيحة والفرح في الروح القدس الذي ملأ قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ابن الله ايمانا متينا جعلهم يقتبلون الموت بصدور منشرحة وثغور باسمة حتى انه عندما كان يصدر الحكم على واحد منهم بالاعدام كان الاخرون يندفعون من كل صوب مزدحمين في المحكمة امام القاضي معترفين له بانهم مسيحيون غير مبالين بما يلحق بهم من عذابات مريعة واضطهادات شنيعة بل كانوا يجاهرون بكل جراءة وشجاعة بديانتهم الحقيقية التي تعلم بوجود اله واحد عظيم خالق السماء والارض والبحر وكل ما فيها . ومن العجيب الغريب انه عند ما كان يصدر الحكم النهائي بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح وتهليل حتى انهم كانوا يرنمون ويرتلون اغاني الحمد والشكر لله الذي اهلهم لان يموتوا لاجله وكانوا يظلون يفرحون ويطربون الى آخر نسمة من

حياتهم عند ما تفارق ارواحهم اجسامهم - نعم ان هذا غريب ولكن الاعجب من هذا كله ان الافراد الذين اشتهروا بغناهم وثروتهم والذين عرفوا بطيب محتدهم وشرف نسبهم وذاع صيتهم في الآفاق خصوصا لانهم برعوا في الفلسفة والعلم ونبغوا في المعرفة والعرفان - هؤلاء كانوا يحسبون كل هذه الامجاد والمزايا من سقط المتاع ويزدرون بها ازدراء في جانب اهمية الدين الحقيقي والايمان الصحيح بربنا ومخلصنا يسوع المسيح »

ولنعد الآن الى ذكر مشاهير الشهداء الذين استشهدوا على يد ديوكلتيانوس في مصر فنقول ان من اشهرهم ميناس او مينا المعروف هنا باسم « مارمينا » فقد ولد من عائلة عريقة في النسب في مدينة نيقيوس وكان أبوه مديراً في احدى مديريات مصر أما مينا نفسه فكان ضابطاً في الجيش عندما دعي لانكار الديانة المسيحية فلما رفض قطعت رأسه ودفن جسمه في اقليم مريوط حيثما بنيت كنيسة في المكان الذي دفن فيه اكراماً له ثم هدمت وبنيت مكانها كنيسة اكبر منها في مدة حكم اركاديوس ويحتمل انها كانت كمكان يستريح فيه الحجاج والمسافرون عند مرورهم من الاسكندرية الى وادى النطرون

ولو ان الموت والاضطهاد وقعا بشدة على الطبقة العالية من المسيحيين في مصر الا ان العمال وجماعة الفقراء معهم لم يمسهم السوء كما مس غيرهم وذلك لان الحكومة كانت في حاجة اليهم لتشغيلهم في مقالع البرفير

ومناجم الزمرد في مصر التي كان يشتغل فيها قبلا المجرمون ومن ثم سخروا فيها المسيحيين عدة سنين كمذنبين وذنبهم هو دينهم . وكان عندما يبتدي الاضطهاد يحكمون على بعض المسيحيين بالاشغال الشاقة مؤبداً خصوصاً عندما كانوا يحتاجونهم للاشتغال في اخراج المعادن وبعضهم سيما اساقفة الكنيسه كانوا يحكمون عليهم بان يشتغلوا طول حياتهم في خدمة إبل الامبراطور واسطبلات خيوله . إلا انه يحتمل ان هؤلاء الاساقفة اقتدوا انفسهم بشروط معلومة وذلك يظهر من قول يوسيفوس عنهم بانهم لم يسوسوا رعيتهم سياسة الجد والاستقامة ولذلك سقطوا الى حضيض المذلة والهوان لابتعادهم عن الحق والكمال فلو كانوا في الاسر وتحت رق العبودية لما قال عنهم يوسيفوس هذا القول ولما كانت لهم ثمت علاقة بالشعب .

وقد ورد في بعض التواريخ ذكر خمسة من اساقفة مصر الذين وقعوا تحت طائلة العذاب المرّ قبل ان يردوا حتفهم . اما تاريخ الشهداء القديم فقد جاء فيه ان عدد الذين استشهدوا في خلال التسع سنين التي ازكى ديوكلتيانوس نار الاضطهاد فيها في بر مصر بلغ ١٤٤٠٠٠ شهيد ولا مشاحة في ان هذا القدر شيئاً من المبالغة والغلو كما ان التقدير الذي قدره بعضهم بعيد عن الحقيقة بالمرة لا يعتد به لانه ذكر عدد الشهداء اقل من الصحيح بكثير . فاذا قال باحث بشناعة الاضطهاد بمصر في ذلك الحين وبكثرة الذين راحوا ضحية فيه قلنا له انظر الى الجم

الوافر الذين ارتدوا عن الايمان والذين خبأوا انفسهم لكي ينجوا من الموت فهؤلاء لا يحسبون في عداد الذين ماتوا وفاتوا . وقد مر بك ان برسوم العريان كان من أشد الناس مقاومة للديانة المسيحية واضطهاداً للمسيحيين وقد ذكر المؤرخ نيل الظروف التي اعتنق فيها هذا الرجل الديانة المسيحية ولكنه لم يذكرها حسب اصلها بل جاءت محرفة ولذلك رأينا من الصواب ان نأتي على شرح الحقيقة نقلا عن اقدم المصادر المصرية واوثقها فنقول :

ذكرنا آنفاً ان العريان كان ضابطاً في الجيش المصري . وكان بين رجال فرقته عسكريان اسم احدهما فيليمون والثاني ابولونيوس وكان أولهما مغنياً والثاني زماراً . وكان هذان العسكريان صديقين حميمين لبعضهما وكانت رغبتهما في الاستشهاد شديدة جداً وذلك لانهما اختارا أن ينالا الشهادة حالا من ان يظلا طويلا في خدمة عدو لدودلدينهما هو العريان وقد يحتمل ان مهارتهما في فن الموسيقى وما كان لهما من المواهب السامية والصفات الحميدة جعلت العريان ان يغض الطرف عن ديانتهما فلم يضطهدهما حالا بل تركهما آمنين . وحدث انه اتضح لهما ان العريان يحب فيليمون المغني اكثر من زميله ولذلك اتفق الاثنان على تدبير الحيلة الآتية وهي ان فيليمون اخذ الزمار والملابس التي لابولونيوس وتزيا بزيه تماماً ثم دخل على العريان بجراءة غريبة واعترف امامه صراحا بانه مسيحي . فلما رآه العريان بهذا الشكل ظنه ابولونيوس بعينه وخطر

على باله انه من الضروري ان يمثل به تمثيلا حتى يكون عبرة لزميله ليمتنع من اقتفاء أثره وعليه اصدر امره للحال برميه بالسهام وقتله وقد كان كذلك . فلما قتل فيليمون مثل ابولونيوس امام العريان كما قتل زميله من قبله فعرف العريان حينئذ بانه قتل احد الصديقين الذي كان يحبه كثيراً وكان يتمنى لو يعيش طويلا فخنق واستشاط غيظاً وأمر بقتل ابولونيوس كما قتل رفيقه . فلما جاء رامي السهام لتنفيذ الحكم على ابولونيوس هذا طاش سهم من سهامه فاصاب عين العريان فادماها وظل مدة طويلة وهو يقاسي العذاب الاليم من هذه الاصابة الى ان شفاه احد المسيحيين وأعاد اليه بصره كالاول . وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها ان الدواء الذي استعمله هـذا المسيحي لمعالجة عين العريان كان دم هذين العسكريين اللذين استشهدا ولذلك لم يسع العريان الا ان اعترف بقوة المسيح وصدق الديانة المسيحية وبرهن على صحة ايمانه بان اطلق سراح جميع الذين كانوا تحت طائلة العذاب والموت في السجون . ولما وصل هذا الخبر الى مسامع ديوكلتيانوس ارسل للحال بطلب العريان وعند وصوله امر بموته فاماته شهيداً

ومع انه يحتمل ان محافظ الاسكندرية كان اكثر شفقة واقل اهتماماً من العريان في تنفيذ الاوامر القاضية بالاضطهاد الا ان الاضطهاد في هذه المدة كان اقسى واشنع من غيره وقد قيل ان البطريرك بطرس اختباء في بادئ الامر كما فعل بعض سلفائه

وعند ما أصيب ديوكلتيانوس بالجنون وعد ان يتنازل عن الملك وذلك في أول مايو سنة ٣٠٥ ولكنه لما عاد صوابه اليه في هذا الشهر نفسه رفض هذا التنازل وسعى ان يقبض بيده على زمام الحكومة باكملها الا ان خلف الوعد هذا لم يرق في عيني غاليروس الذي بذل مافي وسعه ليضطر ديوكلتيانوس الى اصدار امر التنازل الذي وعد به . الا ان (١) موت قسطنطينوس في سنة ٣٠٦ والاضطرابات التي حدثت في المملكة أشغلت بال غاليريوس عن كل شيء حتى ان نار الاضطهاد خمدت في مصر مدة من الزمن . فلما اقترب عيد القيامة لسنة ٣٠٧ اشتغل البطريرك بطرس ـ زيادة عن شغله في اعداد منشور العيد الذي كان يصدر سنوياً ـ بتأليف « قانون التوبة » او هي الشروط التي بمقتضاها

---

(١) قال يوحنا النيقاوي ـ وهو كاتب نشأ بمصر في القرن السابع ـ انه لما اضاع ديوكلتيانوس رشده نفي الى جزيرة تكثر فيها الحراج والغابات اسمها واروس في الغرب . قيل ، كان في هذه الجزيرة فئة من المسيحيين التجأوا اليها فراراً من الاضطهاد . فلما رأوا الامبراطور في حالته السيئة هذه أظهروا له حنواً واشفاقاً وكانوا يقدّمون له الخبز يومياً ويقوتونه الى ان عاد اليه صوابه وحينئذ كتب الى الجيش والى مجلس الشيوخ في رومية يطلب اطلاق سراحه واعادته الى عرشه ولكنهم أبوا عليه ذلك ورفضوا قبوله مرة أخرى فكانت النتيجة ان هذا الامبراطور أصيب بمرض السوداء (الماليخوليا) وظل وقته يبكي وينتحب الى ان ازداد جنونه ثم أصيب بالعمى وبقي هكذا الى ان انتهت حياته ومات ولم يكن احد يعتني به سوى جماعة المسيحيين الذين كان حكم عليهم هو بالعبودية والعذاب والموت

يصير قبول الذين سقطوا أثناء الاضطهاد الى حضن الكنيسة ثانية ـ وقد أتينا عليها هنا بالايجاز تاركين باقي البراهين والشواهد التي اقتبسها بطرس من الكتب المقدسة ليثبت بها مذهبه في كل بند منها وهاك الشروط المذكورة ـ :

(١) جميع الذين زلوا في بدائة الاضطهاد لشدة ما قاسوه من العذاب المريع ثم أظهروا توبة وندامة في أثناء الثلاث سنوات الماضية يجوز قبولهم في الكنيسة يوم العيد الآتي وذلك بعد ان يصوموا (١) اربعين يوماً صوماً عنيفاً

(٢) جميع الذين عثروا في ايمانهم لداعي سجنهم فقط دون ان

---

(١) ان صوم الاربعين يوماً هذا لم يكن في ذلك الحين قانونياً في الكنيسة انما واضع لاجل الذين يرغبون في التوبة اما الصيام الذي كان دارجاً في الكنيسة الى ذلك العهد فكان اربعين ساعة فقط . وقد كتب ايرنيوس مكتوباً في هذا الصدد بعث به الى فكتور يندد عليه فيه لسعيه في ادخال هذا الفرض القاسي الثقيل الى الكنيسة قائلاً « ان جدالنا لا يقتصر الآن على تحديد يوم العيد فقط بل يتعداه الى كيفية الصوم وحدوده . ذلك ان البعض يذهب الى ان يتحتم عليهم صوم يوم واحد وقال غيرهم يومين وآخرين اكثر وبعضهم يحسبون ان اليوم المفروض عليهم انما هو اربعين ساعة نهاراً وليلاً . فهذا الاختلاف الذي نراه بين الكثيرين لم يقع في أيامنا هذه بل نشاء بين الذين سبقونا الذين اذا لم يكن عندهم قانون صحيح يسيرون عليه ابتدعوا هذا الصوم الذي منشاؤه سذاجتهم وعدم اختبارهم وعلى اي حال فحيث انهم كانوا مسالمين للجميع فوجب علينا ايضاً ان نكون على وئام وسلام »

يعذبوا عذاباً شديداً يجب ان تعطى لهم سنة كاملة فيها يظهرون التوبة الحقيقية قبل قبولهم في حضن الكنيسة

(٣) كل الذين ارتدوا عن الايمان لمجرّد الخوف والوهم فقط ولم يذوقوا عذاباً تعطى لهم اربع سنوات ليبرهنوا فيها على التوبة والندامة

(٤) جميع الذين ارتدوا ولم يعودوا يطلبون التوبة والانضمام الى الكنيسة فلا يوجد قانون لهم بل حريّ بالكنيسة ان تبكيهم وترثي لحالهم

(٥) الذين نجوا من العذاب او الموت لتظاهرهم بالبله او الصرع او أي حيلة أخرى تمنح لهم مهلة ستة شهور فيها يكفرون عن سيئآتهم

(٦) العبيد الذين اجبرهم مواليهم للتقدم للمحاكمة عوضاً عنهم ثم سقطوا في هذه التجربة ينبغي ان يبرهنوا على توبتهم باعمالهم في بحر سنة

(٧) الموالي الذين فعلوا ما تقدم تفرض عليهم ثلاث سنين توبة

(٨) جميع الذين عثروا ثم عادوا فاصلحوا خطأهم حالا بان قدّموا انفسهم للسجن وللعذابات يجب قبولهم في عضوية الكنيسة بدون فحص او قصاص

(٩) كل الذين قدموا انفسهم للاخطار طوعاً واختياراً دون ان ينتظروا القاء القبض عليهم او يصبروا حتى يرى ما يحل بهم لاتصح محاكمتهم ومقاصتهم بل يكتفي بتذكيرهم بان المسيح ورسله لم يعملوا

هكذا ولم يلقوا بانفسهم في التهلكة . اما الذين سقطوا من هذه الفئة المشار اليها فاذا كانوا من الاكليروس الذين طلبوا العودة الى حضن الكنيسة فلا يجب قبولهم في الوظائف الكهنوتية ثانية بل يقبلون كاعضاء في الكنيسة فقط

(١٠) اولئك الذين انكروا حيثياتهم واشخاصهم لاجل تشجيع الاخرين وتقوية ايمانهم في اوقات الاضطهاد فهم قد أتوا عملا حسناً فلا لوم عليهم ولا تثريب

(١١) جميع الذين افتدوا انفسهم بدراهم دفعوها فداء عنهم فلا يلامون قط

(١٢) لاشيء على الذين نجوا بواسطة هربهم من الموت ولا قصاص عليهم

(١٣) جميع الذين اجبروا اجباراً لكي يذبحوا للاوثان والذين افقدهم العذاب شعورهم واحساسهم فاصبحوا لا يدركون يجب اعتبارهم في درجة الذين اعترفوا بالمسيح تماماً ماداموا فعلوا مافعلوه بدون ارادتهم. فاذا كانوا من الاكليروس يعادون الى وظائفهم كما كانوا. انتهى

وبعد ان انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنائس الاوربية صادق مجمع طرولو سنة ٦٦٢ على هذه القوانين المار ذكرها وقد ظل هذا القانون الذي دعاه الاجانب قانون الكنيسة الهرطوقية معمولا به في جميع الكنائس الاورثوذكسية في كل العالم التي اقتفت آثار كنيسة

مصر ونسجت على منوالها

وقد يغلب على الظن انه في أثناء هدنة الاضطهاد هذه استفحل أمر الانشقاق الذي كان منشاؤه ميليتيوس حتى استلفت امره الانظار واشغل الافكار وقد اختلف المؤرخون في تجديد مدة وقوعه فقدموا واخروا فيه نحو سنتين او ثلاث . اما ميليتيوس هذا فكان أسقفاً لمدينة ليكوبوليس (اسيوط) وقد وردت عنه روايتان متناقضتان - اولاهما رواها اتباعه ومريدوه والثانية اوردها أثناسيوس الذي كتب عن هذا الشقاق بعد حدوثه بخمسين سنة . ولا ريب في ان الروايتين المذكورتين تقربان من الحقيقة ولو كانتا مختلفتين

اما أثناسيوس فقال ان ميليتيوس قد نجى نفسه في وقت الاضطهاد بان ذبح للاوثان فلم يسع البطريرك بطرس الا أن شكل مجلساً بعد ذلك في الاسكندرية فحكم هذا المجلس على ميليتوس بالادانة والابتعاد عن الوظيفة فعوضاً عن ان يخضع ميليتيوس للحكم انشق من الكنيسة وسار على غير طريقها ولم يكتف برسامة القسوس فقط بل تطرف حتى صار يسيم اساقفة وكانت النتيجة ان ثلاثين من هؤلاء الاساقفة الذين سامهم ميليتيوس صرحوا باستقلالهم عن كرسي الاسكندرية وقالوا بعدم وجود علاقة لهم به . وقد اشتبه في هؤلاء الاساقفة بادخالهم الى الكنيسه تعاليم يهودية وفرائض طقسية من العهد القديم بطريقة غير محسوسة وقد ظهر في الاسكندرية بعد ذلك صديق وظهير لميليتيوس هو آريوس الهرطوقي

المشهور واصله من ليبيا كان قد سامه بطرس شماساً في الكنيسة

اما اتباع ميليتيوس واصدقاؤه فانتحلوا له عذراً على ما فعله وقالوا ان هروب البطريرك بطرس في أبان الاضطهاد وسجن كثيرين من اساقفة الوجه البحري اضطره الى تقديم الذبائح للاصنام ليربأ بنفسه. أما البراهين التي قدمها أنصار ميليتيوس والمعارضات القائل بها أضداده فتنحصر في الاوجه الآتية وهي : ان ميليتيوس فر من السجن ولم يحتمل عذاباً في سبيل الايمان المسيحي وهو عمل لم يأته أحد من الاساقفة رصفائه ثم ان ميليتيوس رسم قسوساً وسام أساقفة لابروشيات أخرى غير أبروشيته وقد عمل هذا رغماً عن الاحتجاج الشديد والاعتراض القوي الذي أرسله له أربعة من الاساقفة بينما كانوا في السجن ثم ذاقوا كأس الحمام ونالوا اكليل الشهادة مع من ناله . وانه بعد موت هؤلاء الاساقفة الاربعة سار ميليتيوس الى الاسكندرية واغتصب وظيفة البطريرك الذي كان لا يزال غائباً وأخذ يتداخل في أعمال البطريركية ثم انه لم يعبأ بجواب التعنيف الذي أرسله بطرس كما انه عند عودة هذا البطريرك وصدور الحكم عليه من المجلس لم يرضخ للحكم بل اظهر ازدراء به وتحقيراً مهيناً ثم صار يقاوم البطريرك ويضاده في كل قول وعمل . وبعد هذا كله ذهب ميليتيوس الى بلدته حيث اعتزل فيها عن كل عمل اما آريوس فسامحه البطريرك ورده ثانية الى وظيفته

ولم تكن هذه المناظرات والمنازعات لتنتهي لو لا ان بداء اضطهاد

جديد وضع حداً لها وجعل الكنيسة تنظر الى هذه المصيبة الحديثة . اما الامة القبطية فلم تكن حينئذ قد عرفت الذي تم لميليتيوس واريوس ومر ذكره بك

فهذا الاضطهاد الجديد بداء في خريف سنة ٣٠٨ب.م اذ أصدر غاليريوس امراً صارماً شديداً يقضي باعادته من جديد وذلك باتفاقه مع ابن اخيه مكسيمين . وغريب في امر حكام الاقاليم الذين بعد ان كانوا في الاضطهادات السالفة يكتفون بتعذيب المسيحي باتلاف احدى عينيه مثلا او بوضعه تحت رق العبودية والذل اذ يشتغل في المناجم المصرية كاسير تجاوز هؤلاء الحكام الحد في هذه المرة وجرى دم الغيرة والحسد في عروقهم من فعل الديانة المسيحية وزاد حنقهم كثيراً ضد المسيحيين الذين كانوا يابون انكار دينهم والاعتراف بغيره . فعظم الخوف والرعب من جراء هذا الاضطهاد ومصائبه وعم القلق والاضطراب واستوليا على مصر مدة سنتين كاملتين فكانت تشبه فرانسا عند ثورتها العظيمة التي حدثت سنة ١٧٨٩ التي دكت بها معالم الاستبداد ومحت آثار الظلم ولكن بعد ان جرت الدماء انهراً . ولسنا في حاجة الآن لوصف طويل لتلك المخاوف والشدائد بل يكفي ان نقول انها فاقت كل البلايا التي سبقتها وقرأت وصفها فيما مر وان الذي زاد النار اشتعالا والداء استفحالا هو مكسيمين دازا ذلك الشكس الشرس والفظ المتوحش الذي اضر بمصر كثيراً كما ان مكسينتيوس ابن الامبراطور مكسيميان اشعل مثل هذه

النيران في اوروبا واوقع فيها اضطهاداً يهول

وحدث في سنة ٣١١ ان الله ابتلى غاليريوس بمرض عضال عز دواؤه وعسر شفاؤه . فلما ازداد به الالم ولم يجد طبيباً يريحه من عذابه او الهاً يشفيه من اوصابه وينقذه مما اصابه سعى سعي الياس القانط في ايجاد سلام وصلح بينه وبين اله المسيحيين الذي صرف غاليريوس هذا كل ما في وسعه وقضى العمر في مقاومته ومحاربته واضطهاد شعبه فاصدر امراً يقضي بعقد هدنة مع المسيحيين وكف الاضطهاد عنهم للسبب المار ذكره وقد ورد نص هذا الامر في تاريخ يوسيبوس وهو مطول مسهب الا ان خضوع غاليريوس وتوبته التي جاءت بعد اوانها لم تفده شيئاً لان الله لا تجوز عليه الحيل ولا يخفى عليه الغش والخداع . فان خبر ارتداد غاليريوس الى الديانة المسيحية عرفه الناس في اخر يوم من شهر ابريل سنة ٣١١ وفي اواخر شهر مايو ذاع خبر موته في جميع انحاء المملكة ولا بد ان يكون مات قبل اذاعة الخبر في المملكة بايام كما هو معلوم فتكون توبة غاليريوس وندامته جاءت وهو على حافة القبر فلم تنفعه شيئاً

قلنا ان غاليريوس اصدر امراً يقضي بايقاف الاضطهاد وقد ذيل هذا الامر بامضاء قسطنطين وليسينيوس النائبين عنه ولكنه لم ينفع ولم يوقف سير الاضطهاد فان مكسيمين دازا ابن اخيه لم يكف عن بغيه وعناده بل بقي يحمي وطيس الاضطهاد حتى ان اهم شهداء مصر وكثيرين من اماجدهم نالوا الشهادة في آخر سنة من سنيه وكان في

مقدمة هؤلاء الشهداء البطريرك نفسه الذي قطعت رأسه فجأة وعلى غرة من شعبه خوفاً من ان يقوم هذا الشعب الذي كان يحب البطريرك حباً مفرطاً ويعمل على خلاصه من يد الحكومة بالقوة والقسر . ومما يدلك على تفاقم الخطب في هذا الاضطهاد ان انطونيوس اب الرهبنة شعر به وحس بثقل وطأته بينما كان منكمشاً في ديره في الصعيد مدة عشرين عاماً او تزيد فخرج من مكمنه كانه من أهل الكهف المزعومين وسار يحث الخطى الى الاسكندرية لكي يعزي الشعب الذي حزن واكتأب لموت البطريرك وقيل بل ان غرضه كان ان ينال الشهادة في الاسكندرية ما دام لم ينلها في الصعيد حيث كان بعيداً عن الاضطهاد في ديره الا ان هذه الامنية لم تتحقق له ولم يستشهد لايقاف حركة الاضطهاد وذلك لان قسطنطين وليسينيوس كانا قد تظاهرا بالعدوان ضد مكسيمين الخامل عديم الشهرة فتحولت انظار هذا من اضطهاد الاخرين الى الدفاع عن نفسه ولكن خانه حظه فهزم في سنة ٣٠٢ شر هزيمة امام عدويه وبعد ان قضى بضعة ايام في حالة الغيبوبة شرب كاس الحمام بان تجرع شيئاً من السم الزعاف

فالى هنا انتهت مدة العشر سنين التي كانت ملاءى بمصائب وبلايا لم تذق مثلها كنيسة مسيحية في العالم . صحيح ان كل امة مسيحية في الارض يمكنها ان تسرد لك حكايات مؤلمة عن اضطهاد وقع عليها قد يكون قاسياً صارماً مثل هذا الاضطهاد الذي وصفناه لك في ما سبق

وصحيح ايضا ان بعد هذه الحوادث بنحو اثني عشر قرنا قام ملك مسيحي (هو فيليب الثاني ملك اسبانيا) وحكم على جميع سكان مملكة أخرى مسيحية (هولاندا) بالموت لاجل ديانتهم ولم يستثن رجلا او أمرأة صغيراً أو كبيراً حتى انه انفذ جيشا لتنفيذ حكمه هذا - نعم كل هذا حدث وصحيح ولكن منذ ما ظهرت الديانة المسيحية في عالم الوجود لم ترعين ولم تسمع اذن باضطهاد شنيع فظيع مثل ذلك الاضطهاد الذي وصفناه لك وهو الاضطهاد الذي من وقته والمسيحيون المصريون يؤرخون تاريخهم الخاص به وهم يذكرونه الآن والقلب مفعم بعوامل الاسف والتفجع على تلك الازمنة القاسية . وهذا التاريخ هو تاريخ الشهداء (١) المعروف عند القاصي والداني

الفصل الثالث عشر

جدال اريوس سنة ٣١٢ للمسيح و٢٨ للشهداء

بعد موت مكسيمين بسنتين وبعد استشهاد البطريرك بطرس بسنة تقريباً شرع المصريون في انتخاب بطريرك جديد لهم فوقع اختيارهم على أخيلاس الذي كان قبلا رئيساً للمدرسة اللاهوتية . أما انطونيوس الذي قلنا انه جاء الاسكندرية لينال الشهادة كغيره ولم يتمكن من نوالها فقد برح الاسكندرية في هذا الوقت ولكنه لم يذهب تواً

(١) ان تاريخ الشهداء - او هو التاريخ القبطي - لا يبتدىء من سنة ٣٠٣ كما يزعم البعض بل من سنة ٢٨٤ ب٠ م وهي اول سنة من ملك ديوكلتيانوس

الى الصعيد حينما كان قبلا بل سار الى الانحاء الجبلية الواقعة بين البحر الاحمر والنيل حيث بني بعد موته ديرا مار انطونيوس ومار بولص ولا زالان موجودين الى الآن في المكان المشار اليه . ولما حط انطونيوس رحاله في هذه البقعة غرس بيده زرعاً في الاراضي البراح الواقعة هناك لكي يقتات منها وكان يشتغل في عمل الحصر وذلك ليكفي تلامذته وأتباعه مؤونة احضار الطعام له وهم على مسافة بعيدة منه . ويظهر ان العناء زاد عليه بعدئذ وكثرت أشغاله كثيراً لانه فضلا عن تعبه في تعليم التلاميذ الذين التفوا حوله في مدة قصيرة فانه لم يدع فرصة تمر دون أن يفيد أهالي الريف ويتحفهم بمآثره كل آونة وأخرى مع عدم وجود رابطة متينة بينه وبينهم وقد كان يبعث برسائل ارشاد ونصح الى الامبراطرة والولاة لعلمه انهم في حاجة شديدة الى نصائحه . ومع انه لم تكن لديه كتب أو اسفار كما انه لم يكن عارفا بلغة غير لغته كما مرّ القول ولكنه كان رجلا يفكر كثيراً ويعلم تعليماً حسناً شأن أهل الغيرة الذين يعرفون انهم خلقوا ليفيدوا العالم وينفعوا بني جنسهم . أما تاريخ حياة انطونيوس الذي كتبه أثناسيوس فقد دخلت عليه زيادات واضافات كثيرة قلبت معناه حتى ظنّ البعض ان أثناسيوس براء منه وانه لم يكتب كلمة واحدة فيه . وقد ظهر كثيرون في هذا القرن التاسع عشر من المنتقدين المدققين الذين زعم بعضهم ان انطونيوس لم يكن له في عالم الوجود وجود وان حياته محض خرافة لا أصل لها وقد تعمق بعض

الباحثين وقال ان ما كتب عنه انما هو رواية تاريخية خلق الروائي مار انطونيوس بطلا لها وليس هي ترجمة حال شخص حقيقي . ولكن المنصف الذي ينظر الى الحقائق بفكر ثاقب ويطرح ظهرياً ما علق بذكر هذا الرجل العظيم من الخرافات والحكايات الغريبة التي تقترن عادة بتواريخ نوابغ العالم — ان الذي يفتكر هكذا لا يجد ندحة لافكار هذا الرجل أو عدم الاقرار باعماله العظيمة التي أتاها في حياته

أما اخيلاس الذي قلنا انه انتخب بطريركا في الاسكندرية فلم يستمر منصبه سوى سنة واحدة حدثت في أثناءها حادثة تستحق الذكر هي قبوله آريوس الهرطوقي الذي كان قد حرمه بطرس سلفه مرة ثانية وظل تحت طائلة هذا الحكم الى ان توفي بطرس فرده اخيلاس الى عضوية الكنيسة بناء على طلبه وزاد ان عهد اليه رعوية كنيسة بوكاليس وهي أقدم كنيسة في الاسكندرية قيل انها بنيت على مقبرة مارمرقس. ولما توفي اخيلاس رشح اريوس نفسه لمركز البطريركية ولكن الاكليروس والشعب اتفقوا معاً على انتخاب اسكندر صديق اخيلاس

وكان اسكندر هذا قد بلغ من الكبر عتياً عند ماسيم بطريركاً وكان أثناسيوس تلميذه المحبوب في السابعة عشرة من عمره . أما الحكاية التي اوردها روفينوس المؤرخ عن كيفية تعلق اسكندر باثناسيوس وسبب ميله له فلا يمكن تصديقها على علاتها الا انه يقرب من العقل ان حادثاً حدث قبل ارتقاء اسكندر اوجد علاقة بينه وبين صديقه

أثناسيوس نلخصه لك فيما يلي :

قبل ان اسكندر كان مرة ينتظر مجيء بعض رجال الاكليروس لتناول الطعام وكان جالساً في شرفة تطل على البحر الذي كان يجري تحت منزله وهو يتفرج على جماعة من الغلمان يلعبون هنالك . وقد احدق بنظره فيهم طويلاً فاتضح له انهم في لعبهم يمارسون الطقوس الكنائسية على اتم اشكالها . وقد ظن انهم ربما يطيلون لعبهم ولا ينتهون منها حالاً ولذلك استدعاهم من على الشاطىء فمثلوا بين يديه بحضور جماعة الاكليروس الذين كانوا قد جاؤا في هذه الاثناء . فلما استقصى البطريرك حقيقة أمرهم زاد استغرابه كثيراً عند ماظهر له انهم أتوا عملاً فوق ما كان يخمّن ذلك لان واحداً من هؤلاء الصبية اسمه أثناسيوس عمّد بعض الاولاد رفاقه الذين لم يسبق لهم عماد حسب الطريقة القانونية المستعملة في الكنيسة . وبعد ان تناقش القسوس مع بعضهم في أمر هذا العماد قرّ رأيهم اخيراً على الاعتراف بصحته ثم صمموا على توشيح اثناسيوس وواحد أو اثنين من الصبيان الذين ساعدوه في اتمام هذه الفريضة لرتبة الكهنوت

وسواء صدقت هذه القصة أو لم تصدق فلا مشاحة في ان أثناسيوس كان منذ نعومة اظفاره صديقاً لاسكندر وانه تعين سكرتيراً له عند ماصار بطريركاً . ولم يمض على ارتقاء اسكندر السدة البطريركية خمس سنين حتى عم السلام كل الكنيسة في ارض مصر برمتها بعد هاتيك

البلايا والمصائب التي اقتحمتها. أما ميليتيوس اسقف اسيوط فقد يستدل من الحوادث التالية انه ظل مدة في شقاقه وعناده ولكن لما كانت اسيوط في ذلك الحين بعيدة عن الاسكندرية بسفر أيام كثيرة فكان يخال للناس انه ساكن في ابروشيته لا يعمل شيئاً يدل على الشقاق. وقد عاد الناس الى منازلهم بعد الفرار وأخذ الشعب يهتم في ترميم الكنائس المنهدمة مع انه لم تكن توجد عائلة واحدة في مصر الآ وكانت تندب عزيزاً أو قريباً لها ذهب فريسة الاضطهاد فتكلّمت القلوب لفقده وكثيرون كانوا يعدّونه في عداد الاموات اما لان عظامهم سحقت لكثرة ماقاسوه من الامات الاضطهاد فاصبحوا كالعدم أو لان عيونهم فقئت تعذيباً لهم ولكن الديانة المسيحية امتدت اغصانها كثيراً في البلاد زيادة عن ذي قبل حتى ان عدداً يذكر من الوثنيين دخلوا الى حظيرة المسيح لما شاهدوه فى الديانة المسيحية من الحق الذي لا ينقض والقوة الروحية التي لا تغلب. ومع كل هذا التقدم كان الشقاق قد بداء يستفحل حتى صار صفة ملازمة للمصريين على توالي الايام واصبح تعريفاً لهم دون غيرهم الى الآن وما سبب هذا الا لان الدم النقي الذي كان يجري في عروق الامة اهرق وكاد ان يستأصل وذلك عند ما قامت تطلب الاستقلال في مدة حكم اخيلوس وعند ما كانت تجاهد لحفظ كيان الديانة المسيحية أثناء العشر سنين الاخيرة لما قام اعداؤها يطلبون اضمحلالها ولذلك لم يبق من المصريين الاحرار الا النذر اليسير لان الذين عاشوا

بعد تلك المحن والاحن وعمروا البلاد انما نجوا من الموت بالمكر والخداع أو بالجبن والخوف وهي صفات تدلك على حيثية هذا الشعب ولم يبق من الكرام سوى جماعة تشوهت اجسامهم ظلوا مطروحين بين اهليهم لا منفعة منهم أو فريق من العمال الذين أستعبدوا ليشتغلوا في المناجم القاصية وقد كانوا يميلون للحصول على مغفرة من الكنيسة لاجل هفوة تصور البعض انهم ارتكبوها ضد الدين الذي بذلوا لاجله دماءهم ولكنهم قضوا حياتهم يقاسون مر الاسر والذل - أما الشقاق الذي أشرنا اليه فقد مضت عليه عشر سنوات اخرى قبلما يتسنى لقسطنطين ان يتداخل لحسمه وفض الخلاف الذي كان قائماً بين اساقفة الكنائس بعد ان اشتدت بينهم الشحناء والبغضاء وذلك لان هذا الامبراطور لم يكن قد صار مسيحياً بعد ولم يكن قد تعمد لانه كان سادس الستة امبراطرة الذين اقتسموا المملكة بينهم بعد تنازل ديوكلتيانوس عن سرير الملك

اما الحوادث التي أوجبت انعقاد مجمع نيقية وما تمّ في هذا المجمع فمعروفة عند الكثيرين اذ أتى على ذكرها جماعة من علماء اللاهوت وشرحوها بالاسهاب فلا حاجة لسردها الآن . ولم تأت سنة ٣١٩ حتى زاد تذمر الاسكندريين وكثر لغطهم ضد البدعة التي كان آريوس يسعى في نشرها وتعليمها للآخرين مما دعى البطريرك اسكندر ان يهتم لاخذ الاحتياط اللازم لصدّها . وكان لما شعر هذا البطريرك بتفاقم الشقاق واتساع حلقة الخلاف في الكنيسة صرف كل عنايته بغاية

ما يكون من الصبر والحكمة ليستميل اليه تلك الجماعة التي انشقت ويعمل على اقناعها بخطائها وضمها الى الكنيسة وذلك بعد ان ينزع من العقول ما علق بها من الاوهام والاضاليل كما فعل البطريرك ديونيشيوس قبله في مسألة الفيوم فعقد اجتماعين حافلين للمناقشة في هذا الموضوع وفض الخلاف بالحسنى ولكنه لم يفلح ولم يأت عمله بثمرة وأخيراً كتب البطريرك رسالة رعوية الى آريوس واتباعه ينذرهم بترك طريق الضلالة التي ساروا فيها والرجوع الى الطريق السوي ولكنه عبثاً حاول إقناعهم ولا بد ان بعض الباحثين يعرفون ان نقطة الخلاف هذه كانت فيما يختص بألوهية المسيح وهي مسألة لم يسبق لها مثيل في الجدل واللدد ولم تكن الكنيسة تعرفها ولا تهتم بها قبل الآن حتى انها اشغلت الاذهان واوجدت احزاباً انحاز اليها الكثيرون وبينهم أولئك الذين كانوا يجنحون الى السلام ويميلون الى الابتعاد عن كل شقاق وخصام .
والذي درس بدعة آريوس هذه درساً مدققاً ووقف على كنهها لا يجزم بان هذا الرجل انكر ألوهية المسيح انكاراً حقيقياً صريحاً ولو انه كان يحاول كثيراً في أزمنة مختلفة ان يدخل معتقده في العقول بكلمات وعبارات كان يمكن ان تصادف قبولاً عند اعضاء الكنيسة . اذاً فالذنب ليس على آريوس بل على فئات اخرى سبقته في ايجاد هذه البدع فاخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير آريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الالوهية حتى انتشر

هذا التعليم وعمّ ولعل سبب هذا هو ردّ الفعل الناتج من شدة تمسك القوم بالامور الروحية واحتفاظهم على معانيها وقوّتها احتفاظاً لم يدعهم يسقطون في أزمنة الاضطهادات المرّة بل كانوا يضحون انفسهم لاجل هذا المعتقد الذي اصبحوا الآن يرفضونه لا لسبب سوى اثبات قاعدة الافراط والتفريط

وكانت نتيجة هذا كله ان البطريرك اسكندر شكل مجمعاً في سنة ٣٢٠ حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة وهو ثالث حكم صدر ضده في حياته . اما آريوس فلم يرضخ لهذا الحكم ولم يعبأ به بل غادر الاسكندرية قاصداً فلسطين حيثما جمع اليه اصدقاء أثر فيهم تأثيراً شديداً اذ استمالهم اليه بكليتهم حتى ان يوساب اسقف نيكوميديا الذي كان رفيقاً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو ومن ثمّ سعى بعد ذلك في استمالة الامبراطور قسطنطين الى هذا المذهب وقد كان الامبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل اليه كثيراً

ولما غرس آريوس غرسه هذا في يوساب اسقف نيكوميديا آب الى فلسطين حيث سمح له يوسيبوس اسقف قيصرية واساقفة آخرون بان يعقد جمعيات دينية في ابروشيات مختلفة ليعظ فيها . فلما احسّ البطريرك اسكندر بذلك ساءه كثيراً فسعى في اتخاذ طريقة فعالة لايقافه عند حدّه ومنع سريان بدعته وهرطقته وعليه كتب رسالة انجيلية محضة الى اساقفة كل الكنائس اوضح فيها الاسباب التي حملته

على حرمان آريوس وقطعه من عضوية الكنيسة وكيف انه يأبى قبوله مرة أخرى في حضن الكنيسة ما دام هو لا يزال يتمادى في غيه وضلاله . ولم تستمر هذه المناظرة طويلاً لان اذهان المتناظرين كانت قد انصرفت الى رعب جديد واضطهاد حديث بدأ حالاً بواسطة ليسينوس النائب الامبراطوري الذي امات دوناتوس اسقف ثميوس في مصر مع أثنين من قسوسه كما ان فيلاس سلف دوناتوس كان قد استشهد قبل هذا الوقت ببضع سنوات . فلسبب هذا الاضطهاد الجديد ولاسباب اخرى حمل قسطنطين على ليسينوس حملة مرة وهزمه في واقعتين عظيمتين حدثتا في يوليو وسبتمبر سنة ٣٢٣ وحينئذ خلا الجو لقسطنطين فنادي بانه اصبح الملك الوحيد للمسكونة كلها وجعل مقر ملكه مدينة بيزانتيوم (وهي اسطمبول او القسطنطينية) وفي هذا الوقت رفع اليه يوساب اسقف نيكوميديا مسألة آريوس فاغتنم هذا الامبراطور فرصة في وسط مشاغله الكثيرة بتدبير مهام الملك كتب فيها مكتوباً ارسله الى البطريرك اسكندر وآريوس معاً وهذا المكتوب اشتهر بما تضمنه من قول سداه المحبة المسيحية الحقيقية ولحمته الاخلاص والولاء

ولكن رغماً عما حواه هذا الخطاب من الحجة المتدلة والكلام المؤثر فان الامبراطور لم يفلح قط في ايقاف هذا الشقاق عند حده لعدم معرفته حقيقة أمره . وكان الامبراطور قد أرسل رجلا اسمه هوسيوس

من كردوقا يحمل ذلك الجواب الى اسكندر فلما آب هذا الرسول من مصر قص على مولاه حقيقة الخبر وأوقفه على جلية هذه المعضلة وعليه أصدر قسطنطين أوامره باجتماع جميع الاساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المشكل ويبتوا فيه حكماً قاطعاً بكل تبصر وامعان. وبناء على ذلك التأم هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥ وفيه كتب أول نسخة من قانون الايمان النيقاوي (١) اعضاءها جميع الاساقفة الحاضرين الاخمسة منهم رفضوا التوقيع عليها. وقد ختم هذا القانون بالحرمان الآتي الذي يسر نا انه امحى من زمن طويل :ــ « ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه وانه لم يوجد قبل ان يولد وانه وجد من لاشيء او من يقول ان الابن وجد من مادة او جوهر غير جوهر الله الآب وكل من يؤمن انه خلق أو من يقول انه قابل للتغير ويعتريه ظل دوران »

وعلى ذلك حرم المجمع آريوس حرما باتا واصدر قراراً بنفسه ونفي الاساقفة الذين ابوا التوقيع على هذا القانون. ثم أخذ هؤلاء الاساقفة يبحثون في أمر الشقاق الذي احدثه ميليتيوس وفي مسألة تحديد يوم عيد القيامة فقر رأيهم على ما يأتي في النبذة التالية التي بعث بها المجمع الى المصريين وهاك هي :

« اننا اذا راعينا الحقيقة نجد ان ميليتيوس لا يستحق اكراما او صفحاً

---

(١) ان القانون الذي صادق عليه المجمع النيقاوي ينتهي بهذه العبارات « نؤمن بالروح القدس » اما العبارات الاخرى التي تتلو هذه الجملة فقد اضيف اليه في زمن بعد هذا

على ما اقترفه من أمر الشقاق الذي احدثه الا ان الشفقة والحنان يحتمان علينا أن نعامله بالرأفة واللطف ولذلك أذن له المجمع بالاقامة في بلدته مسقط رأسه وأمره ان لا يمارس أي وظيفة كهنوتية سواء كانت رسامة أحد او ترشيح أحد للرسامة ويحتم عليه عدم الظهور في أي اقليم او مدينة بهذا المظهر ولا ان يدعي شيئاً حرمه عليه المجمع بل تبقى له صفته الشخصية فقط . اما الذين عينهم هو فى وظائف وتثبتوا فيها بواسطة رسامة قانونية فيجب قبولهم في عضوية الكنيسة بالشروط الآتية وهي : ان تبقى لهم وظائفهم ورتبهم ولكنهم يعتبرون اقل درجه في كل شيء من الاخرين الذين عينهم رئيسنا المحترم البطريرك اسكندر واقامتهم الكنائس الاخرى . كذا لا سلطة لهم على تعيين أو ترشيح من يشاؤن ولا ان يعملوا عملا ما بدون تصديق أحد أساقفة الكنيسة الجامعة الذين يعدون من أنصار اسكندر ومساعديه . وعند موت أحد هؤلاء القسوس الذين سامهم ميليتيوس سابقاً ينبغي تعيين واحد بدله من الذين تنطبق حالتهم على النظامات الحديثة على شرط ان يكون ذا أهلية واستحقاق فيختاره الشعب ويصدق اسقف الاسكندرية على انتخابه . فهذا الامتياز يمنح لجميع الاساقفة على السواء الا ميليتيوس فلا يعطى هذه السلطة نظراً لسلوكه السابق المغاير للصواب والتعقل بل يجرد من كل سلطة وسطوة لاجل طياشته وخيلائه ولانه رجل لا يبعد عليه ان يحدث شقاقاً جديداً مثل الذي اتاه قبلا . فهذه المسائل تهم مصر وكنيستها الرفيعة الشأن على

الخصوص وعليه فاذا سن قانون آخر غير هذا أو حدث رسامة كاهن ليست قانونية فيكون لغبطة الحبر المفضال البطريرك اسكندر حق التداخل في هذا الامر وان يفحصه فحصاً دقيقاً ويبت حكمه فيه لانه ليس بصاحب صوت فقط في الذي يحدث ولكن له الرئاسة العليا والسلطة التامة في تنفيذ أي عمل يريده. ولقد يسرنا أيضاً في هذا المقام ان نخبركم بما قر عليه الرأي في مسألة تحديد يوم عيد القيامة المبارك فان هذه المسألة انتهت بمساعدة صلواتكم وأصبح جميع الاخوة المسيحيين في الشرق الذين كانوا يعيدون هذا العيد مع اليهود تماما يسيرون من الآن فصاعداً على الطريقة التي تسير فيها الكنيسة الرومانية وهي التي نجري عليها نحن أيضا ومن جرى مجرانا من قديم الزمان (١) »

وقد يظن البعض ان شقاق آريوس قد انتهى عند هذا الحد والحقيقة انه بدأ يستفحل الآن

وحدث ان البطريرك اسكندر تنيح بعد عودته من نيقية الى مصر باشهر ثلاثة وخلفه اثناسيوس الشاب التقي المملوء غيرة ونعمة وكان آريوس يعده خصما لدودا له ولذلك استحكمت عوامل الشحناء بينهما مدة عشر سنوات متوالية بسبب بدعة آريوس وبعد وفاة هذا صار العداء

(١) قد سعى بعض اعضاء المجمع النيقاوي بان يفرضوا الرهبنة على كل الاكليروس ولكن طلبهم هذا صادف استخفافا ولم يحز القبول مطلقاً حتى ان بافنوتيوس الراهب وهو اسقف مصري دافع دفاعاً مفحماً ضد هذا الاقتراح واقام الحجج القوية على كل من يعمل للتداخل في مسحرية الديانة المسيحية خصوصاً فيما يتعلق بالزواج والرهبنة

شديداً للسبب عينه بين الامبراطور وهذا البطريرك الاسكندرى كما سترى (١)

الفصل الرابع عشر

البدعة والانشقاق . سنة ٣٢٦ للمسيح و٤٢ للشهداء

لما رأى الامبراطور قسطنطين ان السلام قد مدّ رواقه على الكنيسة والمملكة صرف همه الى اصلاح الشرائع الرومانية وبناء عاصمة جديدة له . وحيث ان اصلاح هذه الشرائع لم يكن له تأثير في مصر فهو لا يهمنا ولا حاجة بنا للكلام عنه اما نقل عاصمة المملكة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) فقد احدث تغيراً في حالة الامة المصرية وقد سبق القول ان المصريين كانوا دائماً يحتقرون السلطة الرومانية وينفرون منها كما انهم كانوا يهزأون بالجنس اللاتيني ويعدونه شعباً جاهلاً وغبي الاصل غبياً ولكن المصريين كانوا يرضخون لهؤلاء واولئك لسبب القوة العسكرية المتحكمة فيهم . والذي زاد كره المصريين

(١) جاء في القانون الذي وضعه المجمع النيقاوي هذه الجملة «حيث ان البعض يصلون وهم راكعين في أيام الآحاد وفي الاعياد الكبرى فقد قرر هذا المجمع المقدس ضرورة الوقوف على الاقدام حين تأدية الصلاة لكي يكون كل شيء بلياقة وترتيب»

للرومانيين حتى صار هذا الكره ضرباً من الجنون (١) هو اعمال بعض الامبراطرة التي كانت وحشية تنفر منها النفس وتستحلي الموت عن البقاء في مثل هذا الذل وهذا ما حدى بالمصريين الى النزوع للثورات وطلب الحرية والاستقلال في مدة حكم ديوكلتيانوس اما قسطنطين فمع انه كان من عائلة ملوكية الا انه لم يكن رومانياً ولا ميالا لرومية بل كان من بلاد السرب التي هي مسقط رأسه . اما امياله فكانت يونانية صرفة يدلك ذلك الى ان المدينتين الواقعتين على جانبي قنطرة هلاس وهما بيزانتيوم وخلكدونية كانتا قبلا مأهولتين باليونان . ولما عزم قسطنطين على بناء مدينة جديدة اختار المكان الذي اسمه « بيزانتيوم » قاعدة لها فعند ما تم بناؤها احتفل بتدشينها احتفالا باهراً وذلك في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ثم امر امراً جائراً هو ان جميع الذين يقصدون استيطان هذه العاصمة الجديدة يجب ان يكونوا من اصل يوناني او مكدوني وكان ذلك بتحريض واغراء من الآخرين الذين استمالوه الى حب اليونان والانعطاف نحوهم كما مر القول . ومعلوم ان مصر كانت تؤدي جزية من الحنطة سنوياً الى رومية فلما بنيت

(١) في مدة حكم الرومان كان من العار على المصري ان يؤدي الجزية الا بعد ان يدمي جسمه من الجلد بالسياط ويحز جلده من شدة الضرب . وقد صار المصريون الى هذه الخطة في عصرنا هذا حين كانوا يعصون الاتراك ويقاومون اعمالهم فلا يرضخون الا للكرباج الذي لم يرفع عنه التقيل عنهم الا في سنة ١٨٨٠ كما هو معلوم

القسطنطينية صارت هذه الاتادة ترسل اليها لا الى رومية . وبالاجمال نقول انه لم يبق في مصر ما يدل على وجود أثر لتلك السيادة الرومانية التي استمرت مدة طويلة مستحكمة في رقاب اهليها سوى طلل واحد خرب وكلة واحدة بقيت من آثار الكلام الروماني . اما هذا الطلل البالي فهو القلعة الرومانية السامقة التي كانت لا تزال دمنها قائمة في بابيلون ومع ذلك فلم يكن المصريون يعتقدون بان هذه القلعة رومانية بل كانوا يصدقون بانها الحصن القوي الخاص بالمسيحيين في ارض مصر وظلوا على اعتقادهم هذا اجيالا كثيرة . اما الكلمة التي كانت تدل على وجود الرومانيين في مصر فلم تكن الا اسم روماني فقط لا يعرف المصريون شيئاً عنه ولا يظنون انه روماني . ومعنى ذلك انه لما بنى قسطنطين الحاضرة الجديدة مزج اسمها باسم رومية فدعى العاصمتين رومية الجديدة ورومية القديمة ولم يتخذ لمدينته اسما خاصاً بها ولكن لم يقتف احد أثره في ذلك واطلق الناس على بيزانتيوم كلة القسطنطينية واسطمبول وهو تصحيف في اللفظ اوجده الاجانب الا ان اسم رومية ظلّ دارجاً في الجزء الشرقي من المملكة ولم يكن يستعمل للدلالة على الرومانيين بل على اليونان والبيزانتيين وزال اسم اليونان القديم من الكلام الدارج وصاروا يلقبون بالاروام ولكن الامة اليونانية خفقت وحدتها وسلطتها في علمها ولغتها فلم يعتورها نقص ثم تدرجت الى ان عادت اليها عظمتها التي كانت لها قبل التاريخ المسيحي فمدت ظل سطوتها على

المشرق لا سيما مصر ولكن باسم « الروم » او الرومانيين وهم أولئك القوم العتاة الوثنيون الذين كان المصريون يحتقرونهم لتوحشهم وهمجيتهم ويخافون قوتهم العسكرية وبطشهم الحربي لان هـذه القوة لم ير العالم مثيلا لها قبل الرومان في ابان مجدهم وعظمتهم . ولا يزال المصريون في وقتنا الحاضر ومن قبله يطلقون كلمة (روم واروام) على اليونان لا على الرومان فهم يقولون (حارة الروم) في القاهرة يقصدون بها الشارع الذي اكثر سكانه من اليونان وكذلك يسمون بطريرك اليونان (البطريرك الرومي) (١)

وبعد تاريخ المجمع النيقاوي بقليل حدث امر محزن مريع لهـذا الامبراطور الروماني اوجد فيه نوعا من الوساوس جعلته متقلب الطبع شارد الفكر طول حياته وهذا الحادث هو قتل ابنه كريسبوس وزوجته فوسطا ولهما حكاية بذيئة شنيعة نعرض عن سردها تأدبا ولكننا نأتي على النتيجة فقط وهي ان فوسطا اتهمت ابن زوجها زوراً بتهمة تنفر منها النفس الابية ثم رفعت امره الى ابيه فاحتد وحنق وتولاه مس من الجنون حتى انه أصدر امره في الحال باعدام ابنه فاعدم . فلما عاد اليه رشده قام ضميره يبكته على هذا التسرع في قتل ابنه ثم ما لبث حتى وقف على

(١) ان هذا الخلط بين اليونان والرومان لم يقتصر على مصر فقط بل تعداها الى كل القسم الشرقي من المملكة الرومانية بذات الاسباب التي شاع بها في مصر . وقد اصبح هذا الخلط عاما الان بين جميع الناطقين بالضاد كما اسلفنا

جلية الخبر وظهر له امر الخيانة التي ارتكبتها زوجته طوعا لداعي الميل الحيواني فامر بقتلها حالا لتنال جزاء ما جنته يداها فاماتها مع انها كانت زوجة له من سنين طويلة . اما اولادها فصاروا ورثة للعرش الملوكي بعد موت صنوهم (اخوهم من ابيهم)

والذي يتتبع سيرة قسطنطين فيما بقي من حياته يرى وجود ميل عنده لاضعاف الضمير وانحطاط في المبادي . قبل انه التمس حلا ومغفرة من الكنيسة ولعل كثرة زيارة هيلانة امه للاماكن المقدسة مرات عديدة وبناءها كنائس متعددة وتأجيلها عماده هذا الامبراطور كلها عوامل للتوبة والحاح في طلب المغفرة عما اقترفه من الذنوب التي كانت نقطة سوداء في تاريخ حياته

ومما يجدر ذكره هنا انه لم يرد في التواريخ التي كتبت في ذلك العهد شيء عن العجائب التي قال مؤرخو هذا الزمان انها حدثت عندما كانت هيلانة تبحث وتنقب في المدينة المقدسة (اورشليم) فقد ذهب جماعة الكتاب الى ان قسطنطين بنى كنيسة ضمن كنائس اخرى في اورشليم في المكان الذي دفن فيه المسيح وان موضعها معلوم عند كل باحث ولكن لا يوجد برهان على انهم وجدوا صليباً في ذلك المكان . وقد عزى بعضهم الى هيلانة بناء عدة كنائس في القطر المصري اخصها كنائس الدير الاحمر والدير الابيض الواقعين على مقربة من سوهاج ولا ريب في ان اكثر هذه الكنائس التي شادتها هيلانة بني على اطلال كنائس قديمة العهد أودى بها الدهر اثناء الاضطهاد الاخير

وفي نحو هذا الزمن تأسست الكنيسة الحبشية وهي تعد ربيبة الكنيسة المصرية وما زالت خاضعة لها خضوعا دينياً لحد الآن . وقبل هذا العهد لم يكن للديانة المسيحية أثر في بلاد الحبشة ولو ان الحبشان يقولون بوجود صلة قديمة بينهم وبين اليهود حتى انهم كانوا يمارسون كثيراً من الطقوس والفرائض الموسوية (١) وحدث انه بينما كان البطريرك أثناسيوس جالساً في مجمع مع زمرة من الاساقفة قيل له ان رجلا غريباً وفد حالا من بلاد الحبشة يرغب في مقابلتهم فأذنوا للرجل بالدخول ولما استقر به المقام أخبره بان اسمه فرومنتيوس ومن ثم اخذ يسرد حكايته على جماعة الاراخنة الموجودين قائلا :-

منذ بضع سنوات مضت شرع ولي امري - وهو فيلسوف من صور اسمه ميروبيوس - في رحلة رياضية لبلاد الهند مستصحباً معه شابين من اقاربه هما فرومنتيوس (المتكلم) واخاه الاصغر واسمه ايديسيوس. وعند أوبتنا من هذه السياحة القينا عصا الترحال في احدى الموانى الحبشية لكي نتزود ماء فلم نشعر الا وهجم علينا اهالي تلك البلاد لينتقموا لانفسهم

(١) توجد رواية قبطية غريبة جداً ورد فيها تفصيل الظروف التي فيها ملكة سبا (اي الحبشة) زارت سليمان الحكيم ، ما تلاها من زيارة ابنها الذي حبلت به منه لابيه سليمان . قيل انه في اثناء الزيارة الثانية انتهز ابن ملكة سبا تغافل سليمان واختلس تابوت العهد بمساعدة اربعة من الكهنة كان قد رشاهم ثم اخذه معه الى بلاد الحبشة . قال روى هذا الخبر على هذه الكيفية اخذ تابوت العهد الى بلاد الحبشة وبقى فيها الى وقت ميلاد ربنا يسوع المسيح

من بحارة في احدى السفن كان قد اساؤا اليهم فانقضوا علينا كالصواعق وذبحوا جمع الاجانب ولم ينج من يدهم الا انا واخي باعونا عبيداً للملك فلما صرنا في حوزته عين اخي نديماً له وجعلني انا كاتم سره ولبثنا عنده على هذه الحالة الى ان اعتقنا ساعة احتضاره وهو على فراش الموت . فالتمست منا ارملة الملك ان نمكث في بلادها لنساعدها على تربية اولادها الصغار فرضينا واقمنا عندهم الى ان اصبحت كل حكومة الحبشة في قبضة يدنا على توالي الايام ولذلك استعملنا كل نفوذنا في رفع شأن الديانة المسيحية في هذه البلاد . ولما جاء الزمن الذي صار فيه ولي العهد راشداً وقادراً على ادارة حكومة بلاده بنفسه فلم يبق لنا حينئذ وجه للاقامة هنالك فرحلنا من عندهم قاصدين وطننا ومسقط رأسنا اما اخي ايديسيوس فسبقني الى صور وانا عرجت على مصر لاسرد هذا الخبر على مسامع جناب البابا (لان بطريرك الاسكندرية كان يلقب في ذلك الحين بابا المشرق ولم يكن بابا رومية معروفا بهذا اللقب حينئذ) ثم التمس فرومنتيوس من البطريرك ارسال اسقف اليهم ليؤسس الارسالية في هاتيك البلاد (١)

فبعد ان استشار أثناسيوس الاساقفة في هذا الامر قر رأيهم على

---

(١) جاء في الرواية المصرية المشار اليها ان مار مرقس نادي بالديانة المسيحية في الحبشة كما في مصر . ويظهر من حكاية فرومنتيوس هذه انه وجد اثراً للديانة المسيحية في هاتيك البلاد عند ذهابه اليها مع الفيلسوف الصوري واخيه

تحريض فرومنتيوس بالرجوع الى الحبشة وأخذ هذا العمل على عاتقه وعليه أعطيت له رتبة كهنوتية وأعيد الى بلاد الحبشة حيثما امضى بقية حياته فيها . ولا يزال الحبشان يحترمونه ويكرمونه وهم يسمونه « ابو سلامه » او اب السلام (١)

كذلك البطريرك أثناسيوس انتهز فرصة السلام والهدو هذه فجعل يفتقد رعاياه ويسأل عنهم الى ان وصل في سياحته هذه لحد اصوان وكان في اصوان راهب مشهور اسمه باخوميوس هو مؤلف كتاب « قانون الرهبنة » القديم كان ضابطاً في الجيش فترك وظيفته ليصير مسيحياً بناء على الغيرة والحمية التي فيه . ففي هذه البلدة اجتمع باخوميوس هذا على راهب أقدم منه اسمه بلامون اشتهر بالتقوى والورع في البلاد المجاورة لاصوان . وكان هذان الراهبان يحصلان على قوتهما الضروري بواسطة صنع ملابس من الشعر كان لبسها عاماً في مصر . ولم يمض زمن طويل حتى التف حولهما جمهور من العزاب وكارهي الزواج حتى صاروا فئة كبرى جاءت لمقابلة أثناسيوس عند زيارته لاصوان واحتفلت باستقباله احتفالا باهراً رتلوا فيه ترنيمات من مزامير داوود

اما ميليتيوس وآريوس فلم يكونا يرضخان لحكم المجمع النيقاوي ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية . وقام

(١) قال روفينوس المؤلف انه لم يأخذ هذا الخبر بالسماع بل تلقاه من فم ايديسيوس شقيق فرومنتيوس الذي كان قساً في صور بعد عودته من الحبشة

ميلتيوس الاسقف المنشق وآريوس الكاهن المبتدع يناصبان البطريرك العداء ويقاومانه بكل جهدهما حتى صار لقب ميليتي وآريوس وصمة عار في مصر يتصم بها كل من سار على رأي هذين العاصيين . والذي ساعدهما على التمادي في غيهما ميل قسطنطين الملك لمذهب آريوس وهذا الميل نشاء فيه من تأثير اتباع آريوس على ذهنه واستمالته اليهم حتى انهم اغروه ان يكتب مكتوباً لاثناسيوس يطلب فيه اعادة آريوس الى الكنيسة كما كان فرفض أثناسيوس هذا الطلب بتاتاً بحجة ان آريوس لا يزال متمسكاً ببدعته ولم يرجع عنها . فاتخذ اتباع آريوس هذا الرفض الذي كانوا يتوقعونه حجة ضد أثناسيوس واهاجوا سخط الامبراطور نحوه حتى مال لسماع التهم التي سمي يوساب اسقف نيكوميديا وانصاره لاثباتها عليه . اما التهمات التي اتهموا بها أثناسيوس فكانت تنحصر في أمرين : اولهما ان هذا البطريرك شرع في ضرب ضريبة على مصر يتحصل منها على حلل بيضاء من الكتان (تواني) للاكليروس . والثانية انه مد احد ارباب الفتن والمحرضين على الثورات بدراهم . فهاتان التهمتان نقضهما أثناسيوس نقضاً وبرهن كذبهما فلم يؤثرا قط في سمعته الا ان التهمة الثالثة التي سيجيء ذكرها قد ضايقته كثيراً اذ كان يظهر عليها مسحة من الحقيقة فلم يكن من السهل دحضها حتى بالبرهان العقلي

ومبدأ هذه التهمة الثالثة هو ان قساً من الاسكندرية اسمه

كولوثس انشق من الكنيسة قبل هذه الحوادث ببضع سنوات. وسبب انشقاقه غير معروف تماماً. ثم أخذ يعين قسوساً من العالمانيين وحيث انه لم يكن هو سوى قس بسيط لاحق له في رسامة قسيسين نظيره تحاكم امام مجمع الاسكندرية فحكم عليه بالحرمان وعلى الذين رسمهم بتجريدهم من وظائفهم وصيرورتهم عالمانيين كما كانوا . فقام احد هؤلاء الرجال واسمه اسخيراس واستخف بحكم المجمع ولكنه لم يمكث في الاسكندرية ليمارس وظيفته الموهومة بل سار الى قريته في اقليم مريوط وصار يجمع جمعية صغيرة في غرفة حيث لم تكن توجد كنيسة هناك . وقد يلام اثناسيوس لانه لم يرسم هذا الرجل كاهناً رسمياً ولم يعضده في بناء كنيسة مع علمه باحواله واعماله عند زيارته لتلك الجهة في سنة ٣٢٩ تقريباً

ومع ان اثناسيوس كان عظيما كبيراً الا انه لم يعرف باتساع المدارك ورقة الاحساس كما عرف بهما البطريرك ديونيسيوس . ومما يذكر في هذا السياق أن بعض الباحثين ذهب الى ان اسخيراس المذكور كان رديء السمعة فاذا صح هذا القول كان اللوم على اثناسيوس شديداً لانه تركه وشأنه في باديء الامر ولكنه ارسل بعدئذ قساً اسمه مكاريوس يدعو اسخيراس للمثول بين يديه ويؤنب اباه على الجرم الذي اقترفه ابنه فلما وصل مكاريوس وجد اسخيراس طريح الفراش فلم يعمل معه شيئاً ولكن اباه وعده بصده عن فعله الناشز وايقافه عند حده . فلما تماثل

اسخيراس للصحة اتبع مذهب ميليتيوس وصار آلة صماء يديرونه كيف شاؤا . فالتهمة التي اتهموا بها اثناسيوس في هذا الشأن هي انه بذاته أو بايعازه الى مكاريوس هدم كنيسة اسخيراس عنوة واحرق كتبها وحطم كأس العشاء الرباني . اما أثناسيوس فبرهن على عدم وجود كنيسة هناك وانه لم يتلف شيئاً من الاشياء التي نسبوا اليه اتلافها وان ماقيل من ان اسخيراس كان يؤدي خدمة دينية عند ذهاب مكاريوس اليه فوهم باطل لان اسخيراس هذا كان مريضاً في ذلك الوقت . وبعد مضي وقت على هذه المسألة مثل اسخيراس امام مجمع حيث أقرَّ في محضر امضاه ثلاثة عشر قساً من الاسكندرية ومريوط بان التهمة التي اتهم بها البطريرك لا اساس لها وان اليمين التي حلفها لاثباتها كاذبة وهاك نص اعترافه في المحضر المذكور : (يشهد الله أن لاعلم لي بما تقولون عن هذه التهمة التي لفقها بعضهم بل انني أصرّح جهاراً بعدم وجود كأس كسره احدهما أو أن شخصاً ما مد يده بسوء نحو شيء من متاع كنيسة لا معرفة لي بوجودها ولكنني أقول الحق وهو ان بعضهم اضطرني اضطراراً للاقرار بتلك التهمة الملفقة) ولما رفض أثناسيوس مسامحة اسخيراس وحله أنكر هذا الاعتراف المسطر ولم يعد يعترف به ثانية

ولم يخلص اثناسيوس من التهمات الموجهة اليه حتى قامت ضده شبهة جديدة هي انهم اتهموه باستعمال السحر والتنجيم وهي تهمة خطيرة يهتم لامرها عامة الشعب منذ القرن الرابع لحد يومنا هذا . وقد شاع

بين الناس ان اثناسيوس دس السم لاسقف من اتباع ميليتيوس اسمه ارسنيوس فاماته واستخدم جثته لغرض سحري دني٬ . فانتشار مثل هذه الخرافة وسهولة تصديقها عند الناس دليل على انحطاط الاخلاق وفساد الآداب في الامة من بعد ان كف عنها الاضطهاد. أما الذين ادعوا هذه الدعوى فجاؤا بدليل على اثباتها وهو يد مبتورة من جثة قالوا انها يد ارسنيوس التي فصلها اثناسيوس من جسمه . فذهل اثناسيوس عند سماعه هذا القول ورأى ان عدم دحضه هذه التهمة بالبينة القاطعة يوجد ريبة في النفوس من نحوه ولذلك انفذ شماساً الى الصعيد للبحث عن ارسنيوس وكشف جلاء الحقيقة

وقد ثبت لهذا الشماس ان الاسقف الذي قيل انه قتل لايزال حياً يرزق وهو مقيم في احد الاديرة هناك وقبل وصول الشماس الى المكان الذي كان ارسنيوس يقيم فيه اسرع بينس رئيس الدير وارسل ارسنيوس الى صور حتى لا يعلم مقره احد الا ان الشماس تربص في طريق الدير والقى القبض على بينس وراهب آخر اسمه هلياس كان قد ذهب ليشيعا ارسنيوس ويهدياه الى الطريق التي يسير فيها ثم احضرهما هذا الشماس أمام حاكم الاقليم حيث اعترفا بما فعلاه (١)

---

(١) ان بينس هذا كتب الى يوحنا اركاف كتاباً غريباً في بابه يثبت فيه بان هذه التهمة لايمكن اثباتها ضد اثناسيوس لانه معروف في كل القطر المصري ان ارسنيوس لم يزل حياً ولم يصبه مكروه من احد

أما الشماس المذكور فسار تواً الى صور للبحث عن ارسنيوس ولم يستطع العثور عليه في بادىء الامر واخيراً التقى باحد خدام حاكم الولاية وأخبره بانه سمع بطريق الصدفة في احد النوادي ان ارسنيوس مختبىء في احد منازل هذه المدينة فاقتفى الشماس آثار مخبره الذي تمكن من ارشاده الى المكان الذي كان ارسنيوس مختبئاً فيه فانكر هذا نفسه عندما رآه الشماس ولكن بولس اسقف صور عرفه به وقال انه ارسنيوس بعينه واذنه فلم يسع ارسنيوس هذا الا ان كتب مكتوباً الى اثناسيوس يلقبه فيه (بالبابا المحترم) ويظهر اسفه من الذي حدث ويسأله أن يصفح عنه ويقبله في عضوية الكنيسة

ومع أن براءة اثناسيوس ظهرت كشمس الظهيرة الا ان يوساب اسقف نيكومديا اقنع الامبراطور بضرورة تحقيق التهمات الموجهة ضده أمام مجمع كنائسي وعلى رؤوس الاشهاد . وعليه تشكل مجمع في قيصرية تحت رئاسة يوسيبوس المؤرخ اسقف هذه المدينة وطلب اثناسيوس مراراً للحضور أمام المجمع فلم يعبأ بهذا الطلب ولم يذهب قط بل ظل يشتغل في تدبير مهام البلاد التي يرأسها آملا بتسوية هذه المسائل طبيعياً بدون بحث أو جدال منشأه الحمق والعناد

ولكن في سنة ٣٣٥ التأم مجمع آخر في صور وارسل الامبراطور امراً مشدداً الى اثناسيوس يدعوه للحضور فاذعن للحال وسار في موكب حافل يحيط به ثمانية واربعين من اساقفته . أما اساقفة المجمع

فقابلوه مقابلة تدلي الى الاهانة وعدم الاحترام وكانوا كلهم تقريباً من انصار آريوس واتباع مذهبه فلم يسع بوتامون احد اساقفة اثناسيوس الا استهجان هذا العمل والقاء عبء هذا الخجل والخزي على كاهل يوساب اسقف صور رئيس المجمع لانه سمح للاعضاء باتيان مثل هذه الاعمال المعيبة ثم بداء يسأله قائلا (أجالس انت هنا لتحاكم اثناسيوس ؟ ألا تذكر اذ كنت انا وأنت سجينين معاً لاجل الايمان فاقتلعوا عيني واما انت فنجوت من الخطر دون ان يلحقك ضرر)

فانتهر يوساب هذا الاسقف الذي ظهرت نفحات ايمانه قديماً ووبخه على ما بدا منه من الحدة في الكلام ثم اخذ القوم في محاكمة اثناسيوس ولكنهم كانوا متفقين قبلا على الحكم عليه وكانت أول تهمة بدأوا بفحصها هي قتله ارسنيوس

فابتدرهم اثناسيوس بالسؤال قائلا (أيعرف احد منكم ارسنيوس)؟

فقال كثير من الحاضرين انهم يعرفونه من قبل . وحينئذ احضر لهم اثناسيوس رجلا ملثما بلثام يغطي كل رأسه وأمره ان يحسر عن وجهه أمام المجمع وكان هذا الرجل ارسنيوس. ثم رفع اثناسيوس طرف رداء ارسنيوس واظهر لهم يده اليمنى وانها لم تزل صحيحة موضوعة في مكانها الذي خلقت فيه ثم كشف لهم اليد الاخرى بكل سكون وتأن وخاطبهم وهم سكوت كأن على رؤوسهم الطير وقال : (انظروا ان للرجل يدين فاين اليد التي بترتها أنا ؟ ومعلوم ان الله خلق للانسان يدين فقط

لا نائلة لهما)

فلما قال اثناسيوس هذا هاج الجمع وماج فانتهز يوحنا اركان هذه الفرصة وسعى لهرب لانه كان المسؤول رأساً عن صحة هذه التهمة وكذبها ولكنه عدل عن الفرار والتفت نحو أعضاء المجمع وافهمهم أن ما عمله اثناسيوس الآن انما هو دليل جديد على كونه ساحراً ماكراً ولذلك اشتد سخط القوم وزاد حنقهم على هذا البطريرك البائس الذي كان قد برهن لهم على جرائته وكادوا يفتكون به لولا ان الامير ديونيثيوس الذي كان قد انفذه الامبراطور لمراقبة هذه المضحكات المبكيات خلصه من ايديهم وانقذ حياته من العطب

أما مسألة اسخيراس فلم تزل على ما كانت عليه ولذلك تجدد البحث فيها فجاء مصر ستة من اعضاء المجمع ليعملوا تحقيقاً في هذه الحكاية الثانية وكانوا من اتباع آريوس المتطرفين وبالتالي اعداء الداء للبطريرك اثناسيوس · وكان مكاريوس قد طرح في سجن صور ولذلك عول اثناسيوس على رفع دعواه الى الامبراطور شخصياً فاستصحب معه خمسة من اساقفته وسافروا في أول سفينة اقلعت من صور قاصدين القسطنطينية والتقوا فيها بالامبراطور بغتة عندما كان خارجاً للنزهة في موكبه الحافل اما الامبراطور قسطنطين فلم يعرف اثناسيوس في أول الامر فلما عرفه هذا بنفسه رفض الامبراطور سماع دعواه متذرعاً بحجة واهية هي ان هذه المسائل كانت موضوع البحث في مجمع نظرها وحكم فيها · ولكن

اثناسيوس لم تقنعه هذه الحجة بل اعترض الامبراطور في طريقه قائلاً: إما ان تأمر بتشكيل مجمع مسكوني شرعي أو ان تسمح لي بالاجتماع مع خصومي امامك ونتناقش معاً) فاقتنع الامبراطور اخيراً وكتب رسالة يدعو بها المجمع للالتئام في القسطنطينية . فلما علم الاضداد هذا اهتزوا وانزعجوا وعادوا الى ابروشياتهم خائفين وجلين ولم يلبوا دعوة الامبراطور الا يوساب اسقف نيكومديا ورهط من الاساقفة اتباع آريوس الذين جاؤا الى الامبراطور فلم يذكروا كلمة واحدة من مسألتي ارسنيوس واسخيراس بل ابتدعوا تهمة جديدة زادت في حيرة اثناسيوس واذهلته أما هذه التهمة الجديدة فمفادها ان اثناسيوس كان يقصد منع سفر المراكب التي تأتي القسطنطينية حاملة ضريبة الحنطة وهو عمل يشبه اشهار حرب عوان ضد الامبراطور

فأنكر اثناسيوس هذه التهمة انكاراً قطعياً ولكنها كانت ملفقة ضده تلفيقاً يلبسها مسحة الحقيقة ومعلوم ان هذا الامبراطور كان شديد الغيرة على سلطته لا يطيق ما يحط بها أو يقاومها ولذلك قاطع اثناسيوس بينما كان يدافع عن نفسه ولم يتركه يتم كلامه وانتهى الامر بان نفاه نفياً موقتاً الى المكان الذي يقيم فيه ابنه الاكبر قسطنطين في تريفس شمالي جرمانيا . فظل اثناسيوس سنتين ونصفاً في بلاد لم تكتحل عينه بمرآها من ذي قبل ولم يكن بينها وبين مصر وجه شبه قط بل انه كان يتصور جرمانيا الشمالية كأنها منتهى الارض وآخرها

ولنها اقصى الاقاصي . وكان يصحبه في منفاه هذا واحد أو أثنان من رفاقه المصريين فلم يصرف وقته عبثاً في هذا المكان بل كان يوالي كتابة الرسائل المفيدة الى رعيته التي لعبت بها ايدي الدهر من بعده لان مدة نفيه لم يكن للسلام أثر في مصر ولم تكن مصر تعرف الراحة والوئام وسبب ذلك آريوس وحكايته الذي انكر ما عزي اليه في المجمع الاورشليمي المقدس وعاد لايمانه الاول فضم الى الكنيسة ثانية وأمر بالبقاء في الاسكندرية ولكنه لم يكف عن سعيه المعتاد من ايجاد انقسام وشقاق في هذه المدينة التي لم يهدأ لها بال فأعيد منها ولم يسمح له بالبقاء فيها طويلا . ومن الاسباب التي أوجدت الكدر والقلق في مصر هو تهييج المصريين وتحرك عواطفهم الوطنية لاجل نقل عادياتهم القديمة العديمة المثال الى مدينة قسطنطين الجديدة (القسطنطينية) واخذ مسلاتهم السامقة لتزيين هذه العاصمة وتجلية رونقها وزيادة عظمتها بواسطة الآثار المصرية . كذا العنصر الوثني من سكان مصر غضب وسخط عند نقل مقياس النيل من هيكل سيرابيس الى احدى الكنائس المسيحية ومن عهد نقله صار القسوس المسيحيون يؤدون خدمة عيد وفاء النيل بدلا من كهنة الوثنيين . وكان من بين الذين التمسوا من الامبراطور التداخل في مسألة أثناسيوس وحسم مشكلته مار انطونيوس الذي ترك ديره بناء على طلب أثناثيوس له وقدم الى الاسكندرية ليكرز فيها ضد بدعة آريوس ويحذر الناس من اقتفاء أثره فلما توسل الى الامبراطور ليفض الخلاف

الذي بينه وبين اثناسيوس لم يرض هذا الامبراطور وذهب سعي انطونيوس ادراج الرياح . وكانت النتيجة ان يوساب اسقف نيكوميديا اقنع الامبراطور بقبول آريوس جهاراً في كنيسة القسطنطينية في يوم احد يعين لهذه الغاية وان يحتفل بدخوله فيها احتفالا باهراً يدل على فوزه على خصومه وان يبتدئ سير موكبه من قصر الامبراطور الى كنيسة الرسل . فعارض اسكندر اسقف القسطنطينية هذا الرأي واحتج عليه ولكن معارضته لم يكن لها تأثير فان القوم استعدوا لهذا الاحتفال استعداداً باهراً لم يسبق له مثيل ولكن السعد لم يخدمهم هذه المرة ولم يتمتعوا بهذا الفرح ذلك لانه في يوم السبت السابق ليوم الاحد المعين للاحتفال ركب آريوس مع رهط من اخصائه وخرج بموكبه من القصر الملوكي وسار في اهم شوارع المدينة يميس خلالها ويستلفت انظار الشعب الى الاحتفال العظيم الذي سيقام له في الغد وكان بعمله هذا كمن يدعو الناس لحضور ذلك الاحتفال فلما وصل الى الميدان المعروف بميدان قسطنطين باغته مرض عضال يشبه اعراض الكوليرا الشديدة الوطأة عند ما تكون في اقوى حالاتها فحينئذ قفل راجعاً وانزوى خلف هذا الميدان بينما كان ذلك الجمهور المزدحم ينتظره بفروغ صبر وقد كثرت بينه الاقاويل والاراجيف عنه ولم يكن كلمح البصر حتى شاع خبر موته الفجائي وتناقلته الالسن واثبته واحدأو اثنان من الذين شهدوه شهادة العين وذعرا من ذلك المنظر المفزع الذي وقع امامهما وما رأياه من آريوس ساعة الحشرجة من الضيق والكرب

فعلى هذه الكيفية المريعة قضى آريوس نحبه وهو زعيم تلك الفئة التي كانت تلقب نفسها آريوسية وكان الاحرى بها ان تقول انها ناكرة الوهية المسيح مقاومة لمن يؤمن به كآله ـ مات هذا الرجل ميتة الاشرار مع انه كان متصفاً باحسن الصفات الادبية الا انه بالنسبة لظروف ذلك الزمان واهواله كان قادراً ان يلحق بالديانة المسيحية ضرراً عظيما لا يستطيع اتيانه اكثر الناس شراً وخبثاً . وقد امتاز اتباعه بمزية ممقوتة هي انهم كانوا أول مسيحيين اضطهدوا المسيحيين اخوانهم

وفي سنة ٣٣٧ اتم قسطنطين بناء الكنيسة الكبرى في القسطنطينية التي دعاها كنيسة الرسل الاطهار ودشنها وكان يقصد ان يلحد فيها بعد موته . وكأنه شعر بدنو اجله فانه كاد يتم بناء هذه الكنيسة حتى خارت قواه وأخذت صحته تنحط انحطاطاً ظاهراً فعمد الى العماد من يوساب اسقف نيكومديا ثم فاضت روحه في يوم احد العنصرة من سنة ٣٣٧ . وكان قبل موته اقام خمسة قياصرة تحت امرته وهم اولاده الثلاثة وابني أخيه وقسم المملكة بينهم كما يأتي : قسطنطين ابنه الاكبر اخذ بريطانيا واسبانيا وفرنسا وقسطنطينوس اسيا وسوريا ومصر وقسطنس ايطاليا وبلاد المغرب (افريقيا) ودلماطيوس ايليريكوم (بلاد اليونان) وهنيبال ارمينا وبنطس الا أن هنيبال هذا لم ينل لقب قيصر بل لقب ملك فقط

وبعد موت الامبراطور قسطنطين هرع قسطنطينوس ابنه الثاني

وجاء القسطنطينيه سراعاً وكانت له يد قوية في جمع الحوادث التي وقعت فيما بعد . وكانت الجيوش قد أعلنت صراحاً بعدم قبول ملك عليهم من غير ابناء قسطنطين ولذلك حدثت مذبحة عظيمة ذبح فيها كثيرون من ذرية قسطنطينوس الاول الذين ولدوا له من امرأته الثانية تيوضورا . وكان بين الذين اكلهم السيف دلماطيوس وهنيبال وخمسة آخرين من ابناء اخوة قسطنطين وحنواه (ابنا ابيه) ووزيره الخاص ابلاقيوس وواحد أو اثنان من المقربين اليه ولم يبق من العائلة المالكة سوى ابناء الامبراطور وابني حنوه يوليوس قسطنطينوس وهما غالوس الذي قيل وقتئذ انه مشرف على الموت والصبي يوليان الذي نجاه من العطب اسقف مسيحي

وبعد هذه الحوادث المريعة التقى ابناء قسطنطين الثاني في سيرميوم واعادوا تقسيم المملكة فيما بينهم فاستولى قسطنطين الثاني على الجزء الغربي من المملكة أو هو شمالي اوروبا واخذ قسطنطس الاجزاء المتوسطة وهي جنوبي اوروبا اما قسطنطينوس الثاني فصار امبراطور مصر وباقي الشرق برمته

فلما استتب الامر لقسطنطين الثاني طلب الى اثناسيوس البطريرك ان يعود الى كرسيه وكان قد اخذه معه الى فيميناشيوم وهو مكان حدده الثلاثة امبراطرة ليجتمعوا فيه فقرر رأيهم على ارجاعه الى بلاده فعاد هذا البطريرك الى الاسكندرية في شهر نوفمبر سنة ٣٣٨ حينما قابله الشعب باحتفال حافل ابدى فيه من السرور والشكر مالا يوصف

ولما رأى الاساقفة الذين من شيعة آريوس ان أثناسيوس قد عاد واستقر في مكانه كما كان لم يهدأ بالهم بل قاموا يدبرون طريقة أخرى ينزعونه بها من على كرسيه ما دام ان التهمات السابقة لم تؤثر فيه الا كما يفعل الماء في الصخر المتين . وقد ساعدهم على ذلك ميل الامبراطور قسطنطينوس اليهم لانه كان آريوسياً قحاً حتى انه عين يوساب اسقف نيكومديا (١) بطريركاً في القسطنطينية رغماً عن هياج الشعب وعدم رضاه بهذا البطريرك . وكان اعتراض جماعة آريوس على رجوع أثناسيوس هو ان في عودته خدشاً للقوانين الكنائسية واهتضاماً للمبادىء الكهنوتية لانه عاد الى كرسيه بدون تصديق قانوني يصدر من مجمع كنائسي عام يشكل لهذا الغرض وقالوا ان الكرسي الاسكندري يعتبر بدون بطريرك طبقاً لهذا المبدإ ثم اخذو يبثون الدسائس لينتخبوا رجلاً اسمه بسطس بطريركاً للاسكندرية مع انه كان من ضمن القسوس الذين حرمهم البطريرك اسكندر عند ما حرم آريوس لاجل بدعته وقد ارتأى هذا الحزب الآريوسي رأياً هو انهم اذا اغووا اسقف رومية الذي لا يعرف شيئاً عن بسطس على التداخل في هذا الامر والسير خلف غرضهم قد يقوى جانبهم ويشتد ازرهم به وعليه انفذوا

(١) ان يوساب هذا نقل من مركزه مرتين — الاولى من بيروت الى نيكومديا والثانية من نيكومديا الى القسطنطينية مع ان نقل الاساقفة في ذلك الوقت كان ضد القانون الكنائسي

ثلاثة قسوس الى رومية كبعثة للغاية السالفة الذكر . فلما وصل الخبر الى توليوس اسقف رومية كتب خطاباً سلس العبارة الى أثناسيوس يخطره فيه بهذا الامر فارسل أثناسيوس رسلاً من قبله الى يوليوس مزودين بادلة تثبت ان سعي القوم في ترشيح بسطس للبطريركية لم يصادف نجاحاً ولم يلق قبولاً حتى عند اصدقائه الاخصاء. وكان رسل أثناسيوس قد حملوا معهم الى رومية قراراً مجمعياً من كنيسة مصر امضاه اكثر من مائة أسقف مصري برهنوا فيه على براءة أثناسيوس وطهارة ذيله وقالوا في رسالتهم هذه ان الغرض الوحيد الذي يرمي اليه اتباع يوساب هو تعميم بدعة آريوس ونشرها في مصر .

وبناء على ذلك اقترح يوليوس اسقف رومية تشكيل مجلس للنظر في هذه المشكلة فصادق الطرفان على هذا الاقتراح وقبلوا به . ولكن حدث في سنة ٣٤٠ ان قسطنطين الثاني الذي كان نصيراً لأثناسيوس وظهيراً قوياً له قتل في مناوشة حربية وبعد موته اصدر الوالي فيلاغريوس امراً رسمياً اوضح فيه لكنيسة الاسكندرية خبراً ساءها وهو ان بسطس لا يعين بطريركاً بل ان رجلا اسمه غريغوريوس من معية الملك قسطنطينوس اختير ليكون بطريركا للاسكندرية بدل أثناسيوس اما غريغوريوس هذا فمسقط رأسه مدينة كبدوكية ولكنه رضع لبان العلوم في كلية الاسكندرية ولاقى من أثناسيوس كل عناية واكرام وقت تلمذته . ولم يكن هذا الرجل قد حرم كغيره لاجل بدعة

آريوس ولكن كاتم سره آمون كان قد حرمه البطريرك اسكندر لذات السبب الذي حرم لاجله بسطس . فلما تعين غريغوريوس بطريركاً بدأت الاضطرابات تسري في الاسكندرية وقامت المشاكل والزعازع وكثرت جمعيات التحريض وكان منها جمعية كبرى التأمت لتحتج على هذه المعاملة التي عومل بها أثناسيوس وكان التآمها في كنيسة القديس قورينوس (١)

فلما راى فيلاغريوس الوالي هذا وكان صديقاً لغريغوريوس ومواطناً له حرّض قوماً من سفلة الوثنيين وحرافيشهم - وقيل انه قادهم بنفسه - لكي يهجموا على الكنيسة التي اجتمعت فيها هذه الجمعية . فاندفع هؤلاء الزعانف الى اقدس الاماكن واجلها واحرقوا كتب الكنيسة وطردوا منها تلك الجمعية بعد ان اوسعوها سباً وشتما تأبي الآذان سماعه ثم نهبوا خزائن الكنيسة وامتعتها وقتلوا بعض الرهبان بينما كانوا يذودون عن حوض الكنيسة ويدافعون عن اشياءها

اما أثناسيوس فكان في ذلك الحين يأوى الى صومعة في كنيسة القديس ثيوناس فلما علم انه هو المقصود بالذات خاف على الكنيسة من وجوده داخلها لئلا يلحق بها ضرر من الاعداء فانسحب من الاسكندرية وخلا الجو لغريغريوس فدخلها بعد اربعة ايام من سفر أثناسيوس دون ان يلقى مقاومة من احد كل هذه الحوادث وقعت في الصوم الكبير

(١) يحتمل ان يكون هذا القديس هو قورينوس اسقف سيشيا التابعة لمقاطعة ايليريكوم وكان قد نال الشهادة في ايام ديوكلتيانوس

وفيه اصاب اهالي الاسكندرية المساكين اضطهاد شديد من هذا الاسقف الذي اهتضم حق غيره قسراً

أما قسوس الاسكندرية فحجر عليهم تعميد احد أو زيارة مريض أو ممارسة أي عمل من وظائفهم . ولم يأت يوم الجمعة الكبيرة حتى حدث هياج جديد وذلك عند دخول غريغوريوس الكنيسة بموكبه الحافل اذ تصدى له هذا الشعب المحتدم غيظاً وابتدره بعبارات السب والاهانة فرفع غريغوريوس دعواه الى صديقه الوالي الذي اهتم بالامر كثيراً والقى القبض على نحو اربعة وثلاثين وجيهاً من الذين كانوا حاضرين في الكنيسة وجلدهم بالسياط جلداً عنيفاً وكان منهم اصحاب الحيثيات والاعتبار واكثرهم نساء مكسورات الجناح بلا عضد ولاسندوفي هذه الاثناء برز محضر آخر امضاه الوثنيون واتباع آريوس فقطوفيه يتهمون اثناسيوس تهمات تمسه لاهميتها فصمم هذا البطريرك الاسيف على الذهاب الى رومية آملا بانعقاد ذلك المجمع الكنائسي الذي اقترحه يوليوس . فلما وصل اثناسيوس رومية تلقاه يوليوس بكل تجلة واكرام وانفذ كاهنين من قبله يدعوان المجمع للالتئام وحدد له شهر دسمبر من تلك السنة . وكان يوليوس في ذلك الوقت يلاطف اثناسيوس ويرجوه البقاء عنده فقبل اثناسيوس ذلك لعلمه بان وجوده بالاسكندرية في هذه الظروف لاينتج عنه خير واخذ يبذل قواه في ابعادالافكارالشريرة عنه التي كانت تساوره وتقلقه وقد قال عن نفسه في ذلك الوقت « لما

عرضت مسألتي على الكنيسة وهي بغيتي التي كنت ابتغيها لم اترك في ذهني شيئاً يشغلني عن خدمة هذه الكنيسة التي هي جل مرادي» وكان بمعيته في رومية كاهنان من مصر وهما آمونيوس احد رهبان دير النطرون وايسداروس . وقد اثرت اقامة آمونيوس في رومية تأثيراً سيئاً في احساساته الاصلية فقد قيل انه لم يعجبه بناء في ابنية رومية الذائعة الصيت سوى بناء كنيستي مار بطرس وبولس (١) الذي شرح صدره كثيراً وحول نظره من مصر الى رومية . ولكن بقاء اثناسيوس - بابا الاسكندرية في رومية اوجد مبداء في الكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية) لا يزال فيها الى الآن

وبيان ذلك ان القوم هنالك كانوا يصغون بكل ارتياح الى كلام اثناسيوس عن الرهبنة ونظامها في مصر فصادف هذا القول منزعاً في نفوس الغربيين فزاد شوقهم الى الرهبنة ورغبتهم في العزوبية . قال جيبون المؤرخ « ان اثناسيوس ادخل الى رومية مبدإ الرهبنة ونظامها ولكن يصعب على العقل ان يتصوّر صحة هذا القول حرفياً او ن يصدق عدم وجود رهبان في رومية قبل مجيء اثناسيوس اليها اما اثناسيوس فقد ظل في رومية ثمانية عشر شهراً وهو ينتظر الفرج القريب من الله ويترقب وجود مخرج له من كربته التي كان فيها

(١) ان آمونيوس هذا هو اكبر الاخوة الذين اشتهروا بطول قامتهم وسيأتي الكلام عنهم عند ذكر ما جرى في مدة حكم تاوفيلوس

الفصل الخامس عشر

غريغوريوس وجورجيوس من كبدوكية

سنة ٣٤٠ للمسيح و٥٦ للشهداء

في نحو الزمن الذي قتل فيه قسطنطين الثاني – وربما قبله ببضعة شهور – مات اشهر رجال ذلك العصر واحد المؤرخين العظام وهو يوسيبوس اسقف قيصرية الذي اخذنا عنه كلما نعرفه الآن عن الثلاثة قرون الاولى للكنيسة المسيحية . وكان الرجل في بادىء امره ميالا للانحياز الى جانب آريوس عند استفحال ذلك الانشقاق المحزن الذي اتينا لك على شرحه في ما مرّ ولكنه عاد فاقتنع بحكم المجمع النيقاوي وسار على جادّة الصواب التي قرّرها هذا المجمع سيراً مرضياً . وقدكان يوسيبوس هذا صديقاً حميما لقسطنطين الكبير ومحبوباً عنده حباً يقرب من العبادة فكان يثق بعلمه وفضله وعهد اليه في آخر سنيه بعمل تآليف ادبية ذات شأن . ومما يستحق الذكر من اعمال هذا العلامة ان النساخ الاسكندريين كتبوا تحت مراقبته خمسين نسخة من الكتاب المقدّس اخذها قسطنطين ووزعها على الكنائس الكبرى التي كان قد بناها وكرّسها كما عرفت . ولم تبق ولا نسخة واحدة من هذه الكتب الثمينة لحد الآن ولكننا لا نيأس فقد يأتي يوم فيه تظهر ولو واحدة منها في أحد القبور المصرية او في كهف او جحر نسج عليه العنكبوت خيوطه فتزيلها ايدي الباحثين المجتهدين

كذلك علماء الوثنيين في مصر كانوا في ذلك العهد من اكثر الناس اجتهاداً في تحصيل العلوم واشتغالا بالتأليف والتصنيف ولم يزل بين ايدي علماء هذا العصر كتاب من تأليف عالم وثني مشهور هو اليبيوس الذي وضع مصنفاً في فن الموسيقى تتداوله الايدي الى الآن ولا تزال تطرب من نغماته الآذان وكذلك زميله ايمبليكوس الذي عدّ مع اليبوس من اشهر انصار الفلسفة الافلاطونية وناشري تعاليمها في الاسكندرية . وقد وضع اخيليوس طاطيوس كتاباً نفيساً في علم الفلك وهو علم كان يعشقه المصريون ويرغبون فيه كثيراً هذا عدا عن روايات اخرى خيالية صنفها هذا الرجل تلذ قراءتها جداً وقد صار اخيليوس مسيحياً فيما بعد وزعم كثيرون انه تعين أسقفاً .ومن الكتاب الذين نبغوا في علم الهيئة (التنجيم) هيفستش من طيبة (الاقصر) كتب نبذة اظهر فيها تأثير عدة كواكب في منطقة البروج على امزجة الناس . وتقسيمه لمنطقة البروح يطابق التقسيم المرسوم على سقف هيكل دندرة (قنا)

وقد عرفنا فيما سبق ان غريغوريوس جلس على السدة البطريركية بالاسكندرية ونقول الآن ان مافتىء يعيث فساداً في هذه المدينة ويعمل أموراً تنفر منها الطباع الشريفة حتى انه اضطهد عمة لاثناسيوس الى ان ماتت وعند موتها سعى جهده ليحرمها من الدفن في مقبرة المسيحيين . وقد اتهمه بعضهم بالتهام صدقات الارامل وهي تهمة رمي

أثناسيوس بها ولذلك لم يعبأ بها احد. وحدث ان غريغوريوس هذا برح الاسكندرية ليسوح في داخلية البلاد فما كاد يظعن ركبه حتى تفاقم الشر وازداد الخطب استفحالا وكان من افظع المسائل ان الاساقفة الذين ابوا الاعتراف برئاسته عوملوا معاملة خشنة قاسية . خذ لذلك مثلا الراهب بوتامون الذي عرفنا انه كان مع أثناسيوس في صور وكان بين الثلثمائة وثمانية عشر عضواً في المجمع النيقاوي وهو رجل تشوه جسمه وتحطمت اضلعه في اضطهاد ديوكلتيانوس — هذا الراهب الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً جلده شخص يقول انه أسقف مسيحي جلداً عنيفاً حتى مات بعد ضربه بايام قليلة وعدّ بين الشهداء الاطهار . ولما طرقت هذه الامور مسامع مار انطونيوس وهو منزو في ديره بالجبل كتب كتاباً شديد العبارة وبعث به الي غريغوريوس يعنفه فيه ويلومه على تغطرسه فعند ما أخذ غريغوريوس الجواب ضرب به عرض الحائط بعد ان مزقه

وقد مضى شهر دسمبر الذي حدده يوليوس اسقف رومية لالتئام المجمع ولم يلتئم وفي شهر يناير عاد الكاهنان اللذان ارسلهما الاسقف المذكور ليدعيا اعضاء المجمع وبيدهما مكتوب من الاساقفة الآريوسيين فيه كل عبارات الاساءة والطعن فطاب الكاهنان من اسقف رومية بروح المحبة المسيحية التي تأمر باحتمال الاساءة حباً في صالح الآخرين ـ ان لا يقرأه ولا يعلم بما حواه فرضي الرجل وظل بانتظار حضور بعض الاساقفة اليه والامل

مل فؤاده بفض هذا المشكل . ولكن جماعة آريوس عكسوا الغرض فانهم بدل ان يذهبوا الى رومية لعقد المجمع هناك عقدوه في انطاكية عندما ذهبوا اليها لحضور الاحتفال بتدشين كنيسة كبرى بنيت فيها وكان عددهم نحو تسعة وسبعين اسقفاً التأموا في هذه المدينة وقرروا بعض امور منها تأييد الحكم بحرمان اثناسيوس وتجريده من وظيفته . فلم يكتف يوليوس بحكم هذا المجمع ولا اقتنع به بل شكل مجمعاً آخر في شهر نوفمبر من السنة ذاتها مؤلفاً من نيف وخمسين اسقفاً ففحص التهمات الموجهة ضد اثناسيوس فحصاً دقيقاً وأخيراً حكم ببراءته جهاراً عندما اتضحت له تماماً . ولكن هذين المجمعين اختلفا في وجهتهما فلم يهتم احدهما بما قرره الآخر وعليه مكث اثناسيوس في رومية ولم يؤثر الرجوع الى الاسكندرية خوفاً من حدوث قلاقل جديدة تنشأ من عودته اليها مادام غريغوريوس موجوداً فيها . وفي سنة ٣٤٣ انشرح صدر اثناسيوس عندما بلغه ان الامبراطور قسطنطين عزم على تشكيل مجمع كبير يجمع اليه اساقفة الشرق والغرب معاً فذهب اثناسيوس الى ميلان (بايطاليا) حيث قابل مع قسطنس مقابلة خصوصية وحينئذ سار ليرى الاب الجليل هوسيوس اسقف كردوفا . أما المجمع فانتظم عقده في جزيرة سرديكا في اواخر سنة ٣٤٣ وبعد حجاج ولجاج طالا واستطالا انسحب منه الاساقفة الآريوسيون مغضبين دون ان يبدوا رأيهم في هذه المسألة . وكان أهم مبدا قرره هذا المجمع هو ذلك القانون المشهور القاضي برفع المشاكل المعضلة الى كرسي رومية للنظر فيها ومن ذلك الحين ورومية تدعي الاسبقية

والاولوية على باقي الكراسي الاخرى وهي دعوى لم يقر بها البطاركة ولا قبلتها اهم الكنائس في القسطنطينية والاسكندرية

اما قسطنطينوس فهاج غضبه وحنق كثيراً لسبب الفشل الذي لحق بحزبه ولم يرضخ لحكم المجمع قط ولذلك عول على ايجاد مصائب جديدة في ارض مصر فاصدر اوامره الى حكام الاسكندرية بقطع رأس اثناسيوس اذا هو تجاسر وعاد الى كرسيه ثم نفى خمسة من القسوس الذين ينتمون اليه وكثيرون منهم اختبأوا في البراري والقفار فراراً من اضطهاد اتباع آريوس لهم . اخيراً في سنة ٣٤٤ ظهرت دسيسة دنيئة دبرها البطريرك الاريوسي الانطاكي ضد احد القسوس الابرياء فساء اعتماد قسطنطينوس في هؤلاء المبتدعين وشاح بوجهه اعراضاً عنهم بل بداء يميل نحو اثناسيوس ويعطف عليه . وفي شهر فبراير سنة ٣٤٥ مات غريغوريوس في الاسكندرية فتمهد السبيل امام اثناسيوس للعودة الى مكانه ولكن لعدم ثقته في قسطنطينوس تمهل اكثر من اللازم وبقي الى شهر اكتوبر سنة ٣٤٦ حتى عاد الى وطنه بعد كل هذا الغياب الطويل . وقد اسهب غريغوريوس النزينذي في وصف الاحتفال الذي اقامه الشعب عند استقبال بطريركهم المحبوب وكيف ان القوم توافدوا من جميع انحاء المدينة على اختلاف نزعاتهم للقائه وكانوا يتسلقون الجدران ليمتعوا انظارهم برؤيته وقد عبق الهواء برائحة البخور العطرية الذي كان يتصاعد من المجامر فيزري بنشر الخزام . وعندما جن الظلام صارت المدينة شعلة من نار اكراماً لتشريفه وفرحاً بعودته اليها

وقد استهل هذا البطريرك رسالته التي نشرها في عيد القيامة لسنة ٣٤٧ بتقديم الشكر لله والحمد لاسمه تعالى لانه من عليه بالرجوع من هاتيك البلاد القاصية ثم ختمها ببيان عن الاساقفة الذين رسمهم حديثاً والاماكن التي عينوا فيها

مرت على اثناسيوس ومصر ثلاث سنوات ذاقوا فيها طعم الراحة والسلام وكان لدى هذا الحبر عمل كثير لرعيته التي لعبت بها ايدي الشتات من بعده فعين ديديموس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بعد ان رسم عدة اساقفة كانت رسامتهم أول عمل بداء به . وكان ديديموس هذا كيف البصر وذلك لانه اصيب بمرض في عينه - رمد صديدي حاد - وهو في الرابعة من عمره ويستنتج من ذلك انه لم يتعلم كغيره من الاطفال حتى ولا مباديء القراءة البسيطة الا ان رغبته في الحصول على العلم كانت شديدة جداً ازالت من امامه كل حائل في هذا السبيل فلم يثن عزمه الفقر والعوز ولا صده اغضاء الغير عنه واهمالهم أمر تربيته بل اخذ يهذب عقله ويقوي ذاكرته الى ان اتسعت مداركه وصارت قريحته وقادة تحير الالباب . وكانت عنده الحروف الابجدية محفورة على الواح من الخشب وبواسطتها تعلم القراءة بواسطة اللمس وبرع فيها . قال سقراط عنه انه بهذه الطريقة تعلم النحو والمعاني والبيان والفلسفة والمنطق والرياضة وفن الموسيقي - استوعب كل هذه العلوم استيعاباً كاملا متيناً حتى انه كان يستظهر على مناظريه الذين درسوا هذه العلوم نفسها من الكتب الخاصة بها وكان يفحمهم بالادلة القاطعة ويقهرهم اذا حمي

وطيس الجدال بينهم في امر غامض . فطار صيته في الافاق وبلغت شهرته السبع الطباق قبل ايام اثناسيوس بكثير حتى ان مارانطونيوس الناسك بحث عليه كثيراً عند مازار الاسكندرية عقيب الاضطهاد وقيل انه خاطبه بالعبارة الآتية : (اسمع ياديديموس . لا تكن خسارة بصرك الجسدي سبباً في احراج صدرك . فانك ولو حرمت من حاسة البصر التي منحت حتى للبعوض والذباب كواسطة للشعور بها ما دام لاشعور عندها غير البصر فحري بك ان تفرح لان لك عينين كأعين الملائكة تبصر بها الروحيات بل بواسطتهما ادركت الاله نفسه وسطع نوره امامك فازاح دياجير الظلام عن عيني قلبك فاستنرت). قال سقراط ايضاً ان ديديموس كان يعتبره الناس حصناً متيناً وسنداً قوياً للديانة المسيحية حتى قبل ان يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية وهو يعد خصماً عنيداً كسر شوكة اتباع آريوس واذلهم في مناظراته معهم . وله مصنفات عديدة لم يبق منها في عالم الوجود سوى اربعة فقط . ولقد قلنا في الذي سبق ان اخلاق الامة انحطت وآدابها تغيرت من بعد اضطهاد ديوكلتيانوس ولك دليل جديد على ذلك هو اعتقاد الكنيسة في اوريجانوس العظيم بانه كان منحرفاً عن جادة الحق لا يمتاز عن اهل البدع والهرطقة الا قليلا وهذا برهان على سوء الفهم وضعف الادراك لا برهان بعده . فلما رأى العلامة ديديموس ان هذا الاعتقاد شاع بين الكنيسة نشر شرحاً ضافياً لكتاب اوريجانوس المسمى « المبادي المهمة » ابان فيه خطأ الذين يعتقدون هذا الاعتقاد في اوريجانوس وان ظنونهم هذه انما هي تخرفات

اوهام لا طائل تحتها ثم قال . «ان الذين يتهمون اوريجانوس بالابتداع هم عديموا الفهم لامقدرة لهم على ادراك الافكار العالية والحكمة الغامضة التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من النوابغ المشهورين» .

اما هذا الكتاب الذي وضعه ديديموس فلم يبق له اثر . ولما رأس ديديموس المدرسة اللاهوتية تقاطر طلاب العلم الى الاسكندرية من جميع انحاء العالم المتمدن وبعد رئاسته بقليل جاء روفينوس وجيروم الشهيران وكانا حينئذ في شرخ الشباب ليتلقيا العلوم والمعارف في الاسكندرية على يد هذا النابغة الخطير الذي كان يلقب «بالاعمى البصير»

وغريب في مصر أم العجائب ان الراحة والسلام لايدومان طويلا فيها وهذا شأنها من قديم الزمان . ففي فبراير سنة ٣٥٠ قتل قسطنس في ثورة بداء بها مغنطيوس وبقي قسطنطينوس الامبراطور الوحيد في المملكة كلها بعد اخويه . ومعلوم ان قسطنطينوس هذا كان ينفر من اثناسيوس ويعرض بانفه عنه ولذلك داخل اثناسيوس خوف ورعب من تصرفات هذا خصوصاً وان الواشين ضده اخذوا ينمون عليه ويدسون له الدسائس بعزم جديد . ففي شهر مايو سنة ٣٥٣ استحسن ارسال خمسة اساقفة وثلاثة قسوس الى قسطنطينوس لاثبات براءته امامه مما عزي اليه سابقاً . وكان مع هؤلاء الاساقفة سيرابيون اسقف ثيوس(١) وهي مدينة شهيرة في الوجه البحري

(١) لايغرب عن الاذهان وجود مدينتين قديماً بهذا الاسم في مصر ويؤخذ من بعض استدلالات ان هاتين المدينتين كانتا اسقفيتين في وقت واحد

وقد قال بعض المؤرخين ان سيرابيون هذا كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية اما قبل ايام البطريرك بطرس او بعده فاذا صحّ ذلك فيكون الرجل قد مات شيخاً وشبعان من الايام · اما رئاسته للمدرسة فلا يبعد ان تكون صحيحة ولو انه كان شاباً فتياً في ذلك الوقت فانهم كانوا يسندون هذه الرئاسة في اوقات الاضطهاد حتى الى الشبان بصفة موقتة كما كان الحال مع اوريجانوس الذي وجد في هذا المنصب وهو في سن المراهقة كما علمت · وقد كان سيرابيون هذا عالماً متضلعاً وكاتباً ماهراً وصديقاً وفياً لاثناسيوس ولذلك ارسله مع من ارسله في هذه البعثة الى قسطنطينوس التي لم تصادف نجاحاً فان هذا الامبراطور احتال في اول الامر على اثناسيوس ليعيده الى اوروبا ثانية فلما خاب مسعاه شكل مجمعاً في ارلس فاصدر هذا المجمع احكاماً ضد اثناسيوس · والذي يحصي المجامع التي عقدت في مدة حكم قسطنطينوس يجدها اكثر من عشرة عدا عن مجلسين في ريمني وسلوشيا وكان سبب التئام هذه المجامع كلها المناقشات والمجادلات بين اثناسيوس وجماعة آريوس · وكان قسطنطينوس يعد نفسه راس الكنيسة في الامور الروحية كما هو رئيسها في الامور الزمنية وانتحل لذاته حق السلطة على باباوات واساقفة المملكة بأسرها وهي دعوى لم يدّعيها ابوه الاكبر ولا فكر فيها · وقد كتب اميانوس مرسيلينوس المؤرخ الوثني شذرة عن هذا الامبراطور يقول فيها

ان الديانة المسيحية واضحة بسيطة سهلة المأخذ ليس فيها شيء من

الاعجاز الا ان قسطنطينوس شوَّه جمالها بخرافات عجائزية واوجد فيها شقاقاً بواسطة احزاب متعددة وُجدت لتبحث ابحاث غريبة لا طائل تحتها وقوّى عزمها هذا الامبراطور على الاختلاف بدلا من التوفيق بينها بماله من السلطة والنفوذ فعمت هذه الاختلافات جميع الاصقاع وزاد انتشارها تلك المجادلات الشفاهية التي كانوا يتناقشون فيها باغراء الامبراطور نفسه حتى انه ابطل البريد واعطى خيوله لجماعة الاساقفة يذهبون بها الى المجامع ويجيئون بناء على دعوته اليهم ليصادقوا له على توحيد السلطة ووضعها تحت يده »

وفي مدة الصوم الكبير لسنة ٣٥٤ كانت كنائس الاسكندرية تزدحم بجمهور المصلين ازدحاماً شديداً ضجر منه الشعب وعليه التمس اهالي الاسكندرية من أثناسيوس ان يؤدي خدمات العيد الكبير في كنيسة سيزاريوم الكبرى (اي كنيسة القيصر) وكان قد تم بناءها فقط ولم تدشن فتردد أثناسيوس في الامر لعلمه انه اذا عمل هكذا يفتح لاعدائه باباً جديداً للاعتراض عليه لان كنيسة سيزاريوم هذه كانت مبنية على اطلال القصر المسيحي سيزاريوم (اي قصر القيصر) وهو قصر قديم للامبراطرة الرومانيين وكان لم يزل ملكا خاصاً بالامبراطور ما لم يسلم نهائياً الى الكنيسة ويصير تحت تصرفها فاذا صلى أثناسيوس في هذه الكنيسة فيكون قد اهان مليكه واحتقره اذا هو وضع يده على الكنيسة قبلما تعطى له زد على ذلك ان تأدية

خدمة العيد الكبير في بناء غير مكرّس يعدّ مغاراً للقوانين الكنائسية واخيراً قبل أثناسيوس على غير رضى منه وضد ضميرة وصلى في هذه الكنيسة فأعتبر هذا ذنباً جديداً له . وفي سنة ٣٥٥ أعيدت محاكمة أثناسيوس في مجمع شكل في ميلان وذلك بعد لدد وخصام شديد بين اربعة اساقفة قاموا للدفاع عنه وبين الامبراطور الذي اشتد غضبه لان القوم انكروا عليه سلطته الشخصية ومقدرته على معاقبة اسقف رأى ان يعاقبه بنفسه بدون قانون . وقد ردّ عليه الاساقفة واغلظوا له في المقال حتى قالوا له انهم لم يكونوا هنالك ليدرأوا له غلطته التي ارتكبها ثم اخبروه بصريح اللفظ قائلين « ان أثناسيوس بصفته بطريركاً لايحاكمه الامبراطور بل الاساقفة فلا تخلط جنابك بين القوانين الكنائسية والاوامر الامبراطورية »

فاجابهم الامبراطور وهو ممتلىء غيظا (ان ارادتي هي القانون)

وفي شهر اغسطس من هذه السنة جاء احد كتبة الامبراطور الى الاسكندرية وحاول ان يخرج اثناسيوس منها بصفة غير رسمية ولكنه لم يفلح . وفي يناير سنة ٣٥٦ وفد سريانوس وهو قائد أسطمبولي ومعه احد رجال الامبراطور المسمى هيلاريوس وطلبا من اثناسيوس شفاهياً ان يرافقهما فرفض الطلب لعدم وجود امر رسمي من الامبراطور بيدهما وقد ساعده على ذلك تعضيد جميع الاكليروس والشعب له تعضيداً تاماً ولذلك اقسم سيرنافوس برأس الامبراطور امام والي مصر ومحافظ

الاسكندرية بان لايعمل شيئاً ضد اثناسيوس مالم يصله امر من مولاه

وبعد مضي ثلاثة اسابيع بينما كان البطريرك اثناسيوس في كنيسة مارتيوناس يؤدي صلاة نصف الليل وهي صلاة يتحتم على المصريين آداؤها دائماً ـ حدث هرج ومرج خارج الكنيسة عندما سمع وقع اقدام عساكر احتاطت بها تحت قيادة الجنرال سيرنانوس وهيلاريوس وغورغونيوس رئيس الشرطة . فلما علم اثناسيوس هذا خاطب جماعة الحاضرين ورجاهم ان لا يهربوا هرباً يوجب الخجل والريبة ولا ان يقاوموا هذه القوة بالقوة

وقد كتب اثناسيوس بعد ذلك يصف هذه الحادثة قائلا (اما انا فجلست على الكرسي (١) الخاص لي واوعزت الى الشماس ان يتلو المزمور ١٣٦ وكان الشعب يردون عليه قائلين (لان رحمته تدوم للآباد) وحينئذ حان وقت الانصراف وكنا على وشك الذهاب الى منازلنا

ولما كان الظلام خارج الكنيسة حالكا جداً طرق العساكر جميع

---

(١) كان كرسي البطريرك يوضع دائماً خلف المذبح متجهاً نحو الشعب وذلك في الكنائس المصرية وهذا الكرسي عبارة عن فتحة في الحائط ـ مثل القبلة في الجامع ـ وفي هذه الفتحة حجر مرتفع يجعل الشعب قادراً ان ينظر الجالس عليه بسهولة

الابواب (١) طرقاً عنيفاً عند ما كان الشماس يرتل مزمور الحمد والشكر هذا حتى ان دق الابواب كان يعرف في آذان الشعب الذين كانوا مشتغلين بالصلاة والعبادة وكانوا يعجبون لهذا الطارق ليلا . ولما كان الشعب يرد على الشماس بهذه العبارة (لان رحمته تدوم للآباد) فتحت الابواب قهراً وولجها الجيش الروماني وهو يصيح صياح النصرة والفوز كمن افتتح مدينة قوية وكانت سيوفهم مشهورة في ايديهم تلمع في شعاع سرج الكنيسة المنعكسة عليها . فاندفع العساكر في الكنيسة كالسيل الجارف وهرعوا قاصدين البطريرك الذي وقف وامر الشعب بالفرار بقدر الامكان ولكن بعضهم اجتهد ان يعترض العساكر في طريقهم فذبحهم العسكر وداسوهم تحت اقدامهم عند ما كانوا يركضون نحو ردهة الكنيسة للقبض على الفارين . وقد الح القسوس على اثناسيوس بالفرار ولكنه أبى ذلك لعلمه الاكيد بانه ما دام موجوداً امام أولئك الذين يسعون خلفه ليقتلوه فهم يكتفون به ولا يبحثون عن الآخرين بل يتركونهم وشأنهم حيث ان لا علاقة لهم معهم . وقد كتب اثناسيوس فقرة في هذا الصدد يقول فيها : (قلت في نفسي انني لا اهرب حتى ينجو جميع الشعب ثم وقفت وطلبت من الحضور ان يصلوا الصلاة الاخيرة وحينئذ اشرت اليهم بالانصراف حالا . ولما انصرف اكثر الشعب جاء

(١) كانت جميع الكنائس المصرية في ذلك الحين كأنها حصون ومعاقل وفيها كل ما يحتاج اليه في وقت الضيق

الرهبان مع الذين تخلفوا من القسوس وحملوني خارجاً)

وبينما كان جماعة الاكليروس يحملون اثناسيوس هجم العسا كر هجمة قوية على الكنيسة حتى أغمي على اثناسيوس من شدة الخوف ولكن القسوس تمكنوا من اخراجه خلسة لان النور كان قد ضعف وكاد يطفي وكان الجند يضج ويرغي ثم حاصر كرسي البطريرك الموجود بالهيكل ولكنه كان خاليًا لان البطريرك هرب والتجأ الى مكان امين اختبأ فيه قبل ان يعرف اعداؤه بفراره من ايديهم . ففاز اثناسيوس بالنجاة في الظلام الحالك ولطالما كان الظلام ستراً تجري خلفه خير الاعمال وشرها

وقد ظل اثناسيوس في كمينه مدة ست سنوات وهو ينتقل من مكان الى آخر لان رجال الامبراطور كانوا يبحثون عنه ويبثون العيون والارصاد عليه في انحاء القطر المصري . والذي يتصور حالته وقت فراره حين اكفهرّ وجهه واغبرّ لونه واسترسل شعره منسدلا على ظهره يجده شبيهاً بابطال الروايات الخيالية التي نقرأها الا ان اثناسيوس هذا كان بطريركا ورعاً شرد من وجه اعدائه وليس محباً وامقاً هام يبحث عن من يحبه . وكان يقتات بخبز الفلاحين الناشف الغير مختمر واذا عطش اغترف من ماء النيل براحتيه واذا انهكه التعب واخناه السفر جلس على قطعة حصيرة رثة أو افترش الثرى وتوسد التراب

وكانت أحسن الايام عنده ان يجلس مع جماعة النساك البسطاء

في دير وادي النطرون او في طيبة (الاقصر) حيث يتمتع قليلا بضوء الشمس لانه كان يصرف اكثر اوقاته مختبئاً في نفق مظلم في الارض او منزويا في احد القبور القديمة المهجورة ولم يترك مغارة او وهدة الا وانكمش فيها ولم يدع غاراً او ديراً او قرية الا وشرفها بزيارته وصرف فيها وقتاً ثميناً من اوقاته هارباً من اعدائه ومبغضيه . ولا يوجد برهان يدل على عظمة هذا الرجل وحسن نواياه مثل حبه في افادة الآخرين اثناء هذه السنوات الست التي ذاق فيها من الصعوبات مالا يحده العقل وقاسى فيها من الاتعاب والمصائب ما تنوء تحته اعناق الرجال ولكنه مع كل ذلك لم يقطع علاقته مع الكنيسة يوماً واحداً ولا اغفل امرها طارفة عين . ولو انه لم يظهر لاحد كل هذه المدة الطويلة الا للذين كانوا يعتنون به الا انه ما فتئ يكاتب الاساقفة ويبعث بالرسائل والاوامر الى كنيسته التي كانت تعتبر اوامره نافذة المفعول كما لو كانت صادرة منه وهو جالس على السدة البطريركية في الاسكندرية وقد كتب عدة خطابات اما لمؤمن حزين يحتاج الى التعزية او لحائر مرتبك تعوزه النصيحة والارشاد عدا عن تآليف ادبية في أهم المباحث افاد بها ابناء ذلك العصر الذين كانوا في حاجة شديدة الى مثل هذه الابحاث المفيدة . وكان عمره في ذلك الحين ستين سنة ولذلك لم يكن له رجاء في العودة الى حالة الراحة والامن كما ان الاخبار التي تصله من البلاد كانت مما تنقبض منها الصدور وتنقصم لسماعها الظهور ولكنه

كان دائماً يظهر علائم الفرح والسرور . ومن المؤكد انه في مدة فراره هذه كتب دفاعاً (١) عن نفسه بعث به الى قسطنطينوس وكتب ايضاً يعتذر عن هروبه والاسباب التي الجأته اليه . ثم انه وضع منشوراً ارسله للرهبان في مبادي، هامة وسطر خطاباً لصديقه الحميم سيرابيون اسقف سيوس واعظم عمل أتاه في هذه المدة كان ذلك الكتاب المهم المتضمن مقالات سابغة الذيول ضد آريوس واتباعه

ولما ضاقت الحيل باثناسيوس خطر على باله ان يرفع دعواه بنفسه الى الامبراطور قسطنطينوس ولكنه عاد فرأى ان هذا الراي سقيم لا ينتج فائدة . فانه بعد ان شرع القوم في قتل اثناسيوس داخل اسوار كنيسة ماريثوناس ولما لم يفوزوا بغرضهم اشاعوا في الاسكندرية بان اسقفاً من المتمذهبين بمذهب آريوس كبدوكي المولد قادم ليتولى مسند الرئاسة على كنيسة مصر بدل اثناسيوس وكان اسم هذا الاسقف جورجيوس (٢) وقد قيل عنه انه قبل تعيينه في الوظائف الكهنوتية

(١) ليعلم القاري، الكريم ان كلمة «دفاع» هذه لا تؤخذ حسب معناها الدارج الآن في انها خطابات تتضمن المدافعة او الاعتذار عن الخطأ . بل ان لهذه الكلمة معنى آخر هو انها كانت تستعمل للدلالة على نبذات محكمة الوضع محتوية على حكم وامثال ومواعظ شتى

(٢) ان تشابه اسمي غريغوريوس وجورجيوس ولانهما من كبدوكية اوجد خلطاً بينهما حتى لم يقدر البعض على تمييز هذا من ذاك . اما الاخبار المسطورة عن جورجيوس في هذا المتن فلم تكتب هنا الا بعد فحص دقيق في مؤلفات كثيرة اثبتت صحتها تماماً

كان سمساراً خادعاً ومقاولاً محتالاً في القسطنطينية ولكنه كان أيضاً عالماً معدوداً . وقد جرت عادة رجال الكنيسة المصرية ان يجعلوا تعيين البطريرك في الصوم الكبير فقط ولذلك عينوا هذا الصوم المقدس لوسامة هذا الرجل الذي جاء ليغتصب الكرسي البطريركي اغتصاباً حتى انه بعد وصوله للاسكندرية بقليل بدأت نار الاضطهاد تحتدم فيها لتحرق كل من يسير على غير رأي هؤلاء العتاة وكان بين الذين ذاقوا مرارة هذا الاضطهاد سبعة عشر اسقفاً قال عنهم اثناسيوس انهم نفيوا نفياً وعوملوا معاملة قاسية شديدة حتى ان بعضهم مات في الطريق قبل ان يصل الى منفاه وبعضهم مات بعد وصوله بقليل وبالاجمال فان اكثر من ثلاثين اسقفاً مصرياً صار طردهم ونفيهم من البلاد حتى اختفت آثارهم بالمرة ولم يقف لهم أحد على خبر . وقد لمّح اثناسيوس الى الاعمال التي اتاها جورجيوس فقال : —

« لم ينته اسبوع العيد حتى كنت ترى العذارى الفتيات يطرحن في السجون اضطهاداً وتعذيباً وكان العساكر يربطون الاساقفة بسلاسل واغلال ويجرّونهم في الشوارع وكان اعوان جورجيوس يدخلون مساكن الايتام والارامل عنوة واقتداراً ويسلبون مافيها . وكانوا يدفنون المسيحيين احياء تحت جنح الظلام ثم يضعون علامات على منازلهم ليعرفوها حتى اذا اصبح الصباح نهبوا مافيها بدون مقاوم . ولم يقتصر هذا الشر على الاكليروس فقط بل ان اقاربهم كانوا في خطر لا لذنب بل لانهم

اقرباؤهم . ولم يقتصر هؤلاء المضطهدين على هذه الفظائع بل تجاوزوها كثيراً وتمادوا في غيهم وعتوهم لدرجة اوجبت نفور الشعب واشمئزازه من هذه الحالة حتى ان أعضاء الكنيسة لم يطيقوا تأدية الصلاة فيها بعد عيد الفصح بل كانوا يذهبون الى المقابر ويصلون فيها لانهم كرهوا الصلاة مع جورجيوس فلما علم هذا الظالم الغاشم بكره الشعب له حرّض ضدهم ضابطاً من الشيعة المانوية اسمه سباسيان فسار نحوهم في نفر من الجند مسلّح بسيوف قاطعة وسهام لامعة وحراب نافذة وهجم على هذا الشعب الضعيف في يوم الرب المبارك الذي قدّسه لعبادته لا لقتل الانفس البريئة . فلما وصل الى المقبرة لم يجد الا رجالاً يعدون على الاصابع لان اكثر الناس كانوا قد عادوا الى منازلهم عند ما مال النهار فلم يرحم هؤلاء البائسين الابرياء بل أعمل فيهم الصارم البتار وبرهن بعمله هذا على قسوة وعتو وجدا في مثل هذا المتوحش اللئيم . وبعد ان أودى بالرجال حوّل نظره نحو اولئك العذارى الطاهرات فاضرم ناراً تأجج سعيرها وأدناهنّ منها وهددهن بالاعتراف بمذهب آريوس والانحياز اليه امامهنّ فلم يملنَ عن اعتقادهن ورفضنَ طلبه هذا كما انهن احتقرن النار وحسبنها ماءً زلالاً فلذلك اشتد حنق هذا الوحش الضاري عليهنّ فجردهن من ثيابهن وظل يضربهن على الوجوه حتى تغيرت سحنتهن ولم يكن أحد يعرفهن فيما بعد . فلقد القى هذا الضابط القبض على نحو أربعين رجلاً وجلدهم بالسياط جلداً تقشعر منه الابدان وترتعد

لهوله الفرائص وذلك بان مزق ظهورهم بعصي خضراء قطعت من النخل بشوكها حتى ان بعضهم عملت له عملية جراحية لاخراج الشوك من لحمه وبعضهم لم يحتمل العذاب والالم فمات من شدة الضرب أما الذين عاشوا بعد هذه المصائب فنفيوا الى الواحات الكبرى البحرية بما فيهم واحدة من أولئك العذارى ولم يكن هذا العاتي يسمح لاقارب الموتى باخذ جثث موتاهم ولكن لما تعهد له هؤلاء الاقارب بعدم الاحتفال بموتاهم والامتناع عن تأدية الفرائض الدينية المعتادة لهم اذن لهم أولئك القساة بدفنهم كما وافق اغراضهم حتى يخفوا عن أعين العالم دلائل قسوتهم وغلاظتهم التي لم تخف بل ظلت ظاهرة في بطون التواريخ الى الآن . وعلى خطة الجهل والعمه هذه سار أولئك المجانين سيراً لم يؤثر في أهل الايمان الصحيح تأثيراً يذكر لان أصدقاء وأقارب الذين ماتوا في هذا الاضطهاد كانوا يفرحون ويطربون لان اخوانهم بقوا محافظين على ايمانهم الى ساعة موتهم ولو انهم أسفوا واستاؤوا لعدم التصريح لهم بدفن جثثهم وهو عمل يدل على منتهى الفظاظة والخشونة في صدور الفجار الذين تجردوا من الانسانية فاصبحت أعمالهم واضحة عند جميع الناس

وكانت السنون تمر سراعاً وهذا البطريرك اثناسيوس هائم على وجهه لا يقر له قرار وهو كل يوم يتصدع خاطره بسماع الاخبار المحزنة منها ان هوسيوس أسقف كردوفا صديقه المحبوب صادق في سنة ٣٥٧ على مذهب آريوس وأقر على صحته وذلك لانه كان قد اضناه اضطهاد

ثقيل اضعف عقله وكاد يفقده الادراك والشعور ولكنه لم يلبث حتى عاد اليه رشده وسطع نجم حذقه قبل موته فاسترد ما عمل وتاب عن هذه الهفوة التي ارتكبها في ظروف صعبة الا ان اثناسيوس تأثر وانفعل من هذا الفعل حتى كان كأن سهماً حاداً نفذ كبده خصوصاً اذ تلاه فرار ليبريوس اسقف روميه في سنة ٣٥٨ وكان هذا صديقه أيضاً . وفي سنة ٣٥٨ و٣٥٩ و٣٦٠ انعقدت ثلاثة مجالس آريوسية اسهب اثناسيوس في كيفيتها وأعمالها اسهاباً مفصلا وذلك في نبذة له عن مجامع ارمينيا وسلوشيا أظهر في كتابتها ما عهد فيه من الصبر عند اشتداد الاذمة واحتمال الضيق بنفس راضية وسلاسة الطبع ورقة الجانب التي فاق بها الاوائل والاواخر ومن الاسباب التي احزنت قلب اثناسيوس وأحرجت صدره وصول نباء اليه ينعي مارانطونيوس الناسك الذي كان من أحسن الاصدقاء له وأقوى سنيد يشتد به أزره . والذي زاد غمه وكدره انه في سنة ٣٦١ بلغه ان وثنياً أصبح حاكماً للعالم المتمدن بعد ان اختفت آثار هؤلاء المتوحشين ومعنى ذلك ان قسطنطينيوس مات وعقبه يوليانوس الكافر الملحد

أما يوليانوس هذا فلم يكن مسيحياً مع انه تربى تربية مسيحية والذنب في ذلك كله على الذين كانوا مسؤلين عن الكنيسة التي صارت بواسطة اهمالهم وشقاقهم مهملة حتى كادت تبعد عن الصيغة المسيحية كثيراً ومعلوم ان قسطنطينيوس ابن عم يوليانوس هذا كان امبراطوراً مسيحياً

ومع ذلك فقد بدأ حكمه بان ذبح جميع أقاربه كلهم ولم يبق منهم الا يوليانوس نجى من الموت رغماً عن ارادة قسطنطينيوس الذي لم يكن يعرف انه سيخلفه على سرير المملكة . ومع ان يوليانوس هذا كان قد تعين قيصراً في سنة ٣٥٥ وهو في الرابعة والعشرين من عمره الا انه لم تكن له سلطة قط في هذه الاثناء بل كان كسجين تحت تصرف الحكومة وسبب ذلك أن أوغسطس زميله كان ذا نفوذ وسلطة بواسطة تحريضه الجيش على تعضيده والسير خلفه وهذا عمل لم يكن يعرفه قسطنطينيوس في حياته ولذلك ظل يوليانوس ينكر الديانة المسيحية مدة من الزمن ولكنه لم يجاهر بارائه هذه الا قبيل موت ابن عمه قسطنطينيوس حينما اطرح برقع الحياء واذاع بانه وثني قح وأشهر ذلك جهاراً حتى انه ادى رسوم الديانة الوثنية من ذبح الذبائح للاصنام واجراء باقي فرائضها وتقاليدها وكانت المدينة التي يهواها قلبه ويجنح لسكناها مدينة باريس التي لم تكن معروفة قبل ايامه بل هذا أول عهدها بالتاريخ . وهو رجل عزب ماتت امرأته بدون عقب فلم يكن له بنون أيضاً . وقد رقي يوليانوس العرش الامبراطوري في شهر نوفمبر سنة ٣٦١ وصرف أول ايامه في اتمام بعض نظامات ضرورية في القسطنطينية . وفي عشية عيد الميلاد حدث شغب عنيف في مدينة الاسكندرية أوجده الوثنيون الذين كانوا في ذلك الحين معتزين بقوتهم مغترين بجاههم وكان قصدهم من هذا الشغب الايقاع بثلاثة رجال تكرههم العامة وتنفر منهم الخاصة وهم جورجيوس

وديودورس ودراكونتيوس وذلك لان جماعة الوثنيين ظلوا مدة طويلة وهم حانقين ومتغيظين من هؤلاء الثلاثة . أما ديودورس هذا فكان مسيحياً ذا ثروة طائلة ومركز خطير في الاسكندرية وحائزاً لرتبة (كونت) من لدن المملكة الرومانية ويحتمل انه يوناني النزعة ولو انه مصري الموطن وكانت وظيفته في ذلك الحين مراقبة البناء في كنيسة سيزاريوم الكبرى التي لم تكن قد تمت بعد ولكنه كان قد جرح احساسات المصريين واغاظهم في انه قطع خصلة الشعر الطويلة المدلاة على جوانبها اما بشخصه أو ربما استعمل سلطته ونفوذه في اجبار تلامذة الاسكندرية على هذا العمل . اما غديرة الشعر هذه فكانت تستعمل في أيام حكم الفراعنة وعند ابان صولتهم ومجدهم للدلالة على ابن الملك او ابنته واستعملها البطالسة اشارة الى ان حاملها من أصحاب المراتب العالية والرتب الرفيعة وفي ذلك العهد كان يلبسها كل من يفاخر بنسبته الى المصريين ويقول بانه من سلالة اولئك العظام المشهورين

اما دراكونتيوس فاغاظ الوثنيين عند ما كان مديراً للضربخانة المصرية وذلك لانه نقل مذبحاً وثنياً وجده في دار صك النقود . وقد زادت التهمات ضد البطريرك جورجيوس اكثر من كل الذين سبقوه كما انها كانت غريبة في مبناها ومعناها فضلاً عن كونه شدد النكير على جميع المسيحيين الذين يؤمنون الايمان الصحيح ويبتعدون عن كل بدعة حتى انه ضايقهم ضيقاً شديداً - كذلك ابعد عنه قلوب الاحزاب

الاخرى بواسطة طمعه الاشعبي وجوره الذي لا يطاق . من ذلك انه اسخط جماعة الاسكندريين في انه اغرى الامبراطور بفرض عوائد املاك على جميع منازل المدينة كما انه احتكر لنفسه استخراج النطرون والملح وسعى في نفي زينو وهو طبيب وثني طائر الصيت في الاسكندرية ثم انه اغوى ارطميوس(١) والي مصر على مهاجمة هيكل سيرابيس العظيم وهو اقوى حصن وثني بواسطة ثلة من الجند شاكي السلاح ثم جرد هذا الهيكل من التماثيل الموجودة فيه ونزع عنه كل حلية وزينة ازدان بها . واخيراً فكر في احتكار وظيفة « الحانوتية » حتى انه لم يكن يسمح بدفن جثة مالم يحملها رجال عينهم هو لحمل الموتى لغرض الربح القبيح . وكان قبيل ذلك في شهر اغسطس سنة ٣٥٨ ان عامة الناس في الاسكندرية هجموا على كنيسة مار ديونسيوس حيثما كان يسكن جورجيوس في احدى قبابها وكانوا يقصدون اغتياله فاسرع الحرس الامبراطوري لانقاذه من ايديهم وبعد معركة شعواء بين الطرفين انقذوه وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ولذلك اضطر ان يترك الاسكندرية في شهر اكتوبر من السنة نفسها لان خطر الموت كان يهدد حياته فيها ولم يعد الى هذه المدينة الا بعد ارفضاض مجمعي ريمني وسلوشيا (٢)

---

(١) لاجل هذا السبب ولاسباب أخرى مهمة قطع يوليانوس رأس ارطميوس هذا

(٢) قرر مجمع سلوشيا باغلبية الآراء ابعاد جورجيوس وكثيرين من الاساقفة الى اماكن بعيدة عن مراكزهم ولكن هذا الحكم لم ينفذ ولم يعبأ اولئك به

في نحو شهر نوفمبر سنة ٣٥٩ . وقد ذكر اميانوس المؤرخ الوثني ان جورجيوس هذا كان يتهدد الناس بقوله لهم انه قادر ان يؤذيهم بالنفي والابعاد عن الوطن وبعد مضي سنة أخرى من عودته الى الاسكندرية بلغ هذا البطريرك الجبار منتهى السطوة والقوة ووصل به من الغطرسة والخيلاء الى اهانة الحزب الوثني اهانة قاسية نلخصها لك فيما يأتي :-
ذلك انه كان يوجد مكان في الاسكندرية أهمل أمره وتغاضى القوم عنه مدة من الزمن حتى اصبح بؤرة اقذار مع انه كان قبلا هيكلا للوثنيين حيثما قدمت فيه الذبائح البشرية ونحر ابن آدم على مذبحه اكراماً للاله مثراس أحد آلهة المصريين القدماء، وكان الامبراطور قسطنطنيوس قد وهب هذا المكان الخرب الى كنيسة الاسكندرية ولذلك صمم اوديوس حينئذ على بناء كنيسة فيه فكان لا بد له من ازالة ما فيه من الاوساخ والاتربة المتراكمة في ساحته فلما شرع في ذلك اكتشف العمال هوة عميقة جداً ملأى بجماجم البشر ورفات الادميين مما أظهر للناس فظاعة الطقوس الوثنية وشناعة هذه الديانة التي كان المتدينون بها يؤدون فرائضها في هذا الموضع . وقد اغتنم جورجيوس هذه الفرصة لتشهير الوثنية وتقبيح أعمال الوثنيين وعليه رتب موكباً حافلا بالمسيحيين طاف به كل المدينة وهو رافع الجماجم والرموز الوثنية التي وجدها في ذلك المكان . فزاد ضجيج القوم وعلا صياحهم سيما وهم من نمالة المورد وزعانف الشعب الذين كانوا يهرعون الى الشوارع للتفرج على هذا الموكب

ومما زاد الخطب تفاقماً ان عقلاء الوثنيين استاؤا جداً من هذا العمل ولذلك لم يوقفوا اولئك الرعاع عند حدهم أو يمنعوهم عن الاعتداء والهياج. وقد ضاق الخناق عند مابلغ القوم فجأة ان سفينة قدمت من القسطنطينية تنعي الامبراطور قسطنطينوس وتنبيء بتبوُّء يوليانوس الكافر كرسي المملكة. فانتشرت هذه الاخبار في الاسكندرية انتشار النار في الهشيم فانفجرت حدة الوثنيين كالبركان الهائج وجعلوا يرغون ويزبدون كمن بهم مسة من الجنون ثم هجموا على موكب المسيحيين بسرعة البرق الخاطف وجعلوا يصيحون بصوت واحد قائلين « تباً لك ياجورجيوس » ثم امسكوه هو وديودورس ودراكونتيوس وكادوا يعدمونهم الحياة في تلك النقطة لولا ان بعض متشرعي الوطنيين تداخل في الامر فمنعهم من قتلهم واكتفوا فقط بطرح ذلك البطريرك الشقي في السجن مع رفيقيه وتأخر انفاذ الحكم عليهم بضعة أيام. وكان خبر ارتقاء يوليانوس قد عرفه الناس في نحو ٣٠ نوفمبر سنة ٣٦١ ولذلك بقي البطريرك والاثنان اللذان معه في السجن مدة اسبوع أو اسبوعين دون ان يحاكموا لان القضية لم تكن قد رفعت عليهم ولأن جلوس امبراطور جديد قد يؤخر سير القضايا ويؤجلها اكثر ولكن هياج الوثنيين وازدياد سخطهم لم يعرف له اول من آخر. فلما جاءت عشية عيد الميلاد المار ذكرها عظم هذا السخط وصار شغباً يعسر اخماده فهجم على السجن جماعة من سفلة القوم وهم يهرون كالكلاب وجرّوا الثلاثة رجال واخرجوهم خارجاً وهم

يضربونهم بالعصي ويرفسونهم بارجلهم رفساً عنيفاً. وقد وصف يوليانوس نفسه هذا العمل بقوله « ان الشعب مزّق أحد الرجال الثلاثة ارباً ارباً في اقل من لمح البصر ففعلوا في هذا فعل الكلاب في الجثث » . وقد خلطوا لحم جورجيوس بعظمه ثم وضعوه على جمل وربطوا جثتي رفيقيه بحبال وطافوا بهم في انحاء المدينة ليعكسوا الاحتفال الذي عمله المسيحيون ضدهم ويحقرون نتيجته واخيراً احرقوا الجثث على شاطىء النهر وذرّوا رمادها في الماء وهذا العمل يعد نهاية الاهانة التي يهين بها المصري جثة الميت

وعلى هذه الصورة المعكوسة انتهت حياة جورجيوس بطريرك الاسكندرية وهو الذي خلطه جيبون المؤرخ بعد أربعة عشر قرناً مع مار جرجس زعيم الكنيسة الانكليزية واعظم شهيد في المشرق . وقد اتضح في فصل سبق ان هذا الخلط بعيد عن التصور لا يحتمله العقل ولا يقام عليه دليل بل ان الصحيح هو الذي ذكرناه لك دون غيره . ومع ذلك يحتمل ان تكون شيعة آريوس قد اكرمت جورجيوس هذا بعد موته وشادت له كنائس كرّستها باسمه ولكن هذا لا يثبت كونه مار جرجس بطل الشهداء وعميد القديسين

الفصل السادس عشر

أوبة أثناسيوس ووفاته . سنة ٣٦١ للمسيح و١٧ للشهداء

لما بلغ يوليانوس خبر قتل جورجيوس أرسل هذا الامبراطور جواباً

غريب المعنى الى الجمعية الوثنية في الاسكندرية يدل ظاهره على انه يؤنبهم ويلومهم لاجل الجرم الذي ارتكبوه بقتل جورجيوس ورفاقه ولكن يفهم من باطنه أنه يشجعهم على هذا العمل بدل أن يفرض قصاصاً عليهم يكون رادعاً لهم عن غيهم والدليل على ذلك العبارة الآتية التي ختم بها يوليانوس جوابه هذا حيث قال :—

« لقد كان من حسن حظكم أيها الاسكندريون ان ارتكبتم هذا الذنب القبيح في مدة حكمنا فعاملناكم معاملة ودية أخوية حتمها علينا حبنا واحترامنا لجماعة الآلهة واكرامنا واجلالنا لاسمي جدنا وعمنا اللذين دعي بهما علينا وهما اللذان حكما مصر بما فيها مدينتكم الزاهرة . ولكن لا يغرب عن افهامكم ان سلطتنا لا تحتمل الضيم لنفسها وان حكومتنا هذه التي لها ما لها من الحول والطول لا يمكنها أن تتغاضى عن مثل هذه الدعارة الفائقة الحد ولا تسمح بسريانها بين رعاياها الآمنين ولكنها تداوي سوء الخلق هذا بكل طرق العنف والقسوة بواسطة أدوية ناجعة فعالة . ولكننا بناء على الاسباب التي ذكرناها آنفاً نتصرف في مسألتكم الحاضرة تصرف الطبيب العاقل الدمث الطباع بان نكتفي بتوبيخكم على ما ارتكبتموه وتحذيركم من العودة لمثله مرة أخرى كما اننا نستعمل معكم أنواع العلاج التي نعرف انها ملائمة لطبيعتكم لعلمنا انكم لستم فقط ابناء أولئك اليونانيين العظام بل انه ما زال يتمثل امامكم ما كان لاسلافكم من صفات المجد وآثار السؤدد . وعليه ارجو اذاعة هذه المبادىء

والافكار بين اخوتنا سكان الاسكندرية »

ولا ريب في ان يوليانوس كان شديد التمسك بدينه الوثني غيوراً على عقيدته غيرة كادت أن تقوده الى اثارة اضطهاد ضد المسيحيين لو لا انه شعر ان مثل هذا الاضطهاد قد يوجد رباطاً متيناً بين المسيحيين على اختلاف نزعاتهم وتعدد مذاهبهم فيقومون ضده مرة واحدة وان هذه العصبة القويه في ظروفه الحرجة تلك قد تفقده ملكه بل حياته اذ لا قدرة له على مقاومتها ومناجزتها وعليه اكتفى باصدار أوامر كثيرة التضييق في سبل التربية والتعليم والضغط الشديد على العقول مما أعاق عمل الكنيسة وعطل سيرها عطلة تدعو الى الاسف كما انه من الجهة الاخرى ضرب شيعة آريوس التي كانت قد قويت ضربة قاضية كادت تجهز عليها وذلك لانه أصدر أمراً بارجاع جميع الاساقفة الذين نفاهم قسطنطينيوس الى كراسيهم واعادة أملاكهم التي سلبتها الحكومة اليهم.

ومن أحسن المآثر في تاريخ هذا الامبراطور الوثني رد أثناسيوس وكثيرين معه ومنحه ما كان له قبلا من السلطة والمكانة وكان ذلك في شهر فبراير سنة ٣٦٢ وعاد معه اسقفا فرسيلي وكالاريس من أوروبا وكانا قد نفيا الى طيبة . أما أسقف كالاريس فسار تواً الى انطاكية ولكن أسقف فرسيلي بقي في الاسكندرية ليحضر انعقاد المجمع الذي شكله أثناسيوس عقيب عودته من منفاه ولم يحضر هذا المجمع سوى عشرين أسقفاً من بين كثيرين كانوا تحت رئاسة أثناسيوس في أيامه الاولى قبل

أن تتوالى عليه المصائب والنكبات . وقد قرر هذا المجمع أن يقبل في عضوية الكنيسة كل الذين يقبلون قانون الايمان الذي قرره المجمع النقاوي وذكرناه قبلا وذلك منعاً لما عساه ان يحدث من شقاق قديم مر وانقضى واتقاقاً لسير شحناء تتولد من مباحثات ومماحكات فارغة لاطائل تحتها . أما هذا البطريرك فلم يكد يتنفس الصعداء من هول النفي والاضطهاد حتى عادت الاهوال تترى عليه وتنصب المصائب تباعاً فوق أم رأسه فان يوليانوس الذي أعادة من منفاه عاد فغير رأيه من نحوه ونوى الشر لاثناسيوس (١) لعلمه بان الديانة الوثنية كادت تطمس آثارها وتعفو رسومها ما دام هذا البطريرك موجوداً في الاسكندرية . وقد بلغ من نخة يوليانوس انه لم يعتبر اثناسيوس نداً له يناصبه العدوان بل انه احتقره وازدرى به ولكنه ما لبث حتى حنق وسخط سخطا شديداً لما علم ان البطريرك المذكور لم يكد يلقي عصا الترحال في الاسكندريه حتى أقدم على تعميد بعض السيدات اليونانيات اللائي كنّ وثنيات واعتنقن الديانة المسيحية وعليه أصدر أمراً قاطعاً بنفي اثناسيوس من الاسكندرية حالا بحجة ان

---

(١) كتب يوليانوس مرة الى والي الاسكندرية يقول : مع انك مهمل كثيراً في ان تكتب لي عن مسائل متعددة وانا اغضي عن هذا الاهمال الا انه كان يتحتم عليك ان تخبرني عن تصرفاتك مع اثناسيوس عدو الآلهة وكاره الاوثان وانت تعلم حقيقة مقاصدي ضد هذا الرجل التي اخبرتك عنها من زمن مضى . وعليه فانني اقسم بالاله سيرابس العظيم انه ان لم يبرح اثناسيوس الاسكندرية — بل القطر المصري في اوائل شهر دسمبر فانني اغرم جميع موظفي حكومتك غرامة قدرها ١٠٠ رطل ذهب قصاصاً لهم . واعلم اني بطيء العقاب ولكني بطيء العفو والصفح

العفو الامبراطوري لم يشمله أو ان حالته لا تنطبق على منطوق هذا العفو

فسمع اثناسيوس هذا الامر في شهر اكتوبر سنة ٣٦٢ وحينئذ أسرع لمقابلة أصدقائه وتعزيتهم على فراقه لهم وكانت عيونهم تهمع بالدموع وكادت قلوبهم تتمزق من هول الوداع الذي لم يعرفوا نهايته ومن ثم ابحر اثناسيوس في النيل قاصداً الانحاء القبلية . وقبلما ابتعد كثيراً جاءه خبر بطريقة سرية ينبئه ان عمال الحكومة يقتفون أثره ويجدون في طلبه للايقاع به وهم على مقربة منهم ولو انهم غير ظاهرين له لانهم كانوا في منعطف من النهر يخفيهم عن العيون . فلما علم اثناسيوس بذلك أوعز الى رجاله وهو بغاية الرصانة والتعقل ان يديروا دفة القارب الذي كان فيه ويرجعوا الى الوراء ثم سار تواً لملاقاة السفينة التي انفذتها الحكومة خلفه فلما اقترب منها ناداه الرجال الذين فيها وطلبوا معرفة ما اذا كان اثناسيوس في هذا القارب أم لا فاجابهم هو بنفسه قائلا (هو ذا اثناسيوس قريب منكم) وفي أقل من لمح البصر غاب قاربه عن أعينهم فسار الى شيرو حيث القى مرساه فيها ومنها قصد منفيس (جيزة) براً ومكث فيها ريثما كتب الرسالة السنوية التي كانت تكتب في العيد وترسل الى جميع الكنائس وحينئذ سافر قاصداً طيبة ليختبيء فيها مرة أخرى . وبقرب مدينة هرموبوليس التقى اثناسيوس بثيودورس رئيس دير طنبسى (١)

(١) ان دير طنبسى (ومعناه مدينة ايزيس) هو غالباً الدير المعروف الآن بالدير الابيض على مقربة من سوهاج

وكان قد جاء ليحتفل بقدومه احتفالا باهراً اضاء فيه السرج الوهاجة والمصابيح المضيئة كانه يستقبل ملكا ظافراً لا بطريركا منفياً بائساً . فمكث اثناسيوس مدة من الزمن في هرموبوليس وانطينو واعظاً بكلمة الخلاص متمما واجباته بغاية النشاط والامانة كما لو كان سائحاً يفتقد رعية لاهاربا من وجه أعدائه . ولما انتصف فصل الصيف بلغ اثناسيوس ان الخطر أصبح محدقاً به يتهدده في كل لحظة فعول على الهرب الا ان ثيودورس وأحد رؤساء الاديرة الاخرى توسل اليه ان يمكث عندهم ويختبئ في دير قريب من تلك الجهة اسمه دير تابنا ولكن اثناسيوس رفض الاقامة ورحل في قارب مغطى ومعه الراهبان اللذان كانا يرافقانه دائماً فعاكستهم الرياح ولم تجر معهم بما تشتهي السفينة فذاقوا أشكال التعب والعناء في جرها ببطوء كثير . وقد ظل اثناسيوس يصلي طول اليوم حتى انه لم ينظر في وجهي رفيقيه وأخيراً أفاق كمن كان مغشياً عليه والتفت نحوهما قائلا (هبوا اني قتلت) ...... ثم كف عن الكلام لما رأى الراهبين يبتسمان في وجهه ابتسامة الفرح العجيب وحينئذ أخبراه انهما بينما كان هو غارقاً في صلاته علما بطريق الالهام الالهي أن يوليانوس فارق هذا العالم ولم يبق له أثر فيه وكان كلامهما صحيحاً فان يوليانوس مات قتيلا في معترك الطعن والضرب في ٢٦ يونيو سنة ٣٦٣ ولا يعلم شيء عن كيفية قتله ولكن المؤرخين الوثنيين في ذلك العصر لم يشكوا في أن أحد عساكره المسيحيين أخذه غيلة وقتله بطريق الخيانة والغدر وقد حمل

العسكري على ذلك تعصبه وكرهه ليوليانوس الذي ساقه الى التصور الى انه أوحى اليه ليقتل عدو الرب ويخفي آثاره. ولكن هذا الزعم لم يقم أدنى دليل على اثبات صحته بل ان كاليستوس أحد رجال حرسه زعم ان شيطانا ماردا أودى بحياته كما أن المسيحيين قالوا انه قتل بسر الهي لا يدركه أحد. وليس حلم الراهبين اللذين كانا مع اثناسيوس من الامور الغريبة فقد شاع في ذلك الحين ان أناساً كثيرين في انحاء مختلفة من المملكة جاءهم الهام روحي عن موت يوليانوس في ذات اللحظة التي فيها فارقت روحه جسمه. وقد قلنا فيما سبق ان حلم ثيودورس الذي رآه في القارب كان السبب الوحيد الذي صد اثناسيوس عن الفرار ونذكر الآن حلما آخر رآه ديديموس العلامة الاسكندري الشهير الذي عرفنا عنه انه كان كفيف البصر حاد البصيرة فانه حلم حلما يشبه حلم ثيودوس. وتفصيل ذلك أن هذا العالم الذي كان قد بلغ من الكبر اشده شعر شعوراً عميقاً بالضيق الذي استولى على الكنيسة وحزن لما رأى تقدم الوثنيين وانتصارهم عليها فصرف يوما كاملا في الصوم والصلاة والابتهال الى الله الى ان أضناه التعب والسغب فاستلقى على منضدته في منتصف الليل واستولى عليه النعاس فنام. وفي الساعة الاولى بعد نصف الليل قام من نومه مذعوراً اذ سمع صوتا جهوريا يناديه قائلا: ـ (لقد مات يوليانوس فقم وكل وبشر اثناسيوس بذلك). اما ديديموس فكتب تاريخ اليوم والساعة اللذين رأى فيهما هذه الرؤيا بغاية الدقة فاتضح

له فيما بعد ان يوليانوس مات من الجروح التي اصابته في ذات اللحظة التي حلم فيها

ومن اشهر الاحلام في هذا المعنى واكثرها شيوعا في مصر حلم باسيليوس الذي صار فيما بعد اسقفاً لقيصرية كبدوكيه . وقبل ان يشتهر يوليانوس بالكفر والالحاد كان باسيليوس صديقه الشخصي الذي يركن اليه ولذلك استدعاه يوليانوس عند جلوسه على العرش الامبراطوري ورجاه ان يقيم عنده ويكون من رجال بطانته خصوصاً وان باسيليوس كان قد تربى تربية حسنة وعرف بالتقوى والتدين بين الناس . ولما كان باسيليوس على وشك اجابة الدعوة التي دعاه بها يوليانوس سمع عن ارتداده وكفره ولذلك رفض طلبه رفضا باتا وعدل عن الذهاب اليه والاقامة عنده . فهاج سخط يوليانوس لسبب رفضه دعوته واغتاظ غيظاً شديداً فقصد الانتقام من باسيليوس باضطهاد قيصرية التي كان قد عين كاهناً فيها في ذلك الوقت وكتب اليه كتابا للتحكك وطلب منه مائة رطل من الذهب الوهاج ليصرفها على الحملة التي جردها ضد الفرس وتوعده بدك قيصرية دكا وهدمها من اساساتها اذلم يرسل الذهب حالا فحار باسيليوس في امره واستولى عليه اليأس ولم يدر ماذا يفعل في طلب يوليانوس هذا ولكنه عاد فهدىء روعه عند ما رأى هذه الرؤيا العجيبة وهي انه ظهر له في حلمه ان السموات انفتحت ثم سمع الرب يسوع المسيح يدعو عبده مركوريوس ان يذهب حالا ويقتل يوليانوس عدو

خدامه الامناء . فامتشق مركوريوس سلاحا صقيلا يخطف الابصار بضوء لمعانه . غاب مرتين اختفى فيهما عن الاعين ثم عاد في المرة الثالثة وقال هاتفاً (ها قد قتلت الامبراطور يوليانوس كما امرتني يارباه فقضى نحبه) لما ظهرت لباسيليوس هذه الرؤيا استيقظ من نومه خائفا وجلا وسار مسرعا الى الكنيسة حيث كان الكهنة وجماعة المؤمنين مجتمعين فيها يؤدون صلاة نصف الليل فقص عليهم الرؤيا التي رآها فلما سمعوها طلبوا اليه ان يكتم الخبر ريثما يتأكد صحته ولكن باسيليوس لم يقبل مشورتهم بل اذاع امر حلمه في كل صقع وناد ولم يمض زمن حتى وردت الانباء تروي بما يثبت صدق حلمه وموت يوليانوس ففرح الشعب لذلك وطربوا (١) واذا انت نظرت صورة القديس مركوريوس الموجودة في بر مصر تجده مرسوما وبيده سيفان متقاطعان فوق رأسه وترى تحت سنابك جواده صورة يوليانوس الشاحبة عليها تاجه مطروحين على الحضيض

ولما مات يوليانوس اختار الجيش العامل رئيس الحرس الامبراطوري امبراطوراً بدله وكان اسمه يوفيانوس وهو ككثيرين غيره من امبراطرة الروم سربي الجنس من عائلة عريقة في النسب . وقد كان مسيحياً يعتقد الاعتقاد الصحيح ولذلك كانت مدة حكمه القصيرة سلاماً وراحة للكنيسة

(١) قد اوردنا هذه الحكاية هنا كما رواها يوحنا النيقاوي الذي يذهب الى ان باسيليوس كان في ذلك الوقت اسقفاً لقيصرية

كما ان اكثر رجال الجيش الذين كانوا قد زاغوا عن الايمان في أيام يوليانوس عادوا الى معتقدهم الاول في أيام هذا الامبراطور فعم السرور جميع الرعايا وانشرحت أفئدتهم كثيراً الا الوثنيين الذين لما شاهدوا خراب هياكلهم وقفرار معابدهم بالاهلين علموا أن ديانتهم لا تؤثر في القلب الا أثيراً سطحياً يعود عليهم بالضرر والشر اذا بطل الضغط واطلقت الحرية الدينية . وقد ذكر بعض المؤرخين ان يوفيانوس أصدر أمراً اباح فيه حرية الضمير المطلقة لجميع رعاياه على السواء . ولكنه نهى عن ممارسة الاعمال السحرية الباطلة ثم كتب خطاباً الى اثناسيوس يدل على شريف احساسه واعجابه به وفيه يلتمس منه ان يشرح له المعتقد الصحيح شرحاً وافياً . فصدع اثناسيوس بالامر وكتب هذا الشرح على نسق رسالة رعوية صادرة من مجمع ديني وبعدها أبحر يوفيانوس قاصداً انطاكيه حيث استقبل فيها باحتفال باهر

وفي هذه الاثناء لم تغمض اجفان اتباع آريوس في الاسكندرية ولم يفتأوا في عملهم فان واحداً منهم اسمه لوشيوس الذي كان جورجيوس قد سامه قساً قبل وفاته عقد النية على مقابلة هذا الامبراطور الجديد في انطاكية والالتماس منه بان يعينه في وظيفة البطريرك الخالية وذلك لعلم هذه الفئة انهم لا يمكنهم الحصول على غرضهم بالطرق القانونية اذا هم بقوا في الاسكندرية وعليه سار رهط آريوس للمثول بين يدي يوفيانوس في انطاكية وبيدهم طلب عرضوا على رفعه اليه . فلما التقوا به عند ما كان

خارجاً في موكبه للنزهة سألهم ان من أنتم وماذا تريدون فاجابوه انهم مسيحيون من الاسكندرية يطلبون تعيين بطريرك لهم فاخبرهم الامبراطور بانه سبق وكتب لاثناسيوس ليرجع الى وظيفته . فقالوا له ان اثناسيوس صار من المغضوب عليهم واصبح منفياً من سنين مضت وان رجوعه لوظيفته لم يكن غرضهم الذي جاءوا لاجله . فلما قالوا هـذا تقدم أحد العساكر وقاطعهم الحديث اذ اخبر الامبراطور بان هؤلاء القوم هم النفاية التي خلفها جورجيوس المحروم وعليه سار يوفيانوس في سبيله دون ان يلتفت الى طلبهم ولكنهم اكثروا من الالحاح ورجوه ان يسمع لهم ما يلقونه عن اثناسيوس ثم تبعوه في طريقه حتى اضطروه ان يسخط على البحارة الذين لم ينتهزوا فرصة يطرحون فيها لوشيوس في اليم عند سفره معهم من الاسكندرية الى انطاكية

وفي شهر فبراير سنة ٣٦٤ قفل اثناسيوس راجعاً الى الاسكندرية ولم يكد الدهر يبتسم للمصريين بعودته حتى كشر لهم عن انيابه وصدع خاطرهم بموت يوفيانوس الذي كانوا يرجون منه كل خير وبركة . اما سبب موته فهو انه طلب ان يؤتى له بوجاق فيه فحم ليدفئ غرفته لان البرد كان قارصاً ثم عمد الى فراشه ونام وفي الصباح وجدوه جثة بلا روح

وقد خلفه فالنتيان الاول على سرير المملكة وهو لا علاقة له بمصر لانه كان قد عهد بالشرق الى أخيه فالنس الذي يهمنا أمره وكان آريوسي

المذهب وهي الصفة التي تضمه مع المسيحيين ولو انه لم يكن على شيء من الديانة المسيحية قط. أما اذا أردت ان تعرف صفته الحقيقية فهي مضطهد المسيحيين ليس الا . والدليل على ذلك انه في سنة ٣٦٥ أصدر أمراً بنفي جميع الاساقفة القويمي المذهب وهم الذين أعادهم يوليانوس نفسه . ولما بلغت هذه الاخبار مدينة الاسكندرية في نحو شهر مايو من هذه السنة هاج القوم كثيراً دفاعاً عن اثناسيوس حتى ان والي مصر لم يتجاسر وينفذ أمر النفي اليه

وفي شهر اكتوبر بينما كان اثناسيوس مقيماً في زاوية بكنيسة القديس ديونيشيوس علم ان الوالي مصمم على مقاومته والقبض عليه ولذلك اسرع بالفرار حتى ان جنود الامبراطور لما هجموا على الكنيسة في ذات الليلة التي هرب فيها اثناسيوس بحثوا عنه كثيراً حتى في السقوف والجدران فلم يقفوا له على أثر . وقد قال سقراطس المؤرخ ان اثناسيوس مكث اربعة شهور مختبأ في مقبرة آبائه . ولما رأى الامبراطور ان السلام لا يستتب في مصر والحالة هذه أجل انفاذ اوامره الى فرصة أخرى وسمح لاثناسيوس بالعودة الى كرسيه وظلت مصر بعد ذلك سنتين من الزمان آمنة مطمئنة تمارس فرائض الديانة المسيحية وتسعى في انتشارها تحت رعاية بطريركها اثناسيوس وفي خلال هذه المدة حدث شغب من الوثنيين في الاسكندرية في غرة يوليو سنة ٣٦٦ حرقت بواسطته كنيسة سيزاريوم الكبرى التي كان قد تم بناؤها في سنة ٣٦١ كما علمت في الذي مر بك

وفي سنة ٣٦٧ لما رسم لوسيوس الاريوسي رسامة غير قانونية خارج القطر المصري قصد ان يستحوذ على كرسي الاسكندرية بغير حق فطمحت انظاره لمسند البطريركية الذي طالما اشرأبت نحوه الاعناق وحاول الطامعون الوصول لسدته العالية وظن لوسيوس هذا انه لابد وان يأخذ هذه الوظيفة قسراً او بتصديق من الامبراطور . فلما وفد لوسيوس الى الاسكندرية سار قاصداً منزل أمه التي كانت لا تزال على قيد الحياة ولم يكد خبر وصوله يطرق الآذان حتى احتاط بالبيت جمهور يزبد كالبحر الزاخر فلم يسع الوالي الا ان ارسل بعض الموظفين يأمرونه بالخروج من القطر المصري حالا ولكن هؤلاء الموظفين عادوا واخبروا الوالي بانه اذا أصر على اخراجه من منزله فهو يعرضه للقتل بايدي جماعة الثائرين اكثرهم من حرفيش الوثنيين وعليه انفذ الوالي كوكبة من الفرسان حملته على الاكف بين ضجيج القوم وهديرهم ثم وضعوه في اليوم التالي في سفينة واخرجوه خارج القطر لينقذوا حياته من الموت الذي شاهده بعينه

وفي سنة ٣٦٨ بدأ اثناسيوس بترميم كنيسة سيزاريوم التي حرقت وفي السنة التالية وضع اساسات كنيسة اخرى دعيت باسمه فيما بعد .

وفي هذا الوقت طلب اهالي مدينتين في مقاطعة بنتابوليس تعيين اسقف لهم يختص بالنظر في شؤونهم ثم ألحوا على اسقف الابروشية التابعين لها ان يرسم لهم شاباً عالمانياً اسمه سيداروس . فعنفهم اثناسيوس بروح الوداعة على نشوذهم هذا لانهم لم يطلبوا الطلب منه رأساً وبعد ان فحص الامر

اتضحت له اهلية سيداروس واستحقاقه فرقاه الى ابروشية مهمة جداً وبعد هذا العهد حرم اثناسيوس رجلاً قاسياً عاتياً هو حاكم ليبيا « المغرب » ثم ارسل منشوراً الى رؤساء الكنائس على اختلاف انواعها يذكر فيه هذا الامر و يفصح عن الاسباب التي دعته الى ذلك . وقد صرف اثناسيوس الخمس سنوات الاخيرة من عمره وهو يؤدي واجباته بكل تأنٍ وتواضع وكان لا يفتاء يخاطب اساقفة جميع الكنائس الخارجة عن دائرة سلطته ويتوادُّ معهم خصوصاً مع باسيليوس اسقف قيصرية كبدوكية وصاحب الرؤوس المشهورة . فكانت اكثر خطاباته تختص بالشيع المختلفة وتقاوم مبتدعيها سيما بدعة ابوليناريس ومرسلوس من عنكيرة « في اوروبا »

وفي سنة ٣٧٣ انتهت حياة هذا البطريرك العظيم وهي حياة طويلة نافعة قضاها في اهم الاعمال واكثرها منفعة لتقدم الديانة المسيحية ونشر بشرى الخلاص بين الكثيرين . وبعد ان عين بطرس خليفة له نام في الرب بسلام وقد جلس على السدة البطريركية القبطية ستاً واربعين سنة

الفصل السابع عشر

انحطاط الامة المصرية . سنة ٣٧٣ للمسيح و ٨٩ من الشهداء

اشرنا في فصل سبق الى النتائج السيئة التي نتجت من حروب المصريين في سبيل الحرية والخلاص من ربقة الذل وذكرنا ايضاً عاقبة الاضطهاد اثارة ديوكلتيانوس في بداءة القرن الرابع وكيف ان هذين العاملين اثرا

تأثيراً مذموماً في صفات الامة المصرية وطباعها حتى أوجدوا فيها نوعان الهوس والسوداء غيرا اطوارها وقلبا سجاياها · واتماماً للفائدة وتكملة لهذا البحث نأتي الآن على شرح الموضوع الذي جعلناه عنواناً لهذا الفصل وسميناه انحار الامة المصرية او هو انحطاطها وتقهقرها وهو عنوان قاسٍ مؤلم ولكن لا مندوحة لنا من تسطيره اذا كنا نتوخى الحقيقة ونجد في طلبها ولو وخزتنا وأدمت القلوب · فهذه الحقيقة المؤلمة هي ان الخلل الذي تطرّق في طباع المصريين وصفاتهم لم يزل موجوداً الى يومنا هذا بل انه زاد وتفاقم شره عما كان عليه في هاتيك الايام الاولى · ومما يجمل ذكره في هذا المقام ان الاقباط ـ كما يسميهم العرب الآن لعدم رغبتهم في اطلاق كلمة مصري عليهم ـ كانوا في ذلك العهد لا ينظرون الى جامعتهم ككنيسة او كأمة ولم يكونوا يفترقون بين مذهب وآخر حباً منهم في حفظ الرابطة القومية ومحافظة على الوحدة الجنسية لا المذهبية · ولكن لما اشعلوا جذوة حرب يرجون من ورائها استقلال وحرية فافقدتهم كل شجاع مقدام ومحب لوطنه غيور · ثم ان الاضطهاد الذي بدأ به تاريخ الشهداء اضاع من هذه الامة ما بقي لها بعد ذلك الحرب من روح التقوى والعفة بواسطة النذابات المريعة التي وقعت عليها · ولما ان ختمت هذه الفصول المحزنة بظهور شيعة آريوس وانتشارها وهي التي اجهزت على ما بقي فيها من شمم المعاطس والحزم الشديد وابدلته بيأس وقنوط من هذا العالم الحاضر حتى صار الاقباط حينئذ يظنون ان نهاية العالم قد اقتربت منذ ظهر المسيخ الدجال « وكان المسيخ الدجال

عندهم هو آريوس » ـ لما ان ثقل عليهم عبء هذه العوامل والمؤثرات التي اوضحناها هنا اوجد في هذه الامة جنوحاً الى العزلة والابتعاد عن هذا العالم بدون اهتمام في امر الآخرين ولذلك هرع خيار القوم تباً تباً وفرادى فرادى الى الاديرة ومغاير الارض طلباً للوحدة والانفراد ولم يبق في البلاد الا الذين لا يهمهم سواء كان المسيح الهاً ام انساناً سواء كانت مصر ذليلة مهانة ام عزيزة حرة ما داموا قادرين على زرع ارضهم وتفليحها وتصريف تجارتهم وترويجها والسلام

وليس غرضنا مما تقدم اثبات ان كل الذين شادوا الاديرة وابتنوا الصوامع والمناسك في الاراضي الجدباء بين سنة ۳۲۰ و ۳۹۰ كانوا مدفوعين بمبادئ عالية شريفة ولا هم كانوا من خيرة الرجال واحسنهم في مصر بل كان بينهم نفر من ذوي الامانة والايمان كاثناسيوس الكبير مثلا كما كان بينهم كثيرون غابت عنا اسماؤهم الآن كانوا يتراوحون بين الدين والدنيا اذ بقوا في الاديرة كرهبان ولكنهم كانوا يهتمون ايضاً بواجبات الحياة وضروراتها حتى ونوافلها وكمالياتها . انما الحقيقة التي نريد ايضاحها الآن هي ان اكثر الذين صاروا رهباناً وراهبات واكثر الذين فعلوا مثل اثناسيوس في انهم لم يتخلوا عن وظائفهم بل استحسنوا عدم الزواج لسبب ضيق ذلك الوقت ومصائبه ـ ان معظم هؤلاء المتبتلين كانوا من احسن المصريين طباعاً واوسعهم عقلا واغزرهم مادة وهم الذين ما بهم هذا الانحطاط الى نذر بتوليتهم فلم يخلفوا اولاداً بعدهم يدافعون عن بلادهم او على الاقل

يحفظون ذكرى والديهم ويحافظون على المجد والسؤدد الذي ورثوه عن أجدادهم . واذا اردت معرفة مقدار اهمية هذا العمل وخطارته على الامة المصرية فعليك بالرجوع الى التاريخ المصري القديم وتقليب بعض صفحاته تجد نتيجته المشؤومة ظاهرة مكبرة . فانه من المسائل المقررة في الاذهان ان مبدأ الرهبنة كان موجوداً في مصر من قديم الزمان ولو انه سار فيها سيراً بطيئاً حتى كاد يبطل بالمرة عند دخول الديانة المسيحية هذه البلاد . ومعلوم انه قبل التاريخ المسيحي باجيال ترهبن كثيرون من المصريين الوثنيين حينئذ ويحتمل ان رهبنتهم لم تكن بحرية ارادتهم بل ان الامة كانت تنتخب العجزة وارباب العاهات وترسلهم الى الجبال لهذا الغرض لانها كانت تعتقد ان الصفات الطبيعية كحسن الخلق والخلق انما هي وراثية يتوارثها الابناء عن الآباء فلذلك لم تكن ترضى بوجود هؤلاء المشوهين في وسطها لئلا يتناسلوا ويكثر نسلهم فيفقد رونق الامة ويحط من قدرها . كذا كان المصريون القدماء يزعمون ان الرهبنة لا تحتاج لرجال من أولي الحصافة والكياسة او من الذين عرفوا بعلو المبادي والصفات الادبية العظمى فلذلك لم يكن يوجد بين رهبانهم من يستحق الذكر فضلاً عن ان أولئك الرهبان الاقدمين امتازوا عن الرهبان المسيحيين بالنظافة التامة التي كانت من اهم الواجبات التي يحتم على الراهب المصري الوثني آداؤها فانهم كانوا يغسلون اجسامهم ثلاث مرات يومياً - قبل صلاة الصبح وفي الظهر وفي المساء وكانوا لا

يأكلون اللحم مطلقاً وكانوا ينكبون على الدرس واستيعاب العلوم والمعارف ولكن لما بدأ المصريون المسيحيون في القرن الثاني باقتفاء آثار آبائهم الاولين وادخال مبدأ الرهبنة في الديانة المسيحية لم ينسجوا على منوال الآباء والاجداد بل ساروا على غير خطتهم في انهم كثيراً ما احتقروا اجسادهم وحسبوها ادنى من اجسام الحيوانات وأفظع. خذ لذلك مثلا مار آمون الذي أسس دير وادي النطرون كان يزعم انه عيب وخجل ان ينظر الرجل التي جسمه عارياً من الملابس وعار ان يخلع ثيابه عنه ولو وقت الاستحمام. كذا اثناسيوس كان يقول ان الاستحمام عادة قبيحة مستهجنة لا توافق الآداب (ما دام الانسان يقف مجرداً من الملابس كما قال آمون) فلذلك صارت اجسام أولئك الرهبان السذج في حالة من القذارة والوساخة تشمئز منها نفوس صبيان الاذقة في البلاد المتمدنة وهم كانوا يحسبون هذه الوساخة علامة على الزهد والتقوى واشارة للبر والقداسة. وعلى هذا القياس صارت النظافة التي كان يعبدها المصري او يعبد جسمه بها ترفهاً وتنعماً مع انه كان قبلا ينفر من القذارة ويستعيذ بالله منها. ولو اقتصر الامر على وساخة الجسم لكان الضرر سهلا هيناً بل تعداه الى وساخة العقول ايضاً فان اكثر الرهبان انكروا على انفسهم الدرس والمطالعة وامتنعوا عن مزاولة العلم والمعرفة وكانت النتيجة ان النباهة والحذق وحدة الذهن التي كانت طبيعية في الامة يتوارثها الاحفاد عن الاجداد ضاعت منها بواسطة نظام الرهبنة ولم

يبق لها شيء من المزايا العقلية السامية . نعم قالوا ان بعض الاديرة صار في القرون الوسطى مدارس للعلم ولكن اذا شئت الحقيقة التي لا مرية فيها انها كانت منسخاً يتعلم فيه الرهبان نسخ الكتب التي بقيت لهم من الاعصر الاولى وكانوا يصرفون اوقاتهم وهم يكدون ويكدحون في الكتابة باليد وقل ان يستفيدوا مما كانوا يكتبون

أما الاسباب التي حملت الكثيرين من أخيار المصريين وأشرارهم الى نذر أنفسهم للرهبنة فهي كثيرة متعددة نذكر لك بعضها ومنها يتضح ان الذين حافظوا على مبادئ هذا النذر هم زهرة رجال الامة بينما السفلة منهم نكثوا بعهدهم وكذبوا فيما وعدوا ولكن نتيجة الفريقين كانت واحدة هي ضرر الامة والتنكيل بها واول باعث على هذه الرهبنة هو القانون الذي وضعه قسطنطين سنة ٣٢٠ وفيه يعفى العزاب والذين بلا نسل من دفع الضرائب المفروضة على غيرهم وهذا القانون حدى بالكثيرين من محبي النفس والمال الى الامتناع عن الزواج بل ساعدهم على الشر والفساد اذ جاء في فقرة اخرى منه ان اللقطاء يربون على مصاريف الحكومة ومنها ان الرهبان كانوا يعفون من الخدمة العسكرية في مدة حكم قسطنطين.

ولكن السبب الاكبر الذي يعزى اليه انحطاط الامة المصرية هو تقهرها او هو سيرها للخلف مع يأس استولى عليها اوجد عندها استسلاماً واستماتة

والنتيجة ان هذه الامة ذاقت من المصائب وقاست من عوامل التأخر ما كان يكفي لملاشاتها . وليقرأ القارئ الكريم بعضاً من نكباتها

ولا يسأم : - قامت هذه الامة فيما مضى وأوقفت نفسها ونفائسها للجهاد في سبيل الحرية تحت راية اخيليوس سنوات متوالية ولكنها لم تنجح . وعقب ذلك ان الرومانيين الذين كان المصريون يبغضونهم شددوا عليهم وضايقوهم اكثر من ذي قبل . ثم لما قنطوا من استقلال وطنهم التفتوا الى امور دينهم الذي اهرقوا دماءهم في سبيله للمحافظة على معتقدهم الاصلي ولكن هذا لم ينفعهم شيئاً ولم يبعد عنهم الشقاق والخناق اذ لم تمض عليهم عشر سنوات في حالة السلام والراحة ليعملوا على اعلاء شأن الكنيسة حتى ظهرت لهم شيعة آريوس بمظهر القوى المنتصر وانتشرت بسرعة زائدة وكانت نتيجتها ان الكنيسة المصرية وقع عليها الاضطهاد واصابها الضيق الشديد من قوم يدعون انفسهم مسيحيين وهم لا يعرفون المسيح . وبينما كان المسيحيون يظنون ان كل هذه المصائب انما هي سحابة صيف عن قليل تنقشع خاب ظنهم عند ما علموا ان وارث العرش بعد قسطنطين واولاده هو يوليانوس الوثني عدو جميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وهو الذي اذاقهم اشكال العذاب والعناء . ومما يدعو الى العجب والاستغراب اكثر من الذي سردناه كله افتكارهم ان نهاية العالم قد اقتربت وهو فكر يطرق على بال كل امة تساورها الاحزان وتنتابها الحيرة والذهول ولذلك استولى عليهم الفساد وفشى بينهم الشر وصار كل منهم يقول في نفسه (لنأكل ونشرب فاننا غداً نموت) وقد تكاثر هؤلاء المفسدون وملأ

تسلم البلاد (١) في الوقت الذي كان فيه الاتقياء الصالحون يفرون هاربين من عالم الشرور هذا لئلا يصيبهم البلاء فيهلكهم وظلوا يصلون بلا انقطاع وقد صلبوا الجسد مع الاهواء والشهوات انتظاراً لمجيء المسيح .

في هذا القرن الرابع الذي فشا فيه داء الرهبنة اصاب بسببه مصر ضرر لم يصبها من قبل وذلك للجهل والغفلة اللذين كانا يستويان في الصالح والطالح معاً . فلو ذكرنا للقارئ مقدار الرهبان والراهبات الذين تنسكوا فلا يكاد يصدقه لولا ان المؤرخين قد اثبتوه بانفسهم لانهم شهدوه شهادة العين عندما جابوا خلال الديار المصرية ليقفوا على هذا الامر الغريب بانفسهم

وحدث في السنة التي توفى فيها البطريرك اثناسيوس ان جماعة من الطليان الذين كانوا مجتمعين في اكويليا ليعيشوا كرهبان لم ترق لهم هذه المعيشة ولم يروا فيها شيئاً من الصواب فقضوا جمعيتهم هذه وتفرقوا في جهات مختلفة . ومن اشهر هؤلاء الشبان دوفينوس وجيروم وقد كانا صديقين حميمين منذ نعومة اظفارهما كذلك عرفت هذه الجمعية بعقيلة اسمها ميلانيا كانت ترأس اعمالها وتدبر حركتها وهذه

(١) ان اداب الذين لم يصيروا رهباناً في ذلك العصر قد فسدت فساداً سيئاً حتى تناقص عدد الاهالي لسبب الفسق والعهر الذي عم بينهم كما ان الاغنياء كانوا يجمعون ثروتهم بطرق النصب والاحتيال بدل الجد والاجتهاد حتى ان الغني كان يعرف بانه اما ماكر غشاش او وريث خبيث محتال

اسبانية النزعة طيبة الأرومة · وكان عمر هذه السيدة اثنين وعشرين سنة رزقت في خلالها بثلاث اولاد اصيبت فيهم بمصيبة جلىّ كادت تودي بحياتها ذلك ان زوجها و ثنين من ابنائها ماتوا بمرض عضال معد فاعتبرت هذه السيدة الآسفة تلك المصيبة قصاصاً لها لانها تزوجت ولم تترهبن فعقدت النية من ذلك الحين على ان تعيش عيشة الزهد والعزلة ولم يكفها ذلك فقط بل قامت تنادي ضد الزواج وتحذر من عواقبه وتشن غارة صماء على كل من يقول به · وقد التقت بروفينوس وكان له من العمر حينئذ سبعة وعشرون سنة فوجدته مصمماً على الذهاب الى مصر لدرس احوال الرهبنة واستطلاع جلية امرها فيها فتركت ابنها الوحيد في ايطاليا تحت رعاية وصي اقامته له وجاءت مع روفينوس واقامت في مصر بينما كان روفينوس ومعه اثنان او ثلاثة من رفقائه يجولون في وادي النيل مفتقدين آثاره الغريبة وزائرين جميع الاديرة والمناسك لمعرفة حقيقتها ودرس نظاماتها واحوالها ولما وفد روفينوس على اوكسيرينخوس وهي المدينة التي قلنا في اول هذا الكتاب ان السمك كان الهها ومعبودها وجد جميع اهاليها قد اختطوا خطة الرهبنة فيها وان كثيرين من الرجال تركوا هذه المدينة واعتزلوا الاديرة والمغائر المنفردة · وقد قال اسقفها لروفينوس انه يوجد في هذه المدينة اكثر من عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبة · ومن غير الزمان ان الهياكل السامقة والمعابد الفسيحة التي كانت مختصة بكهنة الاوثان في عهد المصريين القدماء اصبحت الآن

اديرة ومناسك للرهبان المسيحيين عدا عن اثنتي عشرة كنيسة اخرى بنيت في هذه المدينة لهذا الغرض . وعند مجيء روفينوس ورفقائه الى اقليم الفيوم رأى ان جل سكانه يعيشون رهباناً ولكنهم كانوا يختلفون عن الآخرين في انهم اشتغلوا كفلاحين لزرع الحنطة وكانوا يرسلون محصول اراضيهم راساً الى الاسكندرية . وعلى هذه الحالة سار اهالي منفيس وبابليون وفي دير طنبسي (سوهاج) كان ثلاثة الاف راهب يعيشون كالاموات تحت رئاسة آمون الذي خلف ثيودورس في زعامة هذا الدير وقد رسمه اثناسيوس اسقفاً عليه وكان جورجيوس اسقف كبدوكيا قد ضايقه ونفاه اليه . كذلك كان الحال مع ابولونيوس رئيس دير على مقربة من هرموبوليس (المنيا) يحتوي على خمسمائة راهب كان اثناسيوس قد سامه اسقفاً بعدما اضطهده جورجيوس اسقف كبدوكيا المار ذكره . وقد ترهبن ابولونيوس هذا وهو في الخامسة عشرة من عمره ولكنه كان من اصل طيب ذا غيرة ونشاط فانه مع اهمال اوليائه في امر تربيته صار بجده واجتهاده من مشاهير العلماء الاعلام في ذلك الحين وقد افاد روفنيوس فائدة عظمى في انه اعلمه بحالة الديانة المسيحية في ذلك الوقت كما انه اسهب له في تبيان ماهية ديانة المصريين القدماء وطقوسها واحتفالاتها والرموز الصحيحة التي كانت تستعمل في الزمن الغابر للدلالة على الحيوانات المقدسة وكان ابولونيوس يدقق كثيراً على الرهبان الذين تحت رئاسته ولم يكن يسمح له بالاهمال في اتمام مواجب الحيوة وضرورياتها والتحلي بحلية

الدين والآداب حتى قيل ان ثيابهم كانت نظيفة كما كانت قلوبهم طاهرة ولما برح روفينوس ورفقائه هذا الدير الشهير أوفد معهم رئيسه الذي اشتهر بالكرم والبشاشة ثلاثة من التراجمة كاد لا يرشدونهم في الطريق ويوضحون لهم ما يغمض عليهم معرفته فساروا لافتقاد الاديرة الكثيرة في مدن لم يرد ذكر اسمائها في ما كتبوه عن هذه الاديرة ثم زاروا كثيرين من النساك المشهودين الذين كانوا معتزلين في خلواتهم

وبين هذه الخلوات خلوة قامت على قمة جبل اقفر خلف مدينة انطينوس يصل اليها بطريق وعرة ضيقة حتى ان الذي لم يطأها من قبل لا يمكنه المرور فيها . ففي هذه الخلوة القفره عاش راهب اسمه الياس وحيداً في مغارة واسعة الاطراف ولم يكن له مؤنس فيها وظل على حالته هذه نيف وسبعون سنة كما قال الروّاد الذين زاروه وكتبوا عنه كما انهم اثبتوا انه بلغ من العمر ١١٠ سنين عندما زاره روفينوس وكان قد اصيب بالفالج فاهزله واضعفه . ولم يشهد أحد من جيرانه بأنه راى الياس خارج هذه المغاره او انه سكن في مكان آخر غيرها ثم وقد اشاعوا عنه انه شفى مرضى كثيرين . وقد اتضح لروفينوس وزملائه ان طعام هذا الراهب كان ثلاث أوقيات من الخبز يومياً وثلاث زيتونات كل مساء ولما رآه هؤلاء الشبان السائحين اندهشوا ونظروا اليه نظرة الهيبة والاجلال لما شاهدوه فيه من الصمت والسكوت ثم رجعوا ادراجهم الى الريف بعد ان عانوا مشقة وتعباً في هذا السفر . وقد زاروا ايضاً الخلوة التي كان

يقطنها ثيون وهو راهب اشتهر بعلمه وتضلعه في اللغات اليونانية والمصرية واللاتينية ايضاً

ومن اشهر هؤلاء النساك والزهاد يوحنا الاسيوطي الذي كان يقطن صومعة على اكمة مرتفعة اشتهر بحكمته وعلمه حتى ان القائد الروماني الذي كان معسكراً في اصوان كان يستشيره في الامور السياسية لاعتقاده برصانة عقله ورجحان رأيه كما ان الامبراطور ثيودسيوس كان يسير على رأيه ويهتدي بمشكاة فكره . ولم يقتصر يوحنا على الرهبنة والعزلة فقط بل كان يجمع الصدقات ويوزعها في مديرية اسيوط ذلك لان جميع السكان هناك اتفقوا في ما بينهم على ان يقدموا له عشر ايرادهم فكان يوحنا يجمع هذه الاعشار ويوزعها على الفقراء والبائسين وقد سار هذا المشروع سيراً حثيثاً وبزغت شمسه من اسيوط فانتشرت اشعتها على كل مصر ومنها عم جميع الممالك المسيحية . وقد اسند المؤرخون مبدأ تقويم الاعشار عند المسيحيين الى هذا الراهب الاسيوطي . وبعد هذا العهد كانت هذه الاعشار تجزأ الى ثلاثة اقسام ـ احداها روتب الاكليروس وثانيهما لعمارة الكنائس وثالثها للفقراء والمعوزين . وعلى هذه القاعدة سارت الكنيسة القبطية في هذه الايام فانك اذا دخلت الكنيسة المرقسية الكبرى الان ترى ثلاثة اطباق للصدقات يحملها ثلاثة اشخاص يدورون بها اثناء تادية الخدمة واحد خلف الاخر وكل منهم يمد يده لجماعة المصلين الذين اعتادوا ان يدفعوا ثلاث دفعات ـ واحدة للاكليروس وواحدة لمصاريف

الكنيسة والثالثة للفقراء

أما الرهبان في مصر فكانوا على ثلاثة أنواع ـ النساك وهم الذين يسكنون الاديره جماعات وفيئات . والزهاد وهم الذين يعيشون في الخلوات والصوامع والمتبتلون وهم الذين يجتمع اثنان أو ثلاثة معاً ويسكنون المدن ولكنهم لا يتزوجون

وبعد ان تمت سياحة روفينوس ورفقائه في وادي النيل صعداً عادوا قاصدين وادي النطرون فلما وصلوه وجدوا فيه اكثر من خمسين ديراً فيها ما ينيف عن خمسة آلاف راهب وهم مثل رهبان هرموبوليس في انهم من أحسن النساك واكثرهم نظافة ومعرفة . وقد علمنا ان أول من وضع اساس الاديرة في وادي النطرون هو مارامون الذي مات حوالي سنة ٣٤٥ واعقبه في الرئاسة مكاريوس . ولا يغرب عن ذهن القاريء انه كان يوجد في مصر قديسان يسميان بهذا الاسم وكانا معاصرين لبعضهما ولاجل التفريق بينهما في الاسم سمي احدهما مكاريوس الاسكندري والثاني مكاريوس المصري . وقد يصعب جداً التمييز بين الاعمال التي قام بها هذا من ذاك أو معرفة ما أتاه الواحد من الاخر فضلا عن انه كان يوجد كثيرون يسمون بهذا الاسم . أما مكاريوس الذي اتى ذكره تعالا تذكر بالشكر في أيام اثناسيوس وكان من القسوس المنتمين اليه والمخلصين له فهو غير هذين القديسين على ما يظن . ذلك ان مار مكاريوس المصري كان من اصدقاء مار انطونيوس ومعاصريه وهو ومكاريوس الاسكندري

سكنا وادي النطرون ووادي سيتس الذي يبعد مسيره يوم عن وادي النطرون ولو انه ليتصل به اتصالا طبيعياً . ومما يحتمل التصديق ايضاً أن مكاريوس المصري هو مكاريوس مجنوس بعينه الذي نشأ في القرن الرابع وله تآليف ثمينه رداً على اعتراض الوثنيين على الديانة المسيحية كانت قد لعبت بها ايدى الضياع الى ان نبغ فبسفودس في القرن الثامن ووجد نسخة منها بعد ان صرف اموالا طائلة وتحمل عناء كبيراً ويؤخذ من هذه النسخة ان مكاريوس مجنوس هو مكاريوس المصري كما اسلفنا ولا يوجد مايدعوا للريب في هذا الظن . وكان يوجد في وادي النطرون ايضاً أربعة رهباناً يعرفون بالاخوة الطويلي القامة اكبرهم امونيوس كان قد رافق أثناسيوس الى رومية عند ما مكث فيها سنة ونصفاً . فهؤلاء الرهبان الاربعة كانوا اخوة من أب وأم واحد ومن دين ومذهب واحد وقد اشتهروا بطول قامتهم واعتدال قوامهم كما انهم عرفوا بغيرتهم الفائقة وعفتهم وتقواهم . وقد نشأ في وادي النطرون جمعيتان أسستا على مبادىء الجهل والغباوة ـ فاحداها وهي الاكثر عمه وسخافة كانت ترتأي وجوب تصوير الآله بصورة انسان بكل ملامحه واجزائه وتمثيله جل شأنه بمثالا ظاهر وواضح وأما الثانية فكانت تبحث في الرموز والمعاني الروحية التي وضعها اوريجانوس . ولما زار روفينوس هذا الدير كان السلام والوئام سائدين فيه فلذلك وطن النفس على البقاء هناك ردحاً من الزمن الا ان جو مصر الاسيفة اكفهر بغيوم الاضطرابات الدينية والسياسية فلم

يصف لها الدهر يوماً الا تكدر في الثاني

الفصل الثامن عشر

آخر اسقف أريوسي في الاسكندرية

سنة ٣٧٣ للمسيح و٨٩ للشهداء

كانت وفاة اثناسيوس بدء سعي جديد قام به أتباع اريوس سواء مع الوثنيين قصدوا به قلب الكنيسة رأساً على عقب . فاعيدت المظاهرات التي اشتهرت بتطفل جورجيوس أسقف كبدوكيا وتداخله في أمور كنيسة مصر بلا مسوغ ثم ان الامبراطور ڤالنس كان أريوسياً وكان متغيظاً من ان المصريين قاموا ينتخبون بطريركا لهم حسب اختيارهم فحدث انه بينما كانت تقام الخدمة الدينية في كنيسة مارشيوناس – وهي الكنيسة التي يصلي فيها البطريرك وله فيها مسكن خاص – هجم عليها والي مصر الوثني بالاريوس ومعه فرقة من الجند فاوقع الرعب والخوف في قلوب المصلين . وكان أيضاً ان رهطاً من زعانف الوثنيين واليهود انتهزوا هذه الفرصة لتدنيس المذابح واهانة المسيحيين فلما رأى البطريرك بطرس هذا فعل ما فعله اثناسيوس قبله في أنه فرّ هاربا وقصد كميناً يختبىء فيه . وفي هذه الاثناء كتب البطريرك رسالة رعوية لم تزل موجودة الى الآن وفيها يصف هذه الحوادث التي وقعت يومئذ . وكان دماسيوس البابا الروماني قد انفذ رسولاً من قبله يحمل رسائل السلام والمحبة الى بابا الاسكندرية بطرس فعند وصوله اليها قبض عليه وأرسل

سجيناً يشتغل في المناجم . فلما رأى بطرس هذه الحالة فرّ هارباً الى رومية وبقي ضيفاً فيها خمس سنوات كاملة (١)

وقد عرفنا في ما سبق ان لوشيوس الاسقف الاريوسي كان يسعى للحصول على الكرسي الاسكندري فلما وقعت هذه الاضطرابات نال لوشيوس ما تمناه ودخل الاسكندرية دخول الظافر المنتصر يحيط به جمهور من وجوه المدينة فلم يكد يجلس على السدة البطريركية حتى بدأ باضطهاد الكنيسة المصرية فصب جامات غضبه على الاديرة والرهبان بنوع خاص ويقال انه سار بنفسه الى دير وادي النطرون ومعه فرقة من الجنود الملوكية قاصداً شن الغارة على جماعة الرهبان الذين ابوا انكار ألوهية الابن (٢) . فلما رأى لوشيوس ان الرهبان يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال وانهم راضون باقامة سوق حرب تباع فيها النفوس بثمن

(١) ان امر هذه المشاحنات الغبية بين الطوائف المسيحية المختلفة لم يقتصر على مصر فقط بل تعداها الى رومية والقسطنطينية . اما دماسيوس بابا رومية فلم يتم انتخابه الا بالقوة والعنف

(٢) قال جيبون المؤرخ ان هذه الحملة العسكرية المؤلفة من ٣٠٠٠ رجل التي سارت ضد رهبان وادي النطرون كان القصد منها اجبار الشبان والاقوياء منهم على الخدمة العسكرية . وقد يمكن ان يكون هذا صحيحاً الا ان جيبون اخذ روايته من مصدرين افرنسيين ذكرا ان القانون الذي سنه ثيودوسيوس كان يقضي على الرهبان بالتجند . ولكن جميع المؤرخين في ذلك الحين اتفقوا على ان القصد من هذه الحملة كان ادخال مبادي اريوس بالقوة في دير وادي النطرون الذي كان أقوى حصن ديني في القطر المصري

رخيص امر هذا المبتدع قائد الحملة ان ينفي مكاريوس الاسكندري ومكاريوس المصري رئيسي وادي النطرون وسيتس ظناً منه انه يسهل عليه الانتصار على جماعة الرهبان متى ما أبعدوا رؤساءهم عنهم . ومن ثم نفي القديسان مكاريوس الى جزيرة فيلا في الصعيد الاعلى وكانت هذه الجزيرة لا تزال وثنية بالمرة وفيها هيكل للاصنام مشهور وكان كاهن هذا الهيكل محترما عند سكان القرى المجاورة حتى كادوا يؤلهونه فلما وصلها هذان الرهبان المنفيان حدث فيها هياج واضطراب وذلك ان ابنة هذا الكاهن الوثني سلكت مسلك من يعقلها مس من الجنون في انها اندفعت كالسهام المفوقة الى الشاطيء الذي رسى فيه ذانك القديسان وصرخت قائلة (لماذا اتيتما الينا لتخرجانا من ههنا . فقد ظننا انا في مأمن منكما في هذا المكان الذي لا يعرفه أحد وفيه نقطن آمنين بوائق الايام ولا نحن نؤذي أحداً ولا أحد يؤذينا . فاذا كانت أنظاركما تطمح الى هذه الجزيرة أيضاً فهنيئاً لكما بها خذوها اذ لا مقدرة لنا على مقاومتكم»

فلما فاهت الصبية بهذه الكلمات سقطت على الارض مغمي عليها فتقدم اليها احد الرئيسين الذي كان متضلعاً في علم الطب فعالجها وشفاها وكانت النتيجة ان جميع سكان هذه الجزيرة اعتنقوا الديانة المسيحية ولما بلغ لوشيوس هذا الخبر أصدر امراً خصوصياً باعادة هذين الرئيسين

ولما كان لوشيوس معضداً في اعماله بالحكومة الامبراطورية فلذلك نفى احد عشر اسقفاً بينهم ميلاس اسقف رينوكولورا (هي الآن

العريش في حدود مصر) وكان قد عهد الى قوة عسكرية بنفيه فلما وصلت هذه القوة الى الكنيسة في مساء يوم التقت بشاب كان يشتغل في تصليح القناديل واعدادها لساعة الخدمة فسأله الجند عن ميلاس وكان ميلاس هو هذا الشاب الذي التقوا به - فاجابهم ان ميلاس على مقربة منهم الآن وانه سيخبره بقدومهم حالاثم سار بهم الى منزله وقدم لهم عشاء فاخراً وظل يخدمهم بنفسه فلما فرغوا من تناول الطعام عرفهم بشخصه فدهش القوم من مروءته وجراءته واخبروه انهم يسمحون له بالفرار ولكنه ابى ذلك ففضلا مقاسمة اخوته الضراء من ان يربأ بنفسه ويتمتع بالراحة والسراء

ومن الذين قبض عليهم في دير وادي النطرون روفينوس المار ذكره وسجن مدة من الزمن واخيراً نفي الى خارج القطر المصري . وكذلك السيدة ميلانيا وهي غريبة عن مصر كانت قد جاءت الى الاسكندرية ومكثت فيها نحو ستة شهور ثم نفيت الى ابروشية قيصرية في فلسطين ونفي معها جم غفير من الاساقفة والقسوس والرهبان وقد بثت في قيصرية مدة من الزمن كانت تقبل فيها كل المصريين المنفيين وتقابلهم بهشاشة وبشاشة وتعولهم بمصاريفها الخصوصية وقد عول روفينوس على الالتحاق بها والاقامة عندها ولكنه قفل راجعاً الى مصر حالا وقضى فيها نحو ست سنوات صرف اكثرها في معاشرة الرهبان والامتزاج بهم

ومن اشهر الرهبان في ذلك العصر راهب اسمه موسى كان يعيش في صومعة موجودة في الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين وكان ذا هيبة واجلال لاجل تقواه وورعه وكانت قبائل البدو الرحل - او هم العرب (١) - يعتبرونه ويكرمونه

وكان جماعة البدو في ذلك الحين تحت رعاية ملكة اسمها ماڤيا كان بين زوجها وبين الرومان محالفة ووداد في زمن قبل الزمن الذي كانت فيه . وبعد وفاة زوجها هذا عادت قبائل العرب واشتبكت في حرب استباحت فيه كل بلاد المشرق حتى كادت تدمرها . وكان سكان جنوبي فرنسا في ذلك الوقت قد اتعبوا الامبراطور ڤالنس كثيراً فكان هذا سبباً في ايقاف سير الاضطهاد في مصر . ولذلك لم يقدر ڤالنس على صد هؤلاء العرب عن حدود بلاده فارسل يطلب منهم عقد صلح معهم فصاغت الملكة ماڤيا شروط الصلح واهمها طلب تسليم الراهب موسى اليها لتعينه اسقفاً في بلادها وقد اشترطت هذا الشرط مع انها لم تكن قد صارت مسيحية بعد . فاجاب ڤالنس طلبها وهو يكاد يطير فرحاً وأصدر الاوامر المشددة بالقبض على موسى واحفاده الى الاسكندرية لكي يرسم اسقفاً سواه بطوعه ام بالرغم عنه . اما موسى فجاء الاسكندرية برضى وطيب خاطر ولكنه لما عرف ان

«١» ان كلمة «بدوي» كانت اسماً عاماً يطلق على كل قبائل العرب الساكنة بين ساحل البحر الاحمر ونهر الفرات

لوشيوس البطريرك الاريوسي سيضع يده عليه ليرسمه رفض الرسامة رفضاً باتاً وقال : ـ (انني احسب نفسي غير مستحق لهذه الوظيفة السامية ولكن اذا كانت دواعي الحال عند الحكومة ماسة لتوظفي فيها فلا مندوحة لي من قبول هذه الوظيفة ولكنني لا اقتبلها من لوشيوس ولا هو يضع يده علي ليرسمني لانها يد ملوثة بدماء الابرار القديسين)

فاغتاظ لوشيوس واعترض على هذه الجرأة التي بدأت من موسى وقال انني لم اطلب احضاره امامي لكي يؤنبني ويعنفني بل طلبته لاتمه المبادئ الدينية واعلمه منشأ العقائد الصحيحة . فرد عليه هذا الراهب الفاضل قائلاً انا لم نختلق في المسائل الدينية بعد وان هذا الامر لا علاقة له بالدين ولكن المسألة بسيطة لا تحتاج الى بحث كثير هي انني رفضت الرسامة من يد لوشيوس الذي اضطهد المسيحيين واذاقهم مر العذاب . ثم بدأ موسى بايراد الادلة والبراهين على القسوة والوحشية اللتين رآهما في لوشيوس رأي العين ولكن لوشيوس لم يحتمل سماع هذا الكلام المؤلم فصرفه من امامه على عجل وللحال سار به الحراس الى الجبال ليبحثوا عن احد الاساقفة المنفيين لكي يضع يده عليه ويرسمه ، ولما تعين موسى اسقفاً انتشرت بواسطته الديانة المسيحية انتشاراً واسعاً بين جماعة البدو وفي السودان ايضاً ولما رقي يوستنيان العرش الامبراطوري صارت جميع هذه البلاد مسيحية بالمرة

وفي ربيع سنة ٣٧٨ رأى البطريرك بطرس ان فالنس مهتم بأمر سكان شمالي اوروبا الذين كانوا يوالون هجماتهم على حدود بلاده وعليه لم يبق للوشيوس سند او عضد في مصر فآب هذا البطريرك من رومية ليجلس على كرسيه ثانية وساعده شعبه الذي قام بنفس واحدة ضد لوشيوس وطرده من الاسكندرية · فرفع لوشيوس دعواه الى فالنس الذي اشغلته هذه الشواغل عن مساعدته ثم قتل هذا الامبراطور في معترك الهيجاء في السنة عينها فخابت بموته آمال لوشيوس واوهامه

وجلس ثيودوسيوس بعد فالنس على عرش المملكة الشرقية وهو اسباني الاصل وابن ثيودوسيوس الاكبر الذي خدم هذه المملكة خدمة تذكر وهو من قوادها البواسل وكان جزاءه على هذه الخدمات العظيمة انه راح ضحية لاوهام فالنس وخرافاته · وتفصيل هذه الخرافة هو ان فن التكهن وضرب الرمل كان شائعاً في المملكة الرومانية في ذلك الوقت · وحدث ان بعض محاربي فالنس عقدوا جلسة رسمية لضرب الرمل ليعرفوا منها من الذي يخلف فالنس في المملكة وما هو مصير رجل اسمه ثيودورس كانوا يهتمون بامره ويخشون سلطته · فلما ضرب الرمل ظهرت فيه هذه الاحرف الاربعة مكتوبة وهي : ت - ي - و - د - وهي اوائل اسم الرجل الذي يعقب فالنس حسب زعمه فلذلك اصدر هذا الامبراطور امره بقتل ثيودورس حالاً وانتحل لنفسه سبباً ليقتل كل شخص مشهور يبتدئ اسمه بهذه الحروف ث - ي - و د · وكان

بين الذين انطبق اسمهم على هذه الاحرف ثيودوسيوس البطل المقدام وابنه المسمى باسمه فقتل الاب اما الابن فتمسك برأي صائب هو انه اركن الى الفرار وذهب الى اسبانيا حيث أقام في منزل اسلافه الى ان ملك فيما بعد كما اسلفنا

اما المملكة الغربية فبعد موت فالنشنيان سنة ٣٧٥ خلفه فيها ابنه غراطيان وكان له اخ يافع تحت رعايته فالمانت فالنس رأى غراطيان ان المملكة الشرقية في قبضة يده وانه قادر ان يضمها الى مملكته ولكنه تصرف تصرف الحكيم العاقل الذي يعلم ان المطامع منشأ كل شر وويل فلذلك ارسل واستدعى اليه ثيودوسيوس وكان عمر غراطيان نحو عشرون سنة وعمر ثيودوسيوس ثلاثة وثلاثين عاماً وكانا كلاهما يدينان بالدين الصحيح ويرفضان كل بدعة وخرافة . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ لما رأى ثيودوسيوس ان الاحوال الدينية قد تضعضعت في القسطنطينية وانها وصلت الى دركات الانحطاط اكثر من الاسكندرية ورومية نشر بين اهالي هذه المدينة بياناً وايضاحاً وافي عن كيفية الايمان وعمله ومقدار تأثير التقوى والدين في القلوب وكان قبل هذا الوقت بسنة طلب من البطريرك بطرس القبطي ان يعالج هذا الداء لعله ينجح في تقويم هذا الاعوجاج فلبى البطريرك طلبه وظل يهتم بامور القسطنطينية الدينية وينهمك في تدبير احوالها منذ ماآب من رومية الى مصر

ومن مشاهير الرجال الذين عبق عبير اعمالهم وسطع ضوء فضلهم فانار

دياجير الظلمات التي اكتنفت اواخر الجيل الرابع هو غريغوريوس النزينزي. صحيح ان لا علاقة له بتاريخ مصر ولكن ارتباطه ببطريرك الاسكندرية وعلاقته المتينة معه يسوغان لنا ذكر بعض ما شتهر به من الفضائل والفواضل

فغريغوريوس هذا هو ابن غريغوريوس اسقف نزينزن في كبدوكيا وكان قد رفع افاويق العلوم في اثينا في ذات المدرسة التي تربى فيها الامبراطور يوليانوس الكافر وباسيليوس اسقف قيصرية اللذان ذكرناهما قبلا · وكانت امياله متجهة الى الرهبنة ولكنه لم يرض ان يفارق والديه الهرمين فلذلك بقي معهما وكان يعيش عيشة الزهد والتنسك معتزلا كل عمل دنيوي مع انه كان وكيلا لابيه في اعماله · ثم ان اباه اضطره بالرغم عنه ان يقبل وظيفة كهنوتية وهو في السادسة والثلاثين من عمره وكان غرض ابيه من ذلك ترشيحه لرتبة الاسقفية التي لا يمكنه ان ينالها اذا ظل عالمانياً · وفي سنة ٣٧٢ صمم ابوه وباسيليوس اسقف قيصرية على تعيينه اسقفاً لساسيما وهي بلدة صغيرة تابعة لمقاطعة كبدوكيا كان قد ادعى مطرازتيانا انها واقعة ضمن ابروشيته · ولكن غريغوريوس رفض قبول هذه الوظيفة لاسباب بدأت له ومع انه سيم اسقفاً الا انه لم يمارس اعمال الابروشية التي تعين لها ولم يتداخل في شؤونها وبقي يساعد اباه في اشغاله الى ان مات ابوه في سنة ٣٧٤ وله من العمر مائة سنة ثم توفت امه عقيب وفات ابيه وكانت تحب زوجها في حياته فلم ترض ان تفارقه في مماته فدعاها الصوت الالهي من السماء فلبت الدعوة وفارقت هذه الدار الفانية حينما كانت جاثية تتناول العشاء الرباني

وكان لغريغوريوس اخ واخت ماتا قبل هذا الحين فاصبح هو وحيداً في هذا العالم وبقي سنتين ينظر في اعمال الابروشية التي عهدت اليه منتظراً تعيين خلف له ولكنه راى ان وجوده في هذه الوظيفة قد يدعو الناس الى الظن بانه طامع فيها راض بحمل عبئها الثقيل المذاك اختفى فجأة وذهب الى دير شلوسيا حيث مكث فيه ثلاث سنوات في حالة الزهد والنسك

وفي سنة ٣٧٩ رفع اليه مسيحيي القسطنطينية المستقيموا الرأي عريضة ممهورة بامضاء عدد كبير من الاساقفة ومصدق عليها من بابا الاسكندرية فيها يلتمسون منه ان يجيء هذه العاصمة ويعمل على تثقيف كربهم . وكان في القسطنطينية غير شيعة آريوس اكثر من ست شيعات دينية متغايرة المبادي متباينة الافكار وكانت جميعها معدودة هرطوقية تقول بغير التعليم الصحيح . ومن اهم هذه الشيعات الشيعة المانوية وشيعة نوفاتيان اما غريغوريوس فلبى الدعوة وسار الى القسطنطينية حيث اتخذ لنفسه بيتاً معتزلا وبداء يعلم الناس ان يسلكوا بالتقوى والعفاف وان يبتعدوا عن المماحكات الدينية الفارغة وهي تعاليم كان قد اهمل احدها زمناً طويلا . وقد بنيت كنيسة اكراماً له سميت كنيسة القيامة وظل غريغوريوس اكثر من سنة يعاني فيها اشق الاعمال واتعبها

وفي هذه الاثناء وفد على القسطنطينية رجل اسمه مكسيموس وهو سايح اسكندري تاريخه يدهش الالباب ستقف عليه في ما يلي . وكان

الرجل مسيحياً نصرانياً ولكنه كان فيلسوفاً شكساً شرساً . وقد ادعى انه مقر بالايمان القويم بدين للحق ولكن اعدائه قالوا عنه انه جلد بالسياط ونفي ليس لاجل ايمانه وتقواه بل لاجل سوء تصرفاته . ومن المحتمل ان مكسيموس هذا كان شديد الذكاء قوي المعارضة حتى انه صرف جهده ليؤثر تأثيراً قوياً على بطرس بطريرك الاسكندرية وغريغوريوس بطريرك القسطنطينية . وقد وصفه الواصفون بانه شاب ليس حسن المنظر له شعر اشقر طويل استرسل جدائله متشذرات الى الاسفل حتى تغطي منكبيه . قال عن نفسه انه صار صديقاً مكيناً لغريغوريوس حتى ان هذا اخلص له الضمير بناء على كلامه المملوء من الرياء والمداهنة مع ان مكسيموس ما فتئ كل هذه المدة يدس الدسائس عند بطريرك الاسكندرية ـ الذي كان له ثقة عمياء فيه ـ وذلك لكي يطرد غريغوريوس عنوة من وظيفته ويأخذ لنفسه الرئاسة في القسطنطينية

وكان بدء هذه الدسائس انه قال لبطرس مرة انه اخطأ خطاء كبيرا في تصديقه على تعيين غريغوريوس في القسطنطينية تعييناً غير رسمي وان نقل غريغوريوس من ساسيما التي لم يقبل التوظف فيها كان غير قانوني ايضاً . ثم اتهم غريغوريوس بخشونة الاخلاق وفظاظة الطبع وقال ان اهالي القسطنطينية المهذبين يأنفون منه ويتذمرون . فمال بطرس بكليته الى سماع هذه التهمات ونوى على ارسال وفد من الاساقفة الى القسطنطينية مزودين باوامر مقتضاها تعيين مكسيموس بدلا من غريغوريوس

فلما وصل الوفد الى القسطنطينية كان غريغوريوس مريضاً لكن من فرط حبه لمكسيموس لم يتأخر عن اظهار صداقته له فقام من فراشه وسار مع الوفد الاسكندري ليلا الى الكنيسة حيث بداؤا باقامة الاحتفال لاجل رسامة مكسيموس . وكان من المحتم قص ضفائر الشعر الجميلة المسترسلة على رأس مكسيموس قبل ان يلبس القلنسوة (وهي التي نادى اثناسيوس بابطالها قبل ذلك الوقت ببضع سنوات قائلا انها خصت بالكهنة الوثنيين لا بالكهنة المسيحيين) وقبل ان يتم الاحتفال اشرقت شمس الصباح فهب اهالي القسطنطينية وساروا الى الكنيسة ليعرفوا ماذا يعمل فيها فهجم الاوباش على الكنيسة وطردوا المحتفلين منها ولكن شعر مكسيموس كان قد قص في حانوت احد المزمرين فلذلك لم يطق البقاء في القسطنطينية لاجل هياج الشعب ضده فقر قاصداً تسالونيكي ليقابل ثيودوسيوس ويلتمس منه الاسعاف والمدد فرفض ثيودوسيوس مساعدته والاعتراف بسلطته فعاد راجعاً الى الاسكندرية وطلب من البطريرك بطرس ان يستعمل ماله من السلطة والنفوذ في تعضيده . اما بطرس فكان قد ازيح الستار الذي أسدل على عينيه وتجلت له صفات صديقه ومحسوبه فأبى ان يصغي اليه وطلب من الوالي انه ينفيه فنفاه من الاسكندرية . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ انتقل البطريرك بطرس الى رحمة ربه

وقد دخل الامبراطور ثيودوسيوس الى القسطنطينية دخولا

رسمياً في نوفمبر سنة ٣٨٠ وفي مايو سنة ٣٨١ شكل مجمعاً عاماً يبحث عن الطرق المؤدية لدوام السلام في الكنيسة وليبت الحكم بنوع خاص في مسألة بطريركية القسطنطينية التي كانت في حالة الارتباك والتشويش وقد أعيد انتخاب غريغوريوس الى رئاسة القسطنطينية ولكنه استقال بالنسبة الى كثرة الانشقاقات رغبة منه في دوام السلام وكانت استقالته قبل ارفضاض جلسات المجمع ثم سار الى نزينزن سنة ٣٨٣ وظل يمارس اشغال هذا الكرسي الى ان تعين اسقفاً فيها بدلا منه بناء على طلبه وحينئذ اعتزل العمل وصرف الستة شهور التي بقيت من حياته في الاشتغال بالآداب والعلوم . ومع ما اشتهر به هذا الرجل من طيبة القلب والتبحر في العلوم فقد يحتمل انه في آخر سني حياته سار على الخطة التي سار عليها امبروز في اوروبا وثوفيلس في مصر في انه استعمل نفوذه الشخصي في استمالة ثيودوسيوس نحو التحيز والتشيع الى فريق دون الآخر بدلا من ان يحمله على ايقاف سير الشحناء والبغضاء التي سرت بين تلك الشيع المتعددة

وقد جلس على الكرسي البطريركي في الاسكندرية بعد بطرس اخوه تيموثاوس الملقب بالفقير وذلك لانه وزع كل ما يمتلكه من حطام الدنيا . وكان تيموثاوس هذا عضواً في مجمع الاسكندرية وقد اشترك في المفاوضات التي افضت الى استعفاء غريغوريوس وله اليد البيضاء في نشر قانون المجمع النيقاوي بالصورة التي نتداولها الآن ما عدا الجملة

الافتتاحية التي مر ذكرها فلم يصادق عليها مجمع عام مطلقاً

ولما بدأ هذا المجمع يبحث في المسألة المعضلة وهي وضع ترتيب معروف لمراكز البطريركات المختلفة كان الجميع على اتفاق تام في هذا الموضوع . ففي القرنين الاولين كانت الكراسي الخمسة التي من الدرجة الاولى هي : الاسكندرية ورومية وانطاكية واورشليم وقيصرية وكان الكرسي الاسكندري صاحب الاولوية على هذه جميعها (١) . وكان كرسي رومية يتقد حسداً لاسبقية كرسي الاسكندرية عليه ولكن بطاركة الاسكندرية الذين اشتهروا بالرقة واللطف وحسن المجاملة رضوا بنقض الاشكال ولو افضى الى التنازل عن افضليتهم . وكانت الرئاسة الفعلية والخطاب العام الذي يصدر سنوياً وفيه تاريخ عيد الفصح مصدرهما الاسكندرية . فلما اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية صار لمدينته الجديدة مركز بين البطاركات الاصلية . فعند ما انعقد المجمع النيقاوي دهم الاسكندرية اول مصاب حط من شهرتها ذلك لان هذا المجمع قرر اعتبار التاريخ الغربي قاعدة لعيد الفصح . ومن ذلك العهد اخذت سلطة رومية الكهنوتية في الازدياد بينما الاسكندرية والقسطنطينية كانتا تنحطان وتضعفان لداعي الخصومات المستمرة ولكثرة الاضطراب والقلاقل . ومن الاسباب التي اوجبت تقدم رومية ان الامبراطرة الذين

---

(١) في القانون الذي صدر من مجمع نيقيه وضع الكرسي الاورشليمي في الدرجة الثانية اما الرئاسة الحقيقية فكانت تتراوح بين الاسكندرية ورومية

على مذهب اريوس لم يكونوا يعبئون بها او يهتمون بأمرها بل كانوا يصرفون جل جهدهم في مقاومة بطريرك مصر والحط من شأن الاسكندرية . وفي مجمع سرديكا المنعقد سنة ٣٤٣ (وهو مجمع غير عام) فازت رومية بالحصول على قانون عام يقضي باستئناف المشاكل الى بابا رومية باعتباره حكماً في المسائل المتنازع فيها . وفي مجمع القسطنطينية الذي نحن في صدده سعت في الحصول على اثبات مدعاها بطريقة قانونية ليس فيما يختص بالرئاسة — لانه لا يسمح لها بها — بل فيما يختص بالاسبقية والاولوية . وكان لغراطيانوس وابيه قوة في المملكة الغربية ولذلك ادعوا الرئاسة على المملكة الشرقية ايضاً ولهذا كان الوقت مناسباً جداً لما تدعيه رومية خصوصاً ان ملك ثيودوسيوس كان تحت رحمة امبراطور اوروبا فلم يسعه التداخل في هذه المسألة او البحث فيها ولكنه كان يتمنى لو ان عاصمة مملكته (القسطنطينية) تحصل على الدرجة الثانية في الترتيب . وانتهى الامر بأن صدر قانون في مجمع القسطنطينية هذا يخول لرومية حق الرئاسة والقسطنطينية تالية لها وصارت الاسكندرية في الدرجة الثالثة بين كراسي البطاركة وكان تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وهو عضو في هذا المجمع لم ينل اصواتاً كغيره فلذلك خرج من المجمع غاضباً ساخطاً وآب مع اساقفته الى مصر حيث صرف ما بقي من حياته في اتمام الواجبات المفروضة عليه بكل هدو وسكينة وقد كتب تواريخ حيوة كثيرين من القديسين

المصريين ومع اشتغاله باعمال اخرى اصدر ايضاً تعليمات للاساقفة والقسوس يهتدون بهديها في معضلات الامور ومن هذه التعليمات المرعية ان الكاهن يتحمل على نفسه المسؤلية اذا هو رفض اتمام عقد زواج يظنه غير قانوني كأن يكون زواج الرجل بأخت امرأته المتوفاة . وفي قانون آخر انه لا يجوز الصلوة على رجل انتحر وهو مختل القوى العقلية. وفي غيره كتب رداً على سؤال وجه اليه قال « ان الذين يأكلون سهواً قبل المناولة لا يجوز حرمانهم من تناول الاسرار المقدسة لهذا السبب حيث ان الشيطان كثيراً ما يتخذ مثل هذه الطرق لمنع الآدميين من العشاء الرباني فاذا نحن حرمناهم منه فنكون كمن ساعده على تضليله »

وقد جاء في بعض التواريخ ان هذا البطريرك شاد عدة كنائس في الاسكندرية واذا انت تصفحت قائمة اسماء القديسين المصريين تجد بينهم اسم تيموثاوس ولكن نيبل المؤرخ يقول انه لا يمكن ان يكون القديس تيموثاوس هو هذا البطريرك ما دام ان القديسين المصريين كانوا غير متزوجين وان هذا البطريرك كان متزوجاً . ولكن حيث انه كان بين بطاركة الاسكندرية الاولين كثيرون منهم متزوجون وكانوا يعدون من ضمن القديسين ايضاً فهذا البرهان الذي اتاه المؤرخ المذكور لا يثبت هذه الحقيقة التي قلناها عن تيموثاوس ولا ينقضها

الفصل التاسع عشر

سقوط هيكل سيرابيس

سنة ٣٨٥ للمسيح و ١٠١ للشهداء

بعد ان تنيح البطريرك تيموثاوس الملقب بالفقير اختير ثوفيلس خلفاً له وقد كان كاتب سر للبطريرك اثناسيوس. وقد قال عنه يوحنا النيقاوي انه ولد من والدين مسيحيين في مدينة ممفيس . تيتم ثوفيلس وهو في مهد الطفولية وكانت له اخت صغيرة ايضاً فنيط امر تربيتهما بجارية حبشية كانت ملكاً لابيهما . فحدث في ذات ليلة قبل بزوغ الشمس ان الجارية اخذت الطفلين الى هيكل الآلهة الكاذبة وفيه تمثالا ارطاميس وابولون وكانت تقصد العبادة كعادة الوثنيين . ولم يكد الطفلان يطأا ارض الهيكل حتى سقطت الاصنام الى الارض وتحطمت تحطيماً (١) فخافت الجارية اقتصاص الكهنة الوثنيين منها ففرت هاربة وجاءت بالطفلين الى بلدة نيقيوس ولكنها لم تستقر فيها طويلا لانها رأت ان اهالي هذه المدينة قد يمكن ان يسلموها الى كهنة الاصنام فحينئذ سارت بالولدين الى الاسكندرية . وكأن الهاماً من الروح القدس اوعز اليها ان تأخذ الطفلين الى احدى الكنائس لكي يتسنى لها فهم عبادة المسيحيين بطريقة جلية . فحالما ولجوا باب الكنيسة وجلسوا على مقربة من المنبر تحول

(١) ان حكاية يوحنا هذه غامضة مبهمة وقد يحتمل ان الطفلين اضرا بالاصنام في انهما طرحاها على الارض وحطماها تحطيماً

نحوهم نظر البطريرك اثناسيوس فأمر بابقاء هؤلاء الاشخاص الثلاثة في الكنيسة الى ما بعد نهاية الخدمة . فلما ارفضت الكنيسة جيء بالولدين والجارية امام البطريرك فوبخ هذه الأمة لانها ذهبت بابناء والدين مسيحيين الى هيكل الوثن ثم أوضح لها ان هذه الآلهة الكاذبة لا تفهم ولا تعي ولا مقدرة لها على مساعدتها في شيء فضلاً عن انها تحطمت امام ولدين صغيرين ثم قال لها « من الآن فصاعداً يبقى هذان الطفلان في قبضة يدي »

فلما رأت هذه الجارية ان سرها قد انكشف وانها لا يسعها انكار ما فعلت طرحت نفسها على قدمي البطريرك والتمست منه ان يعمدها لكي تصير مسيحية فقبل اثناسيوس هذا الالتماس بكل ارتياح وعمد الثلاثة معاً ثم وضع الصبية في دير بقيت فيه الى يوم زفافها اذ تزوجت برجل من بلدة المحلة (غربية) وفيها ولدت انبا كيرلس الملقب بالنجم المشرق الذي صار بنعمة الله بطريركا بعد خاله ثوفيلس

اما ثوفيلس فبعد عماده البسوه الحلة البيضاء (التونية) وجعلوه في زمرة الطلاب فشب على خوف الله وتضلع من معرفة الكتب المقدسة وكان مطيعاً لاوامرها سائراً حسب فرائضها . وقد ترقى الى رتبة شماس ومن ثم الى رتبة الكهنوت وأخيراً اختير للكرسي البطريركي اذ اضاء مدينة الاسكندرية باكلها بنور ايمانه الساطع . وقد فاز باستئصال شافة الاصنام من جميع المدن المصرية حتى لم يبق واحد يعبد التماثيل

المنحوتة كما انبأ عنه القديس أثناسيوس قبل الآن

ومعلوم ان ثوفيلس كان غيوراً غيرة تفوق حد الوصف ولكنه عرف بالتقصير في مضماري الحكمة والتواضع . وكان خيراً له ان لا يكون موضع ثقة الامبراطور ثيودوسيوس ومحط افكاره لان هذه الثقة أوجدت فيه نوعاً من الخيلاء والصلف . ولدينا الآن ايضاح بسيط عن السنوات الاولى من رئاسته نبسطه هنا شرحاً لاعماله التي عملها

من ذلك ان أول واجب فرضه عليه الامبراطور هو ان يبت رأيا في مسألة عيد الفصح التى وقع الاختلال والاختلاف فيها مرة ثانية حتى انه في سنة ٣٨٧ صار الفرق بين العيد المصري والعيد الروماني مدة خمسة أسابيع كاملة . وبناء على ذلك وضع البطريرك تقويماً للاعياد لمدة ٤١٨ سنة وصنع جدولاً يحتوي على الايام التي يقع فيها عيد الفصح لمدة مئة سنة مبتدئاً من سنة ٣٨٠ . ولا تزال صورة هذا الجدول الخاص باعياد الفصح باقية الى يومنا هذا وفيها اوضح ثوفيلس افكاره بان مخلصنا صلب في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان (ابريل) لا في الرابع عشر منه . ثم وضع هذه القاعدة وهي : اذا كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمري يوافق يوم الاحد فعيد الفصح يتبعه باسبوع . ومما يحتاج الى اثبات او هو يحتمل الشك واليقين كون ثوفيلس ارسل كاهناً من قبله اسمه اسيدورس في خلال اللدد والخصام بين ثيودوسيوس ومكسيموس مزوداً بخطابات شكر وتهنئة

ليوصلها الى الحزب الفائز من الحزبين

وفي نحو سنة ٣٨٩ تحصل ثوفيلس على هبة من الامبراطور هي اطلال هيكل دارس خاص بباخوس اله الخمر في الاسكندرية حيث قصد ان يبني فيه كنيسة . فعند الشروع في حفر الاساسات اكتشفت قباب متنوعة مرسوم عليها صور تدل على الطقوس الدينية لعبادة الاوثان وقد عرفت في ما مضى ان جورجيوس أساء كثيراً بتقويضه اركان هيكل الاله متراس الخاص بالوثنيين وكذلك ثوفيلس ارتكب شططاً بالطريقة التي سلكها نحو هذه الطقوس الوثنية ولم يكن طويلاً حتى اصبحت شوارع الاسكندرية مرسحاً لخصام دائم ونزاع مستمر بين المسيحيين والوثنيين خصوصاً وان هؤلاء كانوا يسيرون يومياً نحو الانحطاط والفناء ولذا اخذ منهم اليأس والطيش كل مأخذ سيما وانهم في مدة حكم قسطنطين كانت ديانتهم الوثنية تعامل معاملة حسنة اكثر مما كان ينتظر قياساً على الحوادث التي وقعت في الاثنتي عشرة سنة التي سبقت هذه المدة.الا ان قسطنطين كان قد أبطل الذبائح الوثنية خصوصاً التي كانت تجري تحت جنح الظلام لانها كانت ذبائح بشرية تعتبر كقتل وجنايات فظيعة . اما قسطنطينوس فلم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى مقاصة كل من خالف امر قسطنطين ومعاقبته بالموت وضم ممتلكاته لجانب الحكومة . الا ان هذين الامبراطورين كانا يحترمان الفنون ويعتبران الآثار القديمة ولذلك لم يسمحا بملاشاة الهيا كل

والتماثيل التي كانت تحتوي على أهم العاديات واثمنها . صحيح انهما امرا بايصاد الهياكل وعدم تقديم ذبائح فيها ولكنهما أيضاً أبقيا عليها كآثار قديمة وأقاما لها حراساً على مصاريف الحكومة وعينا لها أدلاء يرشدون الزائرين الى مشاهدة ما فيها من الفنون والصنائع . ولما زار ايوليانوس محل ترواده القديم لم يجد ان الهياكل محفوظة فقط على غاية ما يرام بل ان الحارس صار أسقفاً لها

أما في مدة حكم ثيودوسيوس فتغير كل هذا النظام وأبدل بالمرة ذلك ان مبدأ التعذيب والاضطهاد الذي ادخله اتباع آريوس في الكنيسة وجد له منزعاً عند الارثوذكس فصاروا يميلون ايضاً الى اضطهاد كل من يخالفهم في الدين والمذهب حتى ان الرهبان كانوا اكثر الناس شراً من هذا القبيل وقد بلغت شرورهم الحد وعم اثمهم كل مكان خصوصاً مصر فاصبحوا فيها جيشاً ناشذاً يسيرون حفاة الاقدام حتى اشبهوا جماعة الثوار في كل اطوارهم من جهل وعمى وبعدت عنهم المعرفة والعلم . ومما طوح بهم الى مهاوي الشر والفساد عدم وجود ذلك الرباط الطبيعي الذي يربط الانسان عن ارتكاب المنكر . ثم زاد عصيانهم وصلبت رؤوسهم فلم يكونوا يطيعون آدمياً سوى رؤساء اديرتهم . فهؤلاء الرهبان أخذوا في تقويض الهياكل والتماثيل الوثنية في كل انحاء المملكة وذلك ضد الاوامر الامبراطورية . ومما يستدعي الاسف انه لما عزم ثيودوسيوس على التداخل بقوته على إيقاف هذا الخراب العام ارهبه امبروز الميلاني وأوقفه

عن قصده بالتهديد الديني . وفي سنة ٣٩٣ اصدر ثيودوسيوس أمراً يدفع به الغوائل عن مجامع اليهود ولكنه ترك هياكل الوثنيين التي كانت آية في الرونق والبهاء تحت تصرف الرهبان فلم ينج من ايديهم الا المدرسة الرومية المخصصة لاقامة الاعياد وهيكل جوبيتر وذلك رغماً عن ارادة امبروز ولكنهما أبيدا بعد وفاة ثيودوسيوس في مدة حكم ابنه . أما في مصر فقد سارت عوامل الخراب في هاتيك الهياكل سير النار في الهشيم وذلك بامر ثيودوسيوس بناء على طلب البطريرك ثوفيلس . فلم يبق حجر على حجر من هيكل سيرابيس الا ونقض وقد كان هذا الهيكل معدوداً من أجل الاعمال الهندسية في مدينة الاسكندرية

واذا قلنا أن اعمال ثوفيلس هذه كانت منشأ للاضطرابات والقلاقل فلنا أن نقول أيضاً ان الوثنيين انفسهم اجهزوا على ما بقي لهم من الرفعة والمجد وجروا انفسهم الى الحضيض . وكان في اثناء الخصومات التي حدثت بين الوثنيين والمسيحيين ان قتل كثيرون من هؤلاء . أما الوثنيون فاختاروا أولمبيوس رئيس كهنة هيكل سيرابيس قائداً لهم ثم ذهبوا وتحصنوا في قنن هذا الهيكل العظيم وأخذوا يدافعون عن انفسهم ويصدون هجمات مدينة الاسكندرية التي قامت ضدهم . وقد كان هذا الهيكل كحصن حصين لانه بني على صعيد من الارض على شكل بديع وفي وسطه ردهة واسعة وكانت جدرانه سميكة مبنية على شكل هندسي دقيق تعلوها طبقة من النحاس وتمر تحتها مماش وطرق سرية وهو مقسم من الداخل

الى غرف تختص بعضها بالكهنة وبعضها بالمصلين وبعضها بالضيوف وفيها مكان هائل معد للمكتبة الكبرى التي فاقت مكتبة المتحف المصري في عظمتها وكثرة محتوياتها . ففي هذا الهيكل السامق تحصن وجوه الوثنيين ومعهم رجال ابطال أعدوا للحرب والقتال فكانوا يسخرون وهم من داخل ابوابه بالامبراطور والبطريرك معاً ولكنهم لم يبقوا على هذه الحالة طويلا بل هددوا الامن العام اذ خرجوا من حصنهم وهجموا على المدينة هجمة واحدة واحتملوا جمهوراً من المسيحيين أدخلوهم في هيكلهم وعذبوهم امام المذابح ليضطروهم لان يذبحوا للاوثان

ومعلوم ان الحكومة لا تسمح باستمرار مثل هذه الحوادث ولذلك سار ايفاجريوس والي مصر في ثلة من الجند وتقدم نحو الثائرين ثم أخذ يسرد لهم نتيجة هذا العمل الذي يعد ضرباً من الجنون ويظهر لهم سوء العقبى وصرامة القصاص الذي يقع عليهم اذا هم ظلوا يسخرون بالسلطة الرومانيــة . ولم يكد ينتهي من كلامه حتى قام اولمبيوس والقى في قومه خطاباً فصيحاً يحضهم على احتمال أي عناء وتعب لا ان يتركوا آلهة ابائهم عرضة للهزء والسخرية . فلذلك رفض جماعة الوثنيين المصريين سماع كلام الوالي الروماني وشاحوا بانوفهم اعراضاً عن نصائحه بانفة وشهامة عرفت عن أجدادهم الاولين

ولما كان هذا الهيكل حصيناً لا يمكن فتحه الا بعد حصار طويل وحرب عوان ترك الوالي جماعة الوثنيين فيه دون ان يفاتحهم العدوان ثم

كتب لمولاه الامبراطور يسأله اعطاء التعليمات والاوامر اللازمة للعمل بموجبها في حل هذا المشكل . فرد عليه الامبراطور ثيودوسيوس قائلا أن المسيحيين الذين قضوا نحبهم في هذه الحوادث يعدون ضمن الشهداء ولذلك يجب مسامحة قاتليهم والتجاوز عن سيآت الذين أساؤا اليهم . ثم أمر الامبراطور بهدم جميع الهياكل التي في الاسكندرية وازالتها من الوجود ما دامت هي سبب هذه الاضطرابات ومنشاء هذا الهياج والثورات

فلما ذاع خبر الامر الذي أصدره الامبراطور ودرى الناس انه سيقرأ جهاراً على رؤوس الاشهاد احتشد كثيرون من المسيحيين والوثنيين لسماع مؤداه ومعرفة ما حواه . فلما اتم الوالي قراءته صاح المسيحيون صيحة الابتهاج والتهليل أما الوثنيون فعرتهم دهشة ورعب وفروا هاربين فلما أتى المساء واسدل الظلام حجابه خرج اولمبيوس واتباعه من الهيكل وتركوه وشأنه تعبث به أيدي العبث وساروا يلتمسون لانفسهم كميناً يلجأون اليه . قيل انه لما خيم الظلام ومدّ الليل رواقه مر أحد المسيحيين على الهيكل فوجده بلقعاً بوراً ليس فيه أحد من الانس ولما اقترب الى مزار الهيكل الذي فيه الذخائر المقدسة سمع صوتاً من الداخل يقول (لا يوجد أحد هنا) ثم تلا هذا الصوت نغمة تسبيح ختمت بكلمة (هللوياه) فعجب الرجل لهذا الامر الذي لم يعرف له سبباً ولكنك ستعرفه أنت فيما يلي

وفي اليوم التالي استيقظ سكان الاسكندرية سحراً جداً وبداء هرج الناس ومرجهم يتزايد وجموعهم تتوافد الى أن انتظم عقد الاحتفال وسار في مقدمته البطريرك والوالي راكبين جنباً لجنب وتبعهم جمهور الكهنة يرتلون ويسبحون ثم العساكر يسيرون عابسين وفي أيدهم القؤوس والحراب وباقي ذوات الخراب . وبينما كانت هذه الجموع المكتظة تسير الهوينا، كان يقول الواحد منهم للآخر ان الا تذكر تلك النبوءة القديمة التي فاه بها بعضهم وقال انه في اليوم الذى تتلاشى فيه هذه الاصنام تضمحل الارض وتتساقط السموات وتتقوض دعائم العالم باسره ويعم الخراب والفناء كل متحرك وجامد فيه . وكثيرون من المسيحيين كانوا يصدقون هذه الخرافة حتى خافوا اتمام هذا العمل لئلا تصح النبؤة وتخرب الدنيا. فلما اقترب ذلك الموكب من الهيكل صعد نحو مائة رجل على الدرج حتى وصلوا الى الطيارة الكبرى التي رقاها ذلك الشاب اوريجانوس وحده قبل هذا الزمن وقام فيها خطيباً والخطر يتهدد حياته وذلك لكي ينادي يسوع مصلوباً الذي جاء خدامه الآن في أبهة الرئاسة وعظمة القوة تحيط بهم الجنود وتحف بهم سطوة المملكة الرومانية ليهدموا هيكلاً يمثل الديانة الوثنية القديمة ويبرهن بوجوده على قوة تأثير الديانة المسيحية الحديدة وفعلها السريع

وكان كثيرون من المسيحيين الملتمين حول بطريركهم والوالي تتراوح قلوبهم بين عوامل الخوف والفرح ولم يكونوا قد رأوا هذا

الاله العظيم الذي جاؤا ليرموا به في الحضيض وهو الذي تسلط على عقول المصريين مدة ستمائة سنة وملك افهامهم بخرافات واباطيل كان منبعها ذلك المزار المقدس الذي كانت تخرج منه أصوات لا يفهم الناس مصدرها فكانوا يعدونها اسراراً لا يقدر على ادراكها الا هذا الاله الكاذب . وقد وقف هؤلاء المسيحيون يشخصون في هذا التمثال وهم سكوت كأن على رؤوسهم الطير بينما كانت آمال جماعة الوثنيين الحاضرين تذبل ورجاؤهم في هيكلهم العظيم خاب وضاع لما رأوا عوامل الخراب والدمار تفعل فيه فعلا قاسياً . وقد يغلب على الظن ان والد هيباشا التعيسة كان بين هؤلاء الحاضرين وهو الذي صار فيما بعد شهيد هذه الديانة الهالكة . وكذلك هيباشا كانت في ذلك الوقت يطفح وجهها بالجمال الناضر مع انها لم تكن في عنفوان الشباب وكانت تنظر الى هذا الاحتفال الغريب نظرة المعجب المغضب ولا بد انها درفت فيما بعد غلط هذه الحفلات التافهة ووخامة هذا التعصب الغبي الذي اتاه جماعة يعبدون ابن النجار الذي عاش في هذا العالم يسالم الاشرار ويؤاخي الخطاة ويأكل مع العشارين ويدخل بيت امرأة خاطئة ويعفو عن الزانية بينما عبيده وخدامه يقتصون من كل من سار على غير مذهبهم وخالفهم في مشربهم . وقد عثرنا في كتاب على وصف لتمثال الاله سيرابيس فآثرنا نقله هنا افادة للقراء الكرام وهاك الوصف :

« كان للآله سيرابيس تمثال هائل جالس القرفصاء وله يدان تمتدان

في عرض المكان وتتصلان بجدارين على جانبيه وهو مصنوع من معادن مختلفة اغبر لونه واكفهرّ منظره لمرور زمن طويل على صنعه ولكنه كان مرصعاً باحجار كريمة ثمينة لا تزال تتألق وتضيء حتى تكاد تخطف الابصار بلمعانها . وكان على صورة رجل هرم وضع على رأسه مكيالاً للغلال رمزاً على الخصب وجودة الحاصلات والى جانبه صورة رأس اسد ورأس كلب ورأس ذئب . وكانت احدى يديه على شكل افعى وذلك رمزاً على الخلود . ولا غرو ان خليفة أثناسيوس (اي ثوفيلس) كان ينظر الى التمثال الذي يدل على عظمة الديانة المصرية القديمة نظرة معجب بها مندهش من فخامتها كما ان جماعة الاسكندريين كانوا ينظرون بعين ملؤها الاعجاب بهذه المبادىء القديمة التي سادت على مصر في الازمنة الماضية سيادة لم تكن لتنزع لولا مجيء الوقت الذي فيه ملك ذلك الملك العظيم على هذا العالم فقامت كنيسته حينئذ ووضعت اعداءها تحت موطىء قدميها »

ولما بداء الهدم في ذلك الهيكل ضج قوم من الواقفين وعجوا واخذ دخان يثور من افواههم يدل على ان وراءه نار قد يتأجج سعيرها اذا حركتها الازند ولذلك رأى البطريرك أن الحكمة تقضي باتمام هذا العمل في اسرع وقت لان التأخير قد ينتج ضرراً لا تعرف نتيجته الا بعد حدوثه ومن ثم التفت نحو رجل من حاملي المعاول والفؤوس وامره أن يضرب التمثال الضربة القاضية فرفع الرجل فاسه وضرب

التمثال ضربة ازعجت جماعة الحاضرين وجعلتهم يصرخون صراخ الخوف والرعب كأن عدواً قوياً فاجأهم على غرة منهم . ثم ثنى الضارب مرة أخرى فانقلب خوف القوم وصراخهم الى ضحك وقهقهة عند ماراًوا رأس آله المصريين القدماء تتدحرج على الارض كالكرة . وخرج من جوفه رهط من الفيران والجرذان فزعت مذعورة كأن دهمتها مصيبة أو انها كانت كمن أفرج عنه بعد طول الاعتقال فذهبت الى كل ناحية من انحاء الهيكل وهي تزحف وتركض فرحة جذلة أو خائفة وجلة . ولم يك طويلا حتى زال الخوف والرعب من القلوب وأخذ القوم فى تدمير هذا الهيكل العظيم وهم يطربون فرحاً ويفرحون طرباً ولم يتركوا فيه تمثالا الا وحطموه وحطموها ولم يدعوا فيه بناء حتى نقضوه نقضاً فساوت جدرانه السامقة الارض الواطئة وانحطت تلك المباني الفخيمة الى الحضيض الاسفل ولكن السور الخارج لم يهدم وظل قائماً مكانه الى أن صار فيما بعد بطريكخانة يقيم فيها البطريرك

أما وجوه الوثنيين واصحاب الحيثيات فيهم الذين سببوا كل هذا الهياج والقلاقل ضد المسيحيين فلم يجدوا لهم حيلة بعد الذي جرى سوى ان يتركوا الاسكندرية ويفروا هاربين الى ديار أخرى غيرها ولم يمد احد من المسيحيين يده بسوء الى هؤلاء الوثنيين مع ان هيلاديوس كاهن الاله جوبيتر صرح على رؤوس الاشهاد مفتخراً بانه ذبح مرة بيده تسع ذبائح آدمية على مذبح الاصنام الكاذبة . وقد كتب سقراط بعد ذلك

الفقرة الآتية عن هيكل سيرابيس قائلا : —

« عندما تهدم هيكل سيرابيس واصبح انقاضاً بالية وجد منقوش على حجارته كتابة باللغة الهيروغليفية لها شكل الصليب وهيئته تماماً فلما رآها المسيحيون والوثنيون قال كل فريق منهم ان هذه شارات ودلائل من ديانتنا خاصة بنا دون الغير · ذلك لان المسيحيين يعتقدون ان الصليب علامة الفداء وتذكار الخلاص الذي عمله المسيح للجنس البشري ولذلك قالوا ان هذه الاشارات التي وجدت على الحجارة تدل على ديانتهم وتنبئ بها اما الوثنيون فقالوا لا يبعد ان تكون هذه العلامات دلائل على المسيح وسيرابيس في آن واحد وذلك لانها مشتركة بين المسيحيين من حيثية الشكل و بين الوثنيين من وجه الكتابة والحفر · و بينما كان الطرفان يتباحثان ويتجادلان في هذا الشأن ظهر لهم وثني اعتنق الديانة المسيحية وكان ملماً بمعرفة الهيروغليفية عارفاً باللغة المصرية القديمة فترجم لهم هذه الكتابة الموضوعة بشكل صليب واذا هي « الحياة العتيده » فلما سمع المسيحيون هذه الترجمة قالوا لم يبق بعد دليل على انها تشير الى ديانتنا وانها وضعت لتنبئ عنها · ثم ظهرت كتابات اخرى باللغة المصرية اوضحت معنى شكل الصليب هذا ايضاحاً تاماً ومعناها « انه عندما يبتدئ الناس يعيشون العيشة الجديدة (اي يصيرون مسيحيين) فلا بد من سقوط هيكل سيرابيس ودماره » فلما طرق هذا القول مسامع الوثنيين اقتبل كثيرون منهم الديانة المسيحية معترفين بخطاياهم تائبين الى ربهم عما فرط منهم

ثم تعمدوا بعمودية التوبة الصحيحة»

وقد عمّ مبداء كسر الصور وتحطيم التماثيل مصر بأسرها واصاب الضرر جميع الماديات والآثار الثمينة في القطر المصري مدة القرن الرابع بما لم تصب بمثله منذ افتتاح الفرس مصر او منذ أخذ المسلمين اياها لما بداؤا بعوامل الخراب فيها شيئاً فشيئاً وساروا في تدمير الهيا كل ونبش قبور الاموات سبراً حثيثاً وكان غرضهم البحث عن الكنوز التي زعموا انها موجودة داخل تلك الاجداث وهو خطأ لا يزال الكثيرون يأتونه في ايامنا هذه ولم ينج منه حتى بعض السياح الذين يجهلون الحقائق ويظنون ان كل الصيد في جوف الفراء اوان كل السعد والغنى في باطن القبور المصرية القديمة ٠ ولم يبق اثر للهيا كل في الاسكندرية وغيرها من المدائن الشهيرة بل تساوت جميعها بالارض واخذت منها التماثيل والانصاب المعدنية وسبكت اواني واوعية للكنائس اما التماثيل الحجرية فتحطمت وسحقت ولم يسلم منها سوى تمثال له رأس نسناس اقامه البطريرك ثوفيلس في ميدان فسيح حتى يعتبر الناس به ويعلموا كنه الآلهة التي كان يعبدها اباؤهم والاجداد وكيف انها حقيرة مزدراة ٠ ولكن هذا الصنيع اساء امونيوس بنوع خاص وهو ذلك العلامة الوثني الشهير واخذ يتذمر ويذم هذا التشهير المعيب الذي شهرت به الديانة القديمة وكيف انها صارت هزءاً وسخرية

واما في باقي الاقاليم المصرية فكانت الهيا كل الوثنية لا تزال قائمة على

اساساتها ولم يصل الخراب الا الى بعض اجزائها فقط ولكن تماثيل الآلهة التي كانت من أحسن ما صنعت يد الانسان وابهى حد وصلت اليه الفنون المصرية القديمة اذا نحن قسناها على التمثالين اللذين نقلا لرومية — كل هذه التماثيل أزيلت وأعدمت ولم يبق منها اثر ولا عين · ولك في حكاية بومن واخوته التي سنسردها الآن اعظم مثال على عوامل التخريب التي لعبت بتلك التماثيل الثمينة

اما بومن هذا فكان له اخوة ستة او سبعة كما يقول البعض وقد صاروا جميعهم رهباناً وامتاز بومن وواحد من اخوته اسمه انوف بالشهرة الواسعة والصيت الطيب · وحدث ان جماعة التدمريين الذين عرفنا انهم غزوا مصر قبلاً استولوا على جميع ممتلكات والد هؤلاء الاخوة ثم اوردوه حتفه وطردوهم من منزلهم ففر هؤلاء الاخوة يطلبون النجاة لانفسهم من اولئك المعتدين ثم اصبحوا بلا مأوى ولا عضد جائلين في فضاء الارض ورحبها بحالة البؤس وضنك العيش الى ان حطوا رحالهم في هيكل خرب اتخذوه داراً لهم يأوون اليه · وكان انوف اكبر هؤلاء الاخوة يتألم ويتوجع لحال اخوته اكثر من غيره · وحدث انه وجد في هذا الهيكل البالي تمثالاً عجيب الصنع مطروحاً على الارض بعد ان عبده الناس زمناً طويلاً في الهيكل المذكور وسجدت له الجباه والصقت بالارض اكراماً له واجلالاً فرأى انوف ان يجعل هذا التمثال درساً لاخوته ويتخذه لهم عظة يتعظون بها فرجاهم ان يظلوا اسبوعاً كاملا

ساكتين دون ان ينبثوا ببنت شفة ولا ان يسألوه عما يفعله . وكان يهب من نومه في صباح كل يوم من ايام هذا الاسبوع ويجمع اخوته حوله بالاشارة ويبتدئ يرمي ذلك التمثال بالاحجار ويكسر بعض اجزائه ثم يركع امامه ويسأله الصفح والمغفرة فلما انتهى الاسبوع سأله اخوته ايضاحاً وشرحاً لعمله هذا فاجابهم ان هذا التمثال قد اهنته كثيراً وحقرته تحقيراً فلم يشك ولم يتذمر لانه صنع ايدي الانسان فهو لا يعارضه في عمله . كذلك يجب على الانسان الخضوع التام لارادة الله واعماله دون ان يعترض او ينقم

وبعد مضي بضع سنوات على هذه الحادثة علمت امهم ان ابناءها ترهبنوا وهم يقطنون دير وادي النطرون فطلبتهم بشوق معروف عن الوالدات خصوصاً وسارت تجد الخطى حتى وصلت هنالك ولكن بومن رفض مقابلتها بالمرة وسبب ذلك ان شظف العيش وضيق الحال وهاتيك المصاعب والمتاعب اوتمدت الاحساس الشريف واضاعت العواطف الحية من قلب بومن هذا حتى انه ابى النظر الى وجه امه التي ولدته . ومما يندرج ضمن هذا الباب ايضاً ان ابن اخت بومن كان قد حكم عليه بالاعدام فرضي الوالي بالعفو عنه اذا تداخل بومن في امره وطلب العفو عنه وذلك لشهرته بالتقوى والعفاف ولكن بومن لم يعبأ بتوسلات اخته التي حركت الجماد ولم تحرك قلبه بل اجاب رجاها بهذه العبارة « اذا كان الشاب يستحق الموت فليمت والا فلا بد ان الحاكم يبرئه »

وفي وقت حكم البطالسة كان مقياس النيل المقدّس محفوظاً في هيكل سيرابيس فلما ملك قسطنطين نقل هذا المقياس من هيكل سيرابيس ووضع في الكنيسة القيصرية الكبرى « سيزار يوم » ثم أعيد الى ذلك الهيكل بامر من يوليانوس الملحد . فلما خرب الهيكل خراباً كاملاً نقله المسيحيون الى كنيستهم باحتفال باهر فتنبأ الوثنيون نبوّة مفادها ان الآلهة سينتقمون لانفسهم بمنع النيل من الفيضان حتى لا يروي الاراضي . وكان النيل قد تأخر في الزيادة عن ميعاده السنوي فصدّق صغار العقول من الوثنيين والمسيحيين ان الآله سيرابيس انتقم منهم حقيقة وقاصصهم على تخريب هيكله فزاد ضجر الناس وقلقهم وتفاقم الشر حتى خشي الوالي الخطر من هؤلاء الناقمين وكتب يسأل المرجع الاعلى عما اذا كان مناسباً ان يرد شر جماعة المتمردين ويكفي الحكومة مؤونة الثورة والهيجان بان يجعل مقياس النيل تحت رعاية الكهنة الوثنيين وتصرفهم . فاجابه الامبراطور ثيودوسيوس جواباً مختصراً مفحماً هو « اذا كان النيل لا يفيض الا بواسطة السحر والرقى او بذبح الذبائح وتقديم المحرقات فخير له ان لا يفيض وان تبقى مصر ظمآنة الى الابد »

ولم يكد هذا الامبراطور يصدر امره الآنف ذكره حتى تغير الحال واخذ النيل في الفيضان بسرعة زائدة حتى خاف الناس الغرق بعد ان كانوا يخافون الشرق وزال بذلك خطر الثورة فتنعم بال المسيحيين واستراح خاطرهم

الفصل العشرون

﴿ الاخوة الطويلو القامة ﴾

﴿ سنة ٣٩٥ للمسيح و١١١ للشهداء ﴾

في سنة ٣٩٤ سار البطريرك ثوفيلس الى القسطنطينية ليحضر مجمعاً آخر عقد فيها لفض بعض المسائل التي اودت الى خلاف بين جمهور الاساقفة المتبايني الاغراض والغايات . وقد حضر هذا البطريرك الاحتفال بتدشين كنيسة كبرى بنيت اكراماً للرسولين بطرس و بولس كان الوالي قد شادها في دغلة حول مدينة خلكدونية تدعى دغلة البلوط . و يحتمل انه في هذه السنة عينها ان ارسينوس استعفى من وظيفته وهي تعليم ابني الامبراطور وتهذيبهما وصار راهباً واتخذ ارض مصر موطناً لرهبنته وهو رجل عالم فاضل عرف بين اترابه بسعة العقل وغزارة المادة والتضلع في المعارف النافعة وربما كان قد عاد مع ثوفيلس عندما جاء من القسطنطينية الى مصر بعد ارفضاض المجمع

وفي سنة ٣٩٥ توفي الامبراطور ثيودوسيوس فاقتسم ولداه المملكة قسمين خص اركاديوس المشرق وهونوريوس المغرب . وفي سنة ٣٩٨ ذهب ثوفيلس مرة ثانية الى القسطنطينية ليرسم يوحنا كريسوستم بطريركاً لهذه الابروشية . قيل ان ثوفيلس اتم هذه الرسامة رغماً عنه لان ارتفاع كرسي القسطنطينية الى درجات الفخار فوق الاسكندرية كان قد ساءه جداً كما ساء سلفه تيموثاوس من قبله ولذلك تمنى لو يمكنه ان يعين شخصاً من

خاصته في هذا المركز بدل تعيين رجل مشهور قادر مثل يوحنا المذكور آنفاً ولحد هذا الحين كان ثوفيلس على وفاق ووئام تام مع جماعة الرهبان العديدين في مصر خصوصاً مع رهبان وادي النطرون الذي هو اكبر دير واقرب لمدينة الاسكندرية من غيره وكانوا قد ساعدوه في هدم الهياكل وتدميرها فمدح غيرتهم ومروءتهم وكافأهم على ذلك بان رقى بعضهم الى رتبة الاسقفية كلما كانت تسنح له الفرصة · ومن الذين ترقوا ديسقوروس احد الاخوة الطوبلي القامة تعين اسقفاً لواحة هرموبوليس (المنيا) كذا شقيقاه يوساب وبوثيموس كان ثوفيلس قد طلب منهما ان يتركا دير وادي النطرون ليعينهما رعاة في كنيسة الاسكندرية · وفي سنة ٣٩٩ دارت المكاتبة بين ثوفيلس وجيروم قصد منها ذاك ان يسوي الخلاف بين جيروم ويوحنا اسقف اورشليم وهو من رهبان وادي النطرون وكانت النتيجة ان جيروم رد على بطريرك الاسكندرية قائلاً « انك لم تعرف كيف يكون الصدام مع الخصم في حومة الجدال ولم تعتد لقاء العدو غير هياب ولا وجل لانك الفت رهباناً يحتفلون بك ويجلون قدرك عند مقابلتهم اياك بل هم يحيونك ويدعونك باخلاص وولاء لانك لم تظلمهم او بالحري لم تقس عليهم في شيء) «١»

(١ يظهر ان جيروم هذا الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لدير في بيت لحم كان ميالاً ميلاً طبيعياً الى الشقاق والخناق · فقد سبق له انه غضب وصخب مع صديقه القديم روفينوس الذي كان ساكناً مع ميلانيا في جبل الزيتون عند ما هجر مصر لغاية سنة ٣٩٧ عندما ذهب الى رومية وكذلك تنافر جيروم مع ثوفيلس بشان اسقف مصري كان هذا قد حرمه وطرده فقبله جيروم عنده باكرام وتبجيل

وقد أورد مؤرخو ذلك العصر ادلة كثيرة تؤيد تفضيل هذا البطريرك للرهبان اتباعه وايثارهم على غيرهم في الخطة التي وضعها اثناسيوس لسوء الحظ وهي اختيار الاساقفة من بين الرهبان العذاب بدلا من اختيارهم من بين القسوس المتزوجين . واذا نحن بحثنا في النتائج التي نجمت من هذا التفضيل لرأينا ان الجهل والعمه فشيا بين جماعة الرهبان للسبب المذكور كما انهم تدرجوا في مبادئ العجرفة والغطرفه مذ تسليم مقاليد هذه الوظائف اليهم . ولك دليل متين على هذه الغطرسة والخيلاء هي ان العلامة ارسينوس ذلك الرجل الطيب الارومة الشريف المحتد لما نوى على الرهبنه وجاء ليقدم نفسه الى رئيس دير برية شيهات وكان اسمه يوحنا وتوسل اليه ارسينوس بكل تواضع وخضوع ان يقبله عنده ليكون في زمرة هؤلاء الرهبان فاعرض هو ورهبانه عنه وذهبوا يتناولون طعامهم جلوساً بينما هذا العالم الفاضل واقف يتلظى كانه على مقالي الجمر (١) واخيراً رمى له واحد منهم بقطعة من الخبز الجاف كانه كلب فجثى ارسينوس والتقمها التقاماً . فلما رأى الرئيس منه ذلك قال بصلاحيته للرهبنة وصرح له بالبقاء مع الرهبان حتى يدرس قانون الرهبنة درساً مدققاً ويسير على فرائضه واحكامه وعين له صومعة يقيم فيها في سفح جبل المقطم حيث قضى اربعين عاماً معتزلا

(١) ان مبداء العنف والقسوة الذي سارت عليه الاديرة المصرية مع كل طالب للرهبنة راغب فيها لم يقتصر على مصر بل تعداها الى اوروبا حتى صار قانوناً مرعياً في قوانين الرهبنة هنالك

وحيداً . وقد عزم الامبراطور اركاديوس تلميذ ارسينوس وربيبه ان يرقي استاذه هذا ويمنحه اقصى درجات المجد والشرف وينعم عليه بجزية مصر وخراجها ليصرفها على الفقراء والاديرة فاجابه اركاسينوس انه مادام قد مات عن هذا العالم وصلب الجسد مع الاهواء والشهوات فهو لا يهتم بالدراهم ولا يعنيه أمر توزيعها وتقسيمها بين الناس . ومع كل ذلك فلم تخمد نار غيرته الوطنية ولم يزل حاذقاً وديعاً طيب القلب نقي الفؤاد . والذي يراجع الروايات المقولة عنه يظن لاول وهلة ان عيشة العزلة والانفراد اثرت في طباع هذا الرجل فجعلته شكساً جافي المراس ولكن الحقيقة التي لا مرية فيها هي انه اختار راهباً اعتاد على السرقة والخطف واتخذه له خدناً ورفيقاً واسكنه معه في مغارته وكان قصده من ذلك ارجاعه عن عادته هذه واصلاح حاله . والذي يقلب صفحات الكتاب المسمى « نصائح للرهبان » المسند اليه يرى مقدار الشعور العميق الذي كان يشعر به هذا الفاضل من التجارب الكثيرة التي يقع فيها جماعة الرهبان وكيف انه حذر كثيراً وانذر طويلاً في هذا الصدد مما يدل على الخبرة الواسعة والباع الطويل

وكان البطريرك ثوفيلس قد جاء الى الدير لزيارة ارسينوس فقال له هذا انه يرجوه امراً واحداً . قال البطريرك وما هذا . اجاب ارسينوس انني اطلب منك ان تعود ادراجك دون ان تقابلني لانني لا ارغب في رؤية آدمي قط . وحدث ان سيدة من عقيلات رومية كانت تعرفه من قبل جاءت لزيارته وسارت المسافة بين الريف

ووادي النطرون مشياً على الاقدام لكي تراه اما هو فتلقاها بفظاظة وعبوسة وابى مقابلتها فشكت هذه الفاضلة امرها لثوفيلس فطيب هذا خاطرها وقال لها انها واحدة من بنات حواء لا ينتظر من قديس تقي مثل ارسينوس ان يخاطبها او ينظر الى وجهها

وقد كان في طوق البطريرك ثوفيلس ان يحتمل الكبرياء والغطرسة اللتين شبت عليهما جماعة الرهبان لما جهلهم فكان مما لا يطاق ولا يحسن السكوت عليه لما فيه من الخطر وسوء المصير يدلك على ذلك انه في سنة ٣٩٩ لما اصدر البطريرك رسالة الفصح السنوية اغتاظ اولئك الرهبان الجهلاء من عبارة بسيطة وردت فيه وكان سبب غيظهم سوء فهمهم وقصر ادراكهم مع سفالة في الطباع وانحطاط في الاخلاق . اما تلك العبارة فهي قوله ان الله روح لا يدركه افهم وليس هو مجرد انسان عظيم الشأن بجزاء ويحد ويحصر كما هو شأن الآدميين

فلما قراء أولئك العميان هذه الرسالة حنقوا وهاجوا هياجاً غير منتظر وقام جيش جرّار منهم ترك وادي النطرون وسار في عرض الصحراء الى ان وصل الدار التي يقيم فيها البطريرك فاحتشدوا حولها كالنمل واخذوا يصيحون ويتوعدون و يتهددون البطريرك بالموت العاجل ان لم يسحب كلامه و يعدل عن رأيه المذكور قبل

فاحتار ثوفيلس واضطرب اذا رأى نفسه وحيدا لا سند له يدافع عنه ضد هؤلاء الناقمين الذين كانوا يموجون كالبحر الزاخر و يرغون

ويزبدون كانهم جيش عرمرم ملء من طول الانتظار وطلب الكفاح والقتال فلم يجد هذا البطريرك الضعيف حيلة سوى ان يتملقهم فناداهم قائلا «انني اذا رأيت وجوهكم اشعر كانني نظرت الله وجها لوجه لانكم على صورته ومثاله» ولكن هذا التملق لم يكن ليسكتهم او يوقفهم عند حدهم بل صاح بعض الزعانف منهم طالبين من البطريرك ان يحرم اوريجانوس وشيعه لانهم اعتبروا ان البدعة التي ذكرها البطريرك في رسالته حسب زعمهم قد اقتبسها من اراء اوريجانوس وافكاره فلم يرضوا الانصراف من امام البطريركية الا بعد ان وعدهم البطريرك باجابة ملتمسهم وحرمان اوريجانوس اما الاخوة الطويلو القامة فانفوا من تصرفات هذا البطريرك وازدروا بهذا التملق فعادوا راجعين الى وادي النطرون دون ان يقابلوه ولكن الخلاف لم ينض ولم ينته امره فاضطر ثوفيلس ان يصالح هؤلاء الرهبان المتحفزين للثورة بل يخشى انه استخدم بعضهم في المصالح الكنائسية خوفاً من قوتهم واتقاء لبطشهم وعنفهم (١)

وكان ايسودورس امين صندوق كنائس الاسكندرية صديقاً حميا

(١) ان جميع الرهبان لم يؤلوا رسالة البطريرك ولم يفهموها بالمعنى الذي فهمها به اؤلئك البلهاء . فان راهباً من اكثر الرهبان جهلاً كان يعبد الله كأنه انسان بحصر اللفظ وكان هذا الراهب واسمه سيرابيون قدبلغ من الكبر عتياً فكان مبجلا معظماً في دير برية شيهات . وقد ظلّ على اعتقاده هذا مدة من الزمن الى ان وقعت بينه وبين رئيس الدير وشماس كبدوي عالم مباحثة وجدال اقتنع منهما بخطائه في فهم الكتاب المقدس واخذه بمعناه الحرفي بل يجب تفسيره روحياً لان الحرف يقتل اما الروح فيحيي

ثوفيلس ودامت الصداقة بينهما مدة من السنين ولكن الحال تغير لاسباب م
واستحالت الصداقة عداوة واستحكم الخلاف بين الاثنين . ولما كان ايسودورس
منحازاً لمذهب القائلين بالوهية الله و روحانيته اتخذ ثوفيلس هذا الاعتقاد
واسطة للايقاع به بان حازب اولئك الرهبان الكافرين الذين كان ينفر
منهم ومن معتقدهم قبلا وحرضهم ضد ايسودورس . وقد ذكر بعضهم
اسباب كثيرة قالوا انها كانت منشأ لهذا الخلاف الشديد ولكن الذي
يقرب من الذهن ان سببه مسائل مالية تختص بالدراهم التي هي علة كل
شقاق وسبب جميع البلايا في هذا العالم

اما فيما يختص بمال الكنائس فكانت العادة ان جميع المطايا والهدايا
التي يهبها جماعة المؤمنين لكنيسة الاسكندرية تبقى في حوزة البطريرك
وتحت تصرفه واما في الابروشيات الاخرى فكان الاساقفة يتصرفون
في نقود الكنائس بالاتفاق مع لجان تعين لهذا الغرض . وقد امتاز ثوفيلس
عن باقي البطاركة بميله الشديد الى انشاء الابنية وتشييد الكنائس حتى انه
كان يصرف اكثر الايراد الذي يجمعه في بناء كنائس فاخرة وتزويقها .

وحدث ان سيدة اسكندرية موسرة تبرعت بصرف الف قطعة من الذهب
في شراء ملابس للنساء الفقيرات ولكنها خافت ان يسمع البطريرك بخبرها
فيأخذ منها المال ويبني به كنيسة بدل الملابس ولذلك عمدت الى امين
الصندوق وامرت له الامر وجعلته يقسم لها ايماناً مغلظة بان يؤدي لها
هذا الامر سراً وان لا يقول للبطريرك شيئاً عن هذا المال ولكن الخبر

لم يظل مكتوماً فان بعض النمامين اخبروا البطريرك به فلم يقبل كلمة في بادىء الامر تدل على تغيظه ولكن عند ما بدأ الخلاف بينه وبين ايسودورس انتهز هذه الفرصة واتهم هذا الرجل باهماله في وظيفته وعدم مقدرته على القيام بها وقال بعضهم بل انه رماه بتهمات قديمة لا اساس لها ولم يثبت منها واحدة ضده

اما فيما يختص بامر الملابس فان ايسودورس دافع عن نفسه فيها دفاعاً متيناً وقال للبطريرك كلاماً قاسياً مؤداه انه خير له ان يصرف المال في شفاء المرضى وكساء الاجسام العارية التي تعتبر هيكلا لله بدلا من بناء حيطان وجدران لا تدعو الضرورة الشديدة اليها

وقد سبق معنا القول ان ثوفيلس اضطر ان ينحاز لجماعة الرهبان الذين يخالفون مبداء اوريجانوس الصحيح او هم الذين يضادون الاعتقاد بالوهية الآله. وحدث انه في اوائل السنة التالية شكل هذا البطريرك مجمعاً شجب فيه مبداء اوريجانوس وسفه تعاليمه (١) وكان ذلك اتماماً لوعد منه لاولئك الرهبان الاغبياء. ولم يكتف البطريرك بذلك بل انه في رسالة الفصح لسنة ٤٠١ كتب ضد اوريجانوس كلاماً مؤلماً وذكر عنه غلطات وهفوات لم تعرف عن هذا الرجل النابغة ولم يكن لها وجود الا في مخيلة ثوفيلس

(١) ان اثاسيوس بابا رومية اصدر ايضاً حرماناً ضد اوريجانوس في الوقت الذي حرمه فيه ثوفيلس ولكنه اعترف فيما بعد انه لم يكن يعرف شيئاً عن اوريجانوس او ما هي التعاليم التي فاه بها هذا الفاضل.

واخيراً حكم عليه بانه هرطوقي مبتدع . ولما استفحل الخلاف بين البطريرك وايسودورس في السنة عينها اضطر هذا ان يهرب و يقيم في دير وادي النطرون مع جماعة الرهبان الموجودين فيه فلم يكن من ثوفيلس الا ان اصدر امره الى اساقفة الابروشيات ورؤساء الاديرة بنفي جميع الرهبان الذين يذهبون مذهب اوريجانوس او يقولون بقوله فلم يسكت امونيوس اكبر الاخوة الطويلي القامة بل جاء الى الاسكندرية يرأس وفداً من الرهبان ليحتج ضد البطريرك على عمله هذا وليعترض على اعتباره اياهم مبتدعين لانهم رفضوا قبول فهم الكتاب المقدس فهماً حرفياً ناقصاً كما قبله جماعة الرهبان الاغبياء الجاهلين . ولما كان ثوفيلس يهاب سطوة هؤلاء المتغطرسين و يميل الى مذهبهم ولو ضد ضميره خاف شر الحرافيش والاوباش منهم واضطر ان يمالئ الجهلاء ضد هذا الوفد الذي كان رائده الاعتدال وقائده الحجة القوية والبرهان الصحيح ولذلك سار معهم ثوفيلس سير المتعسف الغشوم حتى قيل عنه انه لطم امونيوس على فمه ودعاه مبتدعاً لانه رفض ان يحرم اوريجانوس و يسفهه . ومن غريب الامور ان خمسة من رهبان دير النطرون الذين لا هم في العير ولا في النفير لجهلهم وغباوتهم ارادوا ان يصلحوا ذات البين بينهم و بين البطريرك فطلبوا منه ان يصرح لهم بابتداع تهمات كاذبة ضد ثلاثة من مشاهير الرهبان وعظمائهم فاجاب طلبهم وكانت النتيجة ان البطريرك حكم على هؤلاء الاكابر بالحرمان

اما الوفد الذي جاء مع امونيوس فعاد قافلا الى وادي النطرون

بنفس كبيرة وقلب حزين ورضي اعضاؤه من الغنيمة بالاياب ولكن ثوفيلس لم يرض بل صار يسعى لاقلاق بالهم وتعب سرهم . ولم يبق ريب لدى هذا البطريرك في ان ازدياد الرهبان وتكاثر جموعهم واتساع دائرة سطوتهم ونفوذهم كانت من اشد الامور خطراً على مصر ومن فيها وهذا امر ثابت مؤكد لا مشاحة فيه ولا اعتراض عليه . ولكن هذا البطريرك لم يتخذ طريقة لقطع شأفة هذا الداء ولم يأت عملا يبرره في اعين الناقدين بل سار سيراً يوجب الاسف كل مدة رئاسته المشؤمة

وقد انقضى زمن الخلاف والشقاق وعاد رهبان دير وادي النطرون الى اعمالهم اليدوية الدنيوية وصاروا يجدون خلف الكسب وجمع المال . وقد كان بينهم الحائك والنساج وصانع الحلويات والطبيب وطالب العلم وكل أرباب الحرف والصنائع . وبقوا ساكتين ساكنين يصلون في كنيسة لهم كبرى تحيط بها ثلاث نخلات وكفوا عن الشقاق والخصام ولكن ثوفيلس لم يرق له هذا السكون فطلب من الوالي الروماني ان يمده بقوة عسكرية يهاجم بها جماعة الرهبان الآمنين فسار الى ديرهم تحت جنح ليل بهيم فاقلق بالهم وحرك ساكنهم عند ما سمعوا سنابك الخيول التي يمتطيها الجيش الروماني ترن في الفضاء فيسمع لها دوي يوقع الرعب في القلوب

فهاج الرهبان وذعروا لما بلغهم ان بطريركهم جاء ومعه جيش مزبد لكي يلقي القبض على اتباع اوريجانوس ومريديه وساد القلق

والخوف في نواحي الدير وذعر كل واحد فيه وهرع ثلاثة من أولئك الاخوة المعروفين الى الاختباء في بئر عميقة وذهب رابعهم ديسغورس وكمن في ركن من اركان الكنيسة ولكنه لم يلبث ان عرف مكانه جماعة من الحبشان المرافقين للبطريرك كانوا يتمايلون ثملين من بنت الدنان فاخرجوه من كمينه بقوة وعنف . اما العساكر فظنوا ان هذا الدير انما هو مدينة محصنة يجب أخذها قسراً واقتداراً وذلك رغماً عن طلب ثوفيلس لهم ان لا يفعلوا ذلك ولكنهم لم يذعنوا لقوله بل مالوا على الصوامع فنهبوها واضرموا فيها النيران ومات راهب حرقاً داخلها كما أثبت ذلك شهود عدول

فلما لاح الفجر وبدت تباشير الصباح كفّ العساكر عن عملهم القاسي خصوصاً لالحاح ثوفيلس عليهم بذلك ولانهم ممتعنين لا بد من مقاومتهم مقاومة لا تخلو من الخطر فلذلك اضطر الجنود ان يقفوا جانباً بعد ان ردوا سيوفهم في اغمادها ثم دعى ثوفيلس جماعة من الرهبان ليعقدمنهم جمعية يطرح عليها كلامه وافكاره بسلام ووئام بدلا من الحرب والخصام ثم قرأ على مسامعهم بعض نبذات مما كتبه اوريجانوس والغازه الغامضة — وهي لا علاقة لها بايمان الرجل ولا تدل على مقدار اعتقاده — ثم استنتج منها ما توهمه فيها من البدع التي ودّ ان يقتنع الرهبان بصحة نسبتها. وحينئذ خاطبهم قائلا : — « فلهذا السبب حكم على حلفاء اوريجانوس واتباعه بالحرمان فلم يرضخوا لهذا الحكم

بل وضعوا يدهم عنوة على كنيسة دير وادي النطرون وقفلوها في وجوه الاساقفة ورؤساء الاديرة وصاروا يمسكون في أيديهم النبابيت مغطاة بسعف النخل لكي يفاجئوا كل من يقف في طريقهم فاضطر الرأي العام الارثوذكسي الى وضع حد لهذه القلاقل وتم الامر الآن على ما نريد ونشتهي

أما الاربعة الاخوة الذين اختبأوا في الدير فلم يمكثوا فيه طويلا بل ساروا الى فلسطين حيث قضوا بعض ايامهم يسكنون آمنين في سفح جبل جلبوع وهم يمارسون عمل الاقفاص من جريد النخل وهي صناعة تعلموها في مصر وتبعهم كثيرون من الفارين حتى زاد عديدهم زيادة تستدعي الالتفات وكان جماعة المسيحيين في فلسطين يرمقونهم بعين الاحتقار والقذور لعلمهم أن بطريركهم حرمهم ونفاهم ولكن بعض الاساقفة اظهر نحوهم حناناً واشفاقاً فعنفهم البطريرك ووبخهم ورجاهم بان لا يعودوا ويمتزجوا بهؤلاء الرهبان لئلا يعد عملهم هذا مسبة ويحسب ذنباً واهانة في عرف جماعة الجهلاء ولما ضاق الحال على هؤلاء الرهبان المنفيين – وكان عددهم قد بلغ الخمسين – رفعوا دعواهم الى يوحنا بطريرك القسطنطينية

وفي أواخر سنة ٤٠٦ مثل امام بطريرك اسطمبول أولئك الرهبان المحرمين الذين اضناهم طول السفر وأضر عظمهم البلاء المر فلما رآهم هذا

البطريرك فاضت عيناه بالدموع الغزيرة رثاء لحالهم وتوجعاً لمصابهم وسألهم ان ماذا افعل لكم وأي طريقة تخفف ويلاتكم . فطلبوا منه أن ينصفهم من بطريركهم الذي جار عليهم واعتدى وهضم حقوقهم دون ان يخشى ربه أو يخاف لوم اللائمين ثم وقف كليم فصيح من بينهم وخاطب البطريرك بصوت جهوري قائلا : —

(اذا كنت تراعي خاطره ولا تعمل على تنفيث كربنا فنضطر حينئذ الى رفع دعوانا الى الامبراطور نفسه وكل الذي نطلبه منك أن تسترضي ثوفيلس حتى يسمح لنا باستيطان وطننا ومسقط رأسنا فاننا لم نجن ذنباً ضده ولم نرتكب امراً يستمطر غضب الله علينا)

فوعدهم البطريرك يوحنا خيراً واخبرهم انه سيبذل جهده في مساعدتهم على شرط ان لا يقدموا مسألتهم أمام السلطة المدنية ولا ان يحدثوا هياجاً واضطراباً في المدينة ثم ختم كلامه لهم بقوله (حيث اني كتبت لاخي ثوفيلس في هذا الصدد فعليكم بالصبر حتى يجيء رد الجواب) وقد اظهر لهم كل لطف وايناس واسكنهم في مخادع كنيسة القيامة وكان في ذلك الوقت يبحث في هذا الامر مع جماعة من اكليروس الاسكندرية كانوا ارسلوا الى ديوان الامبراطور لاشغال تختص بوظيفتهم وصار يستشيرهم في الامر . فقالوا له ان رهبان دير وادي النطرون تحملوا الهوان في المعاملة التي عوملوا بها ولكن هؤلاء القسوس ارتأوا ان رفع

هذه الدعوى الى بطريرك القسطنطينية لا ينتج نتيجة حسنة ولا يأتي بفائدة ثم طلبوا من هذا البطريرك ان لا يتسرع في قبول هؤلاء الرهبان على مائدة العشاء الرباني لئلا يكدر خاطر بابا الاسكندرية بعمله هذا ولكنه اذا رغب في اظهار الشفقة والحنو لهم فليظهرها بطرق اخرى غير طريقة المناولة

فقبل بطريرك القسطنطينية نصيحتهم وكتب الى ثوفلس يرجوه ايجاد وسائل السلام والسكينة ولكن ثوفيلس لما بلغه ان هؤلاء الاخوة ساروا الى القسطنطينية ارسل الى بطريركها مكاتيب اللوم والتعنيف التي كتبها الى اساقفة فلسطين قبل حين طالب منهم عدم الاختلاط مع هؤلاء الرهبان ولكنه لم يكتف بذلك هذه المرة بل اتهمهم بتهمة جديدة هي انهم ليسوا فقط اهل بدعة وشقاق بل هم سحرة يخاطبون الجن ويلتصقون بجماعة العفاريت (١) فهاجت هذه التهمة الشنيعة سخط عامة اهل القسطنطينية ضد هؤلاء الاخوة المساكين حتى كانوا يزجرونهم ويهزأون

---

(١) لا شك في ان القلب الذي ابتدع هذه التهمة ضد اولئك الرهبان كله حقد وغل لانها صادفت ارضاً ذات زرع في مصر التي نشأ فيها الجهل بسرعة غريبة بدل ذلك العلم الذي فاقت به الامصار الاخرى في قديم الازمان ووصلت الغباوة في هذه البلاد الى درجة كان فيها كل عالم يمارس العلم ويتبحر في فنونه يتهم بالسحر والتنجيم والعيافة والقيافة وباقي اشكال الخرافات الاخرى وهكذا كان العلم في جميع انحاء المملكة الرومانية يعد خرافة وجهلا

بهم على قارعة الطريق فحزن اكثر الرهبان لاتهامهم بهذه التهمة التي يعرفون انها سيئة النتائج فلذلك انفذوا الوسطاء والشفعاء الى ثوفيلس يرجونه صفحاً ومغفرة ولكن الاربعة الاخوة واصدقائهم الاخصاء نظروا الى هذه التهمة بعين الازدراء والاحتقار ولم يعبأوا بها قط بل أعدوا تهمة قانونية ضد بطريركهم ورفعوها لبطريرك القسطنطينية

فكتب هذا البطريرك الى ثوفيلس مرة أخرى واظهر له اسفه الشديد من ان خصومه جروا معه على الخطة التي سار هو عليها معهم ثم قال انه حرضهم على ترك القسطنطينية فلم يفلح . فاجابه ثوفيلس جواباً مملوءاً من الغضب والحنق وقال :

(اذا كنت لم تقف على مضمون الدستور الذي وضعه المجمع النيقاوي القاضي بعدم تداخل اسقف أو بطريرك في المسائل التي لا تنحصر ضمن دائرة سلطته فارجوك أن تطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لي وتكف عن الصدام والجدال معي . أما اذا قضى الزمان عليّ بالمحاكمة فسوف يحاكمني اساقفة مصريون لا انت ولا غيرك ممن هم بعيدون عنا يقتضي لوصولنا اليهم أو لوصولهم الينا سفر ٧٥ يوماً كاملة)

فقرأ يوحنا كريسوستم هذا الجواب بالرضى والاذعان واخذ يبذل جهده في اقناع الاخوة الطويلي القامة واصدقائهم على فض هذا المشكل

بالحسنى وابطال رفع الدعاوي التي تولد الحقد والغل ولكن هؤلاء لم يرضخوا بل استأنفوا قضيتهم الى الامبراطورة ايدوكسيا وتوسلوا اليها ان تأمر بسماع دعواهم قانونياً . وكان لهذه الامبراطورة تأثير يذكر على قلب زوجها فحملته على اصدار امره باستدعاء ثوفيلس الى القسطنطينية حتى يمكن للبطريرك كريسوستم ان يفحص المسألة بنفسه ويبت فيها حكماً قاطعاً . ومعلوم ان هذا العمل يعد اجحافاً بحقوق ثوفيلس وهضما لسلطته لانه بصفته بابا الاسكندرية كان مساوياً في القوة والعظمة للامبراطور اركاديوس نفسه وله في مصر ما لهذا الامبراطور من النفوذ والسلطة لان الامة المصرية كانت تعتبر بطريركها اعتبارها للملك المتوج بل لم تكن هذه الامة تهتم كثيراً بامر اولئك الاباطرة لبعدهم عنها . فلما صدر الامر لثوفيلس بالذهاب الى الاسكندرية لم يرفض الطلب رفضاً باتاً كما انه لم يذهب بل تأخر مدة من الزمن الى ان رفعت الدعوى ضده غيابياً وافتتحت بفحص الشكاوى الموجهة نحو رهبان وادي النطرون فاتضح عدم صحتها ومن ثم حكم المجمع بسجن الخمسة رهبان الذين انفذهم ثوفيلس ليشتكوا ضد رهبان وادي النطرون وظلوا في السجن الى ان توفى بعضهم وكان ثوفيلس في هذه الاثناء قد ارسل مكتوباً الى ابيفانيوس اسقف سلاميس يرجوه فيه الذهاب الى القسطنطينية وعرض قرار المجمع الاقليمي الخاص بحرم اوريجانوس والحكم عليه كهرطوقي على كريسوستم ليصدق

عليه ويمهره بختمه ولكن هذا البطريرك رفض ذلك قائلاً ان هذه المسألة تحت نظر مجمع عام فهو يحكم فيها حسب القانون

وفي سنة ٤٠٣ سافر البطريرك ثوفيلس قاصداً القسطنطينية واشاع قبل سفره انه ذاهب اليها ليخلع يوحنا (١) بطريركها من وظيفته قصاصاً له على اعماله التي اتاها ضده . فسار البطريرك المصري الى عاصمة المملكة في ابهة السلطان تحف به حاشية من اساقفة مصر والحبشة وتحيط به زمرة من الكهنة والقسوس كما لو كان من الملوك والسلاطين فالقت سفينته مرساها في مياه البوسفور التي كانت تنعكس اشعة شمس شهر يونيو على مياهه فيخالها الرائي لجيناً أو عسجداً فحياه بحارة المراكب المصرية التي كانت راسية هنالك حاملة ضريبة الحنطة وادوا له واجبات التعظيم والتبجيل وهم يفرحون ويطربون ولكن قسوس القسطنطينية لم يفدوا لاستقباله او الاحتفاء بقدومه فلذلك لم يرغب في الاقامة بالقسطنطينية بل قصد خلكدونية ومكث بها حيث لاقاه سيرينوس اسقفها المصري الجنس بكل اكرام وتعظيم واحسن وفادته . فلما استقر به

(١) ان كلمة «كرسوستم» هي لقب اطلق على بطاركة القسطنطينية ومعناها «فم الذهب» او «ذهبي الفم» . وكثيرون من القراء يعرفون يوحنا فم الذهب الاسكندري المصري الذي اشتهر بزلاقة لسانه وطلاقة بيانه واصله فيلسوف وثني مشهور من كبار العلماء في ذلك العصر

المقام ارسل يستدعي كريسوستم بانفة وعزة نفس يعز نظيرهما وطلب منه الحضور امام المجمع ليدفع عن نفسه تهمات طويلة عريضة اتهمه بها اعداؤه وسعوا في اثباتها ضده وكانت اكثرها عديمة الاهمية لا معنى لها بل قصدوا بها ازعاج خاطره ووسوسة عقله ولكن ثوفيلس اختار تهمتين من هاته التهم الكثيرة ورتبها ترتيباً يعسر نقضها ولا يسهل دحضها. أولاهما اتهام كريسوستم هذا بتلقيبه الامبراطورة بلقب « ايزابل » (هي امرأة اخاب ملك اسرائيل الشريرة) والثانية انه تكلم ضدها كلاماً غير لائق يدل على احتقاره لها. فلم ينكر هذا البطريرك بانه دعى هذه الامبراطورة باسم ايزابل في عظة القاها على ملاء من الناس. ثم اتهم بتهمة أخرى لها مسحة من الحقيقة هي انه عمل على هضم سلطة بعض الاراخنة وتحريض الآخرين على عصيان رؤسائهم الروحيين وكان يقصد ثوفيلس بذلك مسألة رهبان وادي النطرون ومن معهم التي كادت تصبح نسياً منسياً وتطرح في زوايا الاهمال لولا ان حرك ساكنها هذا البطريرك الاسكندري وطلب شهود الاثبات ولكن احد الشهود وهو ديسقورس كان قد انتقل الى رحمة مولاه ولم يبق سوى امونيوس اخيه الذي جيء به الى خلكدونية وهو يحتضر فلما رآه ثوفيلس في حالة الموت ذرفت عيناه دمعاً مدراراً من شدة التأثر وهكذا تم الصلح بين خصمين لدودين في اقل من لمح البصر بدون وساطة ولا شفاعة سوى وقع العين

على العين وايجاد التأثير في قلبين يقبلانه حالا قبول الارض الجدباء للماء القراح . وفي هذه الاثناء ارسلت الامبراطورة خطاباً صادراً من ديوان الامبراطور الى مجمع خلكدونية لجلسته الثانية عشرة وفيه تحتيم على المجمع باصدار حكمه في مسألة كريسوستم بغاية ما يمكن من السرعة والذي دفعها الى ذلك حنقها على هذا البطريرك وتغيظها منه لانه شتمها واهانها

وعلى ذلك حكم المجمع بخلع كريسوستم من وظيفته ثم صدر أمر الامبراطور بنفيه حالا خارج القسطنطينية ولكن ثوفيلس فعل كل هذا وهو لا يعرف مقدار تأثير البطريرك المذكور في الرأي العام الروماني وعلو منزلته عند شعبه حتى انه بعد مضي ثلاثة ايام على حكم نفيه كان من الصعب القاء القبض عليه لان جمهوراً غفيراً من رعيته التأموا حول سكنه وأخذوا على انفسهم حراسته وحمايته فكانوا يتناوبون المدافعة عنه بطريقة منظمة كأنهم حرس عسكري حتى صار القاء القبض عليه مما يحدث في المدينة حرباً اهلية لا تحمد نتيجتها بل ان هذه الحرب كانت على الابواب وأوشك لهيبها يندلع لولا ان كريسوستم نفسه كان يرقى منبر الوعظ كل آونة واخرى ويفوه بنصائح وانذارات لشعبه يحرضهم فيها على الميل للسلام . وكان في منتصف اليوم الثالث في وقت القيلولة عندما ذهب حارسوه للراحة أن كريسوستم انسل من باب خصوصي دون

أن يشعر به احد وسار الى موظفي الحكومة وسلم نفسه لهم بكل رضى وسكوت فاخذوه حينئذ الى سفينة وارسلوه الى بيت عنيا

فخلا الجو لثوفيلس ودخل المدينة في اليوم التالي لسفر كريسوستم باحتفال حفيل وتوجه تواً الى الكنيسة الكبرى لكي يسيم خلفاً لكريسوستم ولكن لما وقف الواعظ من قبل ثوفيلس واخذ يطعن في كريسوستم بكلام مرٍّ قارص هاج الشعب هياجاً لا تدرك نتيجته فصاروا يصيحون ويضجون حتى اهتزت الكنيسة وارتجت وكادت تندك من اساساتها لولا ان قوة عسكرية جاءت فطردت الهائجين خارجها بالعصي والمعاول . وكانت الشوارع قد امتلأت بجمهور من الاوباش الثائرين وهم يملأون الفضاء بصياحهم طالبين ارجاع بطريركهم لهم وكادوا يهجمون على ثوفيلس ويأخذونه غيلة مع تعضيد الامبراطورة له لولا ان حدثت زلزلة في الهزيع الاول من الليل فهزت المدينة ورجتها حتى ان الامبراطورة قامت مذعورة من نومها وسارت مسرعة الى مخدع زوجها ورجته ان يعيد كريسوستم الى وظيفته ما دام ان السموات غضبت لاجله وكادت تصب غضبها على الارض حزناً عليه فلم يسع الامبراطور اركاديوس الا اجابة هذا الطلب ولما عرف ثوفيلس ما تم وخاف قيام جميع الشعب ضده برح القسطنطينية حالاً وعاد راجعاً الى الاسكندرية . وللحال انعقد مجمع من نحو ستين اسقفاً الغى كل اجراآت المجمع السابق وقرر ان كريسوستم لا يزال

بطريركا للقسطنطينية . أما ثوفيلس فكتب خطاباً الى بابا رومية يخبره فيه انه جرد كريسوستم من وظيفته فرد عليه هذا البابا يسأله اسباب هذا التجريد ثم قال له انه لا يزال على تمام الصداقة والاخاء معه ومع كريسوستم ايضاً

أما بابا الاسكندرية ثوفيلس فلم يكف عن اسباب الخصام والنزاع ولم يفتأ يناصب كريسوستم العداء فاوفد وفداً من قبله الى القسطنطينية ولم يذهب هو بنفسه معتذراً بكثرة اشغاله ووفرة الواجيات الضرورية المحتم عليه أدؤها لرعيته فناب هذا الوفد منابه في التدابير التي افضت الى طرد كريسوستم طرداً نهائياً من ابروشيته بامر استصدروه من الامبراطور والامبراطورة معاً . ولتنفيذ هذا الامر ارسل خصومه كوكبة من الفرسان هاجمت الكنيسة بينما كان البطريرك يؤدي خدمة عيد الفصح وقيل انه كان يوجد في هذه الكنيسة اكثر من ٣٠٠٠ نفس طالبين العماد فطردهم العساكر من المعمودية باسنة الرماح ثم دفعوا كل الشعب خارج الكنيسة بالقوة . فتقدم جماعة من القسوس الاشداء وجمعوا طالبي العماد من الشوارع واخذوهم الى حمامات قسطنطين وقرأوا على الماء التي في هذه الحمامات وباركوها ثم عمدوا القوم بكل نظام تام وسرعة زائدة ولم يكد يتم عماد الجميع حتى سمع العساكر بذلك فهجموا على القسوس وطردوهم من هناك ايضاً . واخيراً صدر الحكم النهائي

بنفي كريسوستم وذلك في يونيو سنة ٤٠٤ وظل في منفاه الى ان توفى في خريف سنة ٤٠٧

الفصل الحادي والعشرون

« سينيثيوس القوريني »

ولد سنة ٣٦٥ للمسيح و١٨ للشهداء

في آخر رئاسة ثوفيلس حدث بينه وبين سينيثيوس القوريني صداقة وولاء. وكان الاخير رجلا مشهورا بالعالمية والفضل وله رابطة مع حوادث تالية ستعرفها فيما يلي :

ولد هذا العالم في مدينة قورينة سنة ٣٦٥ من عائلة يونانية قديمة استوطنت هذه المدينة في الايام السابقة وكانت لعائلته هذه أملاك واسعة وعقارات كثيرة في مقاطعة بنتابوليس . وكان قد صرف بعض سني شبابه في الجيش ولكنه استعفى من منصبه وهو بعد شاب وعكف على درس الفلسفة والتبحر فيها

وكان الدهر قد عبث بمدرسة قورينة الشهيرة وأودى بها فسار سينيثوس الى الاسكندرية ليتلقى العلوم فيها مثل غيره من الطلاب الذين كانوا يؤمون المدارس الوثنية التي كانت في ذلك العهد قد انحطت ودخلت في دور التقهقر . وكانت هيباشا الشهيرة قد بدأت تلقي الدروس

اوهام لا طائل تحتها ثم قال . « ان الذين يتهمون وريجانوس بالابتداع هم عديموا الفهم لامقدرة لهم على ادراك الافكار العالية والحكمة الغامضة التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من النوابغ المشهورين » . اما هذا الكتاب الذي وضعه ديديموس فلم يبق له اثر . ولما رأس ديديموس المدرسة اللاهوتية تقاطر طلاب العلم الى الاسكندرية من جميع انحاء العالم المتمدن وبعد رئاسته بقليل جاء روفينوس وجيروم الشهيران وكانا حينئذ في شرخ الشباب ليتلقيا العلوم والمعارف في الاسكندرية على يد هذا النابغة الخطير الذي كان يلقب « بالاعمى البصير »

وغريب في مصر أم العجائب ان الراحة والسلام لايدومان طويلا فيها وهذا شأنها من قديم الزمان . ففي فبراير سنة ٣٥٠ قتل قسطانس في ثورة بداء بها مغينطيوس وبقي قسطنطينوس الامبراطور الوحيد في المملكة كلها بعد اخويه . ومعلوم ان قسطنطينوس هذا كان ينفر من اثناسيوس ويعرض بانفه عنه ولذلك داخل اثناسيوس خوف ورعب من تصرفات هذا خصوصاً وان الواشين ضده اخذوا ينمون عليه ويدسون له الدسائس بعزم جديد . ففي شهر مايو سنة ٣٥٣ استحسن ارسال خمسة اساقفة وثلاثة قسوس الى قسطنطينوس لاثبات براءته امامه مما عزي اليه سابقاً . وكان مع هؤلاء الاساقفة سيرابيون اسقف تمويس (١) وهي مدينة شهيرة في الوجه البحري

(١) لايغرب عن الاذهان وجود مدينتين قديماً بهذا الاسم في مصر ويؤخذ من بعض استدلالات ان هاتين المدينتين كانتا اسقفيتين في وقت واحد

وقد قال بعض المؤرخين ان سيرابيون هذا كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية اما قبل ايام البطريرك بطرس او بعده فاذا صحّ ذلك فيكون الرجل قد مات شيخاً وشبعان من الايام · اما رئاسته للمدرسة فلا يبعد ان تكون صحيحة ولو انه كان شاباً فتياً في ذلك الوقت فانهم كانوا يسندون هذه الرئاسة في اوقات الاضطهاد حتى الى الشبان بصفة موقتة كما كان الحال مع اوريجانوس الذي وجد في هذا المنصب وهو في سن المراهقة كما علمت · وقد كان سيرابيون هذا عالماً متضلعاً وكاتباً ماهراً وصديقاً وفياً لاثناسيوس ولذلك ارسله مع من ارسله في هذه البعثة الى قسطنطينوس التي لم تصادف نجاحاً فان هذا الامبراطور احتال في اول الامر على اثناسيوس ليعيده الى اوروبا ثانية فلما خاب مسعاه شكل مجمعاً في اراس فاصدر هذا المجمع احكاماً ضد اثناسيوس · والذي يحصي المجامع التي عقدت في مدة حكم قسطنطينوس يجدها اكثر من عشرة عدا عن مجاسين في ربني وسلوشيا وكان سبب التئام هذه المجامع كلها المناقشات والمجادلات بين اثناسيوس وجماعة آريوس · وكان قسطنطينوس يعد نفسه رأس الكنيسة في الامور الروحية كما هو رئيسها في الامور الزمنية وانتحل لذاته حق السلطة على باباوات واساقفة المملكة باسرها وهي دعوى لم يدّعيها ابوه الاكبر ولا فكر فيها · وقد كتب اميانوس مرسيلينوس المؤرخ الوثني شذرة عن هذا الامبراطور يقول فيها

ان الديانة المسيحية واضحة بسيطة سهلة المأخذ ليس فيها شيء من

ان الفلاح المصري في هاتيك الايام كان عاقلا عارفاً غزير المادة اكثر من التلميذ المصري في هذه السنين . وهاك جواب ارسله افوتيوس الفلاح الى اخيه سينيثوس بينما كان هذا متغيباً في اثينا مترجم هو وغيره عن الجوابات نفسها بغاية الدقة والوضوح : ـ

« أخي العزيز

نحن الآن نستيقظ من نومنا مبكرين بواسطة صهيل الخيول وخوار الثيران وبعبعة الغنم والمعزى ونلتئم معشر الفلاحين معاً كاننا من عائلة واحدة لا يشوب اجتماعات القوم المتمدنين من التحاسد والتنافر والتباغض بل يساعد الواحد منا رفيقه في كل واجباته واعماله سواء في زرع الاراضي وتفليحها أو في رعي قطعان الغنم واسراب المعز أو في صيد الظباء والايائل التي لا يمكن اقتناصها الا في الارياف ووسيع الخلاء . أما طعامنا فبسيط خفيف هو خبز الشعير نلتذ من اكله ويمريء جسمنا من غذئه ولا نفرح باطايب الافاويه ونعدد اصناف المآكل على الخوان مما نظن فيها تخمة للمعدة . ولسنا نشرب سوى عصير الشعير الذي نأكله فنسوغه بعد كثرة الشغل فيمتص من اجسامنا الحرارة الشديدة التي نصادفها في أيام الصيف ولا نخشى غيرها من انواع المشروبات المذهبة للعقل المضعفة للبصر المحطة للشرف المخربة للجيب . ولا تظن اننا ناكل الشعير ونشرب عصيره لضيق ذات يدنا أو لاننا محرومون

من المواد الاخرى بل اعلم ان عندنا مقاديراً وافرة من القمح واكداساً مكدسة من الفواكه والاطايب اللذيذة واوعية مفعمة بقطر الشهاد ولبن الاغنام الذي نستدره منها ونأتدم به ولا نحلب الابقار بل نترك لبنها لفصيلها يغتذي به ويقوى . أما احسن أكل تنفتح له الشهية فهو ما نصطاده بايدينا ونتعب بالحصول عليه . ولنا آلات طرب نلتذ لسماعها ونطرب وهي وطنية صرفة عبارة عن قصبة مزمار علاها الصداء لها نغمة خشنة فهي تنفع لان يستعملها احد اساتذتكم كعصا يؤدب بها تلامذة مدرسة افلاطون اذ لا يمكن لكم ان تشجوا من نغماتها ولا يحرك صوتها الاجش ساكن احساساتكم التي ترقت كثيراً فصارت لا تطرب من الذي يطرب منه الفلاح الساذج نظيرنا الذي له بعض ادوار بسيطة اختارها ارباب الطرب منا ليسهل لهم التوقيع على آلات بها وهي ادوار ليست على شيء من الرقة ولكنها تختص بمدح الكلاب القوية التي لا تخاف الضباع ولا تخشى الذئاب بل تنقض عليها وتقبض على ارقابها فتقتلها . وكثير من هذه الاغاني ثناء وشكر للنعجة التي تلد توأمين ولاشجار التين التي تحمل ثمراً كثيراً وفيها ايضاً غزل بالخمر وباقي انواع المشروبات والانبذة . واكثر ما يكون من اغنياتنا تسابيح حمد وطلب بركة الله على الانسان والنبات وكل عشب اخضر . أما عن الملك (أي الامبراطور) واصدقائه فليس لنا

شيء نقوله عنه سوى انا نعرف بوجود ملك حاكم علينا ويذكرنا بوجوده الجباة الذين يجيئون لجمع اموال الخراج ولكننا لا نعرف من هو هذا الملك أو ما هو اسمه حتى ان البعض منا يظنون ان اغاممنون بن آتريوس الذي اشتهر في حروب طروادة لا يزال مالكاً علينا الى الآن والذي حدى بهؤلاء البعض الى هذا الظن هو انهم سمعوا في طفوليتهم انه يوجد ملك اسمه اغاممنون فقالوا انه لا يزال متسلطاً علينا الى الآن والى الابد . ولا يخطرن على بالك ياشقيقي ان هذا ناتج عن جهل منا أو تقصير في معرفة حكامنا بل انا قوم لا علاقة لنا بهؤلاء الملوك والقياصرة ولا يهمنا من امرهم سوى العدل واجراء الانصاف بين الرعية فليس من الضروري معرفة اسم الملك أو نظر رسمه ما دمنا جماعة سذجاً بسطاء القلوب حتى انك لتعجب جداً اذا قلت لك ان الكثيرين من الفلاحين الذين بلغوا من العمر اشده احياناً ما يسألونني عن المراكب وشكلها والقلوع وكيف توضع عليها وباي كيفية تسير هذه الجواري في المياه السائلة فاشرح لهم ذلك ببيان وايضاح وقد يصدقون ويفهمون ولكنني اذا قلت لهم انه يوجد في البحر حيوانات حية متحركة يأكل منها الانسان ويتغذي فقد لا يصدقون قولي ولا يعقلون كلامي بل يذهبون ان كل ماكل ومشرب لا يأتي الا من الارض التي هي أم كل حي . ولما اتعب معهم في البرهان على وجود سمك البحر اضطر ان أجيء لهم بجرة فيها

ماء وسمك من ارض مصر وافتحها امامهم لاقنعهم بوجود هذه الاسماك في مياه البحار ولكنهم مع ذلك لا يقتنعون بهذا البرهان بل يقولون انما هذه الاسماك هي حيات واحناش سامة تجنحت بزعانف فصارت تعوم وتسبح وان عظامها لا بد وان تكون ملأى بالسم الزعاف كأنياب الافاعي . وغريب أن رجلا يعتبر من انبه الفلاحين واعقلهم قال ان لا يسعه التصديق بوجود شيء يصلح للاكل والغذاء في المياه المالحة في الابحر سوى شيء من الضفادع والعلق الذي نجده في انابيب ماء الشرب التي لا يجسر حتى المعتوه على اكلها أو القرب منها »

اما جماعة الفلاحين الذين كانوا يشتغلون في حقول سينيثوس فاكثرهم من العبيد الارقاء ورثهم اباؤه عن اجداده وورثهم هو عن الاباء وهم من ابناء البلاد كانوا يعاملون معاملة طيبة حتى كأنهم اولاد صاحب الارض

وحدث في سنة ٣٩٧ ان الضرورة الجأت سينيثوس للذهاب الى القسطنطينية لعمل هام يتعلق بمدينته وصالح بلاده فمكث في اسطبول ثلاث سنوات كاملة قبل ان ينظر أحد من رجال البلاط الملوكي اليه أو يهتم باعماله وذلك لكثرة ارتباكات الحكومة وخلل نظامها في هاتيك الايام (وهذه ايضاً) . وكان له صديق اسمه اورليان هو فيلسوف شهير له نفوذ قوي وتداخل متين في شؤون المملكة فساعد سينيثوس في امر خطير هو ان صدر النطق الامبراطوري لسينيثوس هذا بان يلقي خطاباً على مسامع الامبراطور اركاديوس ورجال حاشيته وكبار عمال دولته

فاصاب هذا الامر مغمزاً في نفس سينيثوس الذي كان متغيظاً جداً من سير الاعمال في حكومة القسطنطينية ومستاء من الخطل الكثير الذي انتاب جسم هذه الحكومة ولذلك اختار موضوع خطابه هذه العبارة « خطارة وظيفة الملك وواجباته نحو رعيته » . واذا صح ما نقله الينا الناقلون عن هذا الخطاب وما فيه من قوارص الكلم فهو يدل على ما كان عند الامبراطور اركاديوس من سمو المدارك وشرف النفس وحرية الفكر لانه صغى الى هذا الخطاب القاسي بكل اناة ولطف ولم يتململ من سهام الكلام الموجهة اليه كما يفعل غيره من الملوك والاقيال الذين يثقل على صماخ آذانهم قول الحق فلم تظهر عليه بوادر الغضب الكامنة في نفسه ونفس اسلافه من العنصر البيزنطي فسمع قول سينيثوس بكل هدوء ورصانة حيث قال هذا في عرض خطابه المذكور : —

(اسمع يا جلالة الامبراطور واصغ لاقوالي . أن ترفعك عن مقابلة الناس وظنك ان الاختلاط بالرعية يخفض من مقامك ويجعلك مساوياً لها — ان هذا الفكر اوجد عندك مبداء العزلة والانفراد حتي اصبحت كسجين في قصرك لا تعرف شيئاً مما يجرى في مملكتك ولا تقف على أمر من الامور السائرة في حكومتك التي لو عرفتها لصرت اكثر خبرة واوسع دراية بشؤون دولتك مما انت عليه الآن . بل خالفت القانون الطبيعي ووضعت نصب عينيك الملذات النفسانية والتمتع بكل انواع السرور التي تروق لك بغض النظر عن شعبك ورعيتك فلذلك كانت حياتك

حياة من يعيش ليأكل لا من يأكل ليعيش)

وقد وضع سينيثوس مدة اقامته في القسطنطينية نبذة سياسية تحتوي على افكار عالية ومبادىء قويمة في شكل رواية مصرية بقالب خيالي يختلب الالباب ذكر فيها كيفية الدسائس التي كان يدسها القائد جيناس ضد الامبراطور ارليانوس والمملكة باسرها . ولبراعة سينيثوس ومهارته نال من القسطنطينية المأرب الذي ذهب لقضائه ومكث لاجله فيها كل هذه المدة الطويلة ثم عاد الى بلاده ومسقط رأسه وهو يشكر هذه السوانح التي اوجدت له اصدقاء كثيرين يركن اليهم ويثني على العلم الذي كان سبباً في رفع شأنه وعلو مركزه بين العالمين

ولكن ثغر الزمان لم يدم مفتراً لسينيثوس بل شاب صفو لياليه شائبة كدر لسبب هجوم جماعة البدو الهمج على بلاده وكانوا يفدون اليها من صحراء ليبيا ويجيئون الى مقاطعة بنتابوليس (مديرية الشرقية الآن) ويغزونها حتى صيروها قاعاً صفصفاً . وقد تمادوا في غيهم وعدوانهم كثيراً لعدم وجود جند يصد هجماتهم عن البلاد كما ان معظم سكان هذا الاقليم كانوا من العبيد الذين استرقهم نزلاء اليونان قبلا واستخدموهم للفلاحة كما ذكرنا فلم تبق فيهم قوة أو معرفة بالطرق الحربية ولم يكن سوى جماعة المسيحيين القلائل وقسوسهم الضعفاء الذين اعتقلوا سلاحهم وقاموا يكافحون للدفاع عن حوزة بلادهم بقدر ما يصل اليه جهدهم ولعل هذا هو السبب الاكبر في ميل سينيثوس للديانة المسيحية وحبه لرجالها

المخلصين وهو لم يكن يعرف شيئاً عنها حتى في مدة وجوده بالقسطنطينية وبعد أوبته منها . وقد كتب فيما بعد عن هؤلاء المسيحيين يقول :ـ

« اني ابداء بشكر جماعة القسوس واثني على مروءتهم وشجاعتهم وهم الذين اظهروا من البسالة وقوة البأس ما يحمدون عليه حتى انهم فاقوا الجنود المدربة الذين لما كشر لهم العدو عن ناب الغضب ولوا الادبار ولم يقفوا له في طريق ولكن هؤلاء الكهنة البواسل جمعوا شعبهم وبعد ان صلوا الله طالبين المعونة والنصر قاموا يذبون عن بيضة وطنهم ويدافعون عنه دفاع الاسود الكواسر . ومما يجمل ذكره في هذا المقام ان الاعداء تحصنوا في أخدود (واد ضيق) كثير الادغال والاحراش وساروا نحو البلاد دون أن يقابلهم جند يصد هجماتهم ولكن البطل المقدام فوسطس وهو شماس ذكي الفؤاد اعترضهم في طريقهم وهو أعزل من كل سلاح وهجم على جندي من الاعداء مدجج بمعدات القتال وآلات الفناء فضربه بحجر في رأسه غاص في جبهته فالقاه على الارض صريعاً ونزع عنه سلاحه وتقدم نحو القوم ينازلهم ويكافحهم حتى قتل كثيرين منهم وهكذا كان حال الآخرين من رجال الدين الذين اظهروا شجاعة وبسالة تستحق المكافأة الحسنة بل لو كنت ملكا لوضعت على رأس كل منهم تاجاً من الذهب الابريز ولشهرت اسمهم في طول البلاد وعرضها لانهم من الرجال المعدودين الذين ابدوا شهامة ومقدرة يعجز عنها الاولون والآخرون حتى ظن اكثر العارفين ان اعداءنا لم

يكونوا من الغزاة الاقوياء الذين يحاربون ويقاتلون بل هم قوم خطفة سالبين يسهل الانتصار عليهم ورد كيدهم في نحورهم »

ولكن مدافعة عدد قليل اعزل من المسيحيين الاشداء لم تكن تغني فتيلا ضد جماعة من الهمج المتوحشين كثرعديدهم وزادت قوتهم حتى اضروا بالبلاد ضرراً يتضح لك مقداره مما كتبه سينيثوس في هذا الصدد حيث قال :ـ

(لقد الحق بنا هؤلاء العتاة خسارة جسيمة اذ احرقوا الزرع واهلكوا الضرع ونهبوا البلاد وسبوا النساء والاطفال وقتلوا الصغار والرجال ولم يبقوا على احد وكانوا قبلا يتركون الشبان احياء ولكنهم عدلوا عن ذلك لانه لم تكن عندهم جنود تكفي لحراسة الاسلاب والغنائم وخوض معامع القتال . كل هذا ولا تزال بارقة من الامل تضيء أمام قلوبنا حتى صرنا نمكث في منازلنا منتظرين مجيء العساكر المنظمة لانقاذنا من مخالب هذا الموت الزؤام ولكن اتضح لنا بعد ذلك ان هذا الامل يعد ضرباً من الحمق لان النجوم اقرب لنا من قدوم جنودنا ولم يبق علينا سوى ان نعتقل البيض الصفاح ونستعد للحرب والكفاح دفاعاً عن ابنائنا ونسائنا ووطننا العزيز . ولقد كتبت هذا الجواب وانا ممتط صهوة جوادي لانني مشغول في مراقبة الجيش الذي جيشته ورتبته من شباننا وشبان جيراننا وصرت الآن اسير على الاعداء والامل رائدي على ان كثيرين من الفتيان سيتبعوني ويتفانون في الذود عن ذمار

الوطن والأهل)

وكانت صعوبة هذا العمل تنطوي تحت عدم وجود الاسلحة خصوصاً وان أخاسينيثوس لما بلغه خبر هذه الحرب كتب لاخيه كتاباً شديد اللهجة يخبره فيه ان عمله هذا عرضه لتهمة خيانة الدولة لتجييشه الجيوش وتعبئة الفيالق في وسط بلاد الحكومة وهو عمل تستأ منه القوة الحاكمة وتخشى عاقبته فرد سينيثوس على اخيه يقول: —

(ان سذاجتك وبساطة قلبك وعدم تبصرك في عواقب الامور اضرت بنا ضرراً عظيما لانك اعقتنا من الحصول على الاسلحة حتى اقترب العدو منا وصار قاب قوسين أو أدنى واخذ ينهب ويسلب ويقتل ويذبح ما دام لا يوجد معنا جيش يدافع عنا ولا سلاح لدينا نصد به هذا المهاجم القوي. فهل يصح لك بعد هذا كله ان تخطئنا وتقول انه لا يجوز لاحد من افراد الرعية حمل الاسلحة النارية وان الحكومة تغضب وتغتاظ من كل شخص يدافع عن نفسه. اتمنى أن أموت يوم ان انظر بلادي تسترد مجدها الطارف وتعيد اليها سطوتها ورونقها. نعم انني اموت يومئذ قرير العين مرتاح البال على وطني الذي اليه احن ونحوه تصبو النفس وتطمح الابصار)

وقد كتب سينيثوس بعد ذلك الى العلامة هيباشا في هذا الصدد يقول:

(اذا صدق قول هوميرس الشاعر — « في الجحيم من يذكرك» على الاخرين فهو لا يصدق عليّ انا الذي ما زلت اذكر العزيزة هيباشا

بين شفرات السيوف وصلايل بيض الهند . وانني لاخاف على قلبك ان يتصدع اذا انا ذكرت لك ما اعانيه من حزن يقصم الظهور على بلادلي اناخ عليها الدهر كلكله وما انا فيه من كآبة واسى على رجال كرام يجز العدو رؤوسهم بسيفه الصقيل كما يجز الجزاز صوف الغنم أو كما يجز الجزار رأس الكباش حتى صار الهواء الذي استنشقه ملآناً بالروائح الكريهة المتصاعدة من جثث القتلى واشلاء الموتى ولذلك صرت انتظر الموت لنفسي بين آونة واخرى وأرى كأن هذه الطيور الجوارح التي تحوم في الجو تأكل من جسدي بعد موتي كما هي الان تمزق اجسام هؤلاء الموتى المساكين وتملأ بطنها بها . كل هذا وانا لا ازال على ما انا عليه من الحب لوطني والميل الى بلاد تضم رفات اجدادي الكرام والنفس في تحن الى ارض يحوي تربها بقايا أولئك الآباء الذين شادوا لنا صروح المجد والفخار فلنبرهن باننا ابناؤهم لا ان نعق جميلهم علينا وعلى هذه البلاد با كملها . فاذا ساعدنا الدهر وفزنا بالنصر لتبعت اميال قلبي من نحوك وتركت هذه البلاد وجئتك يحملني اليك الشوق ويحدوني حادي الود الصحيح والولاء الطاهر . فصبراً)

وكانت النتيجة ان سينيثوس فاز بالنصر الذي كان يرجوه فعاد الاعداء نا كصين على اعقابهم وتمتعت البلاد بالراحة والهناء بعد طول الجهاد والعناء . اما سينيثوس فوفي بوعده مع هيباشا وسار يحث المطايا الى الاسكندرية لزيارة هذه العالمة التي اشتهرت بجمال الوجه وكمال العقل

فحدث له في هذه المدينة حادث يستحق الذكر هو ان قلبه وقع في نخاخ الحب لآنسة مسيحية ومال الى الاقتران بها فسعى جهده الى اقناعها بذلك فرضيت وعقد لهما البطريرك ثوفيلس عقد الزواج (مع ان سينيثوس لم يكن قد صار مسيحياً بعد) وكان هذا البطريرك فرحا بذلك الزواج الذي يقرب هذا النابغة الى الديانة المسيحية ويوجد بينها وبين صديق هيباشا رباطاً متيناً لانه يظهر ان العالمة هيباشا كانت في ذلك الوقت خصما لدوداً للبابا ثوفيلس كما كانت كذلك مع خلفه كيرلس

ولم يعتنق سينيثوس الديانة المسيحية عند زواجه ولم تخمد نار محبته الطاهرة لمعلمته هيباشا وقد كانت قرينته من صديقات هيباشا المسيحيات وفي الاربع سنوات التي تلت قران سينيثوس أخذت الديانة المسيحية تعمل في قلبه عملها المعروف حتى اعتنقها بسرور وفرح لا يوصفان ولا غرو فى ان القلب النقي والعقل الذكي يقبلان هذه الديانة الطاهرة باسرع مما تقبل الارض الظمآنة ماء المطر المتأخر

أما زواج سينيثوس فكان فى سنة ٤٠٣ ومكث في الاسكندرية سنتين بعد زفافه وضع في اثنائهما فذلكة عن الرؤى والاحلام والف أيضاً نبذة أبان فيها ما يعتقده هو في الديانة المسيحية وما يعتقده باقي المسيحيين فيها ولسبب هذا الاختلاف بينه وبينهم . وقد جعل سينيثوس اهمية كبرى للرؤى والاحلام وقال ان احلامه التي كان يراها في منامه كانت الرائد الوحيد له في اعماله أما النبذة الثانية فكتبها ليرد بها على

الانتقاد الشديد الذي وجهه ضده فلاسفة الوثنيين ورهبان المسيحيين وليدفع عن نفسه ما رموه به من سفاهة الرأي واعوجاج المبداء في كونه خالف ذلك الفكر الشائع في مصر بخصوص الرهبنة والتبتل حتى ان البعض يذهبون الى ان مبداء الرهبنة وتعميمها في مصر كان السبب الوحيد في تأخير سينيثوس عن اعتناق الديانة المسيحية من زمن مضى . ولما اكمل سينيثوس وضع هذين النبذتين ارسلهما الى العلامة هيباشا لتنتقدهما وتمحصهما فلما وقفت عليهما سرها ما فيهما من غزارة المادة وقوة الحجة ويؤخذ من الملحق الذي صنفه سينيثوس لهاتين النبذتين انه صار مسيحياً في اثناء الثلاث السنوات التي مكثها في وطنه بعد عودته من الاسكندرية ويحتمل ان عماده تم بعد زواجه بنحو خمس سنوات

أما سينيثوس هذا فكان شاعراً بارعاً وناثراً ماهراً ظهرت نفحات تأثير الديانة المسيحية في افكاره فأثرت في شعره ونثره . ولما رجع الى بلاده سنة ٤٠٤ وجد انه قد عادت الى عترها لميس وان جماعة الغزاة المتوحشين عاودوا الهجوم على البلاد لانهم سخروا بحاكمها وهزأوا بضعف رأيه وخوار عزيمته فلم يكن ثمت وقت لسينيثوس يتمتع فيه بالسعادة العائلية أو يغوص بافكاره في لجج العلوم وبحارها فيستخرج منها ما يزري بالدرر الغوال فعاد الكره على الاعداء حتى في جواباته وخطاباته لاصدقائه في الاسكندرية التي كنت لا تقرأ فيها سوى ذكر بيادر حرقت وقطعان نهبت وقرى سلبت واصبح جميع الناس يستعدون للقتال والنزال . أما

حاكم هذه المقاطعة فترك وظيفته وفر هارباً فرار الجبناء الانذال ففوضت الحكومة الى سينيثوس امر الدفاع عن بطلومايس عاصمة اقليم بنتابوليس ففعل في مهمته هذه فعلا يظهر لك مقداره من نصوص المكاتيب الآتية حيث قال :—

(لما رأى الحاكم ان الخطر يتهدده انزل جميع نقوده وأمواله في السفينة ثم تبعها هو وابحر الى حيث يأمن الشر واخذ يصدر لنا الاوامر تباعاً بواسطة زورق صغير بان نظل مختبئين داخل جدران منازلنا وان لا نهاجم هذا العدو القوي ولا نعتدي عليه بل يكفي ان نتخذ خطة الدفاع فقط والا فنحن مسؤولون عما يلحقنا من الضرر وجنابه خال من كل لوم وتثريب . فكنا نقيم اربعة حراس في الليل يحرسون المدينة وتعلمنا ان الخطر كل الخطر في غمض الاجفان وملء العيون نعاساً وليعذرني الاصدقاء في عدم المداومة على ارسال الخطابات اليهم لان وقتي قصير وهوذا أنا مشتغل الان في تدبير طريقة اصنع بها منجنيقاً يصب على الاعداء صباً من الحجارة ويرمي عليهم ادوات الفناء على مسافة بعيدة

أما الخطة التي سرت عليها في امر الدفاع هذا فهي انني امتطي متن جوادي في دجى كل يوم واخرج لاستطلاع طلع هؤلاء اللصوص الذين لا اسميهم اعداء ولكنني أدعيهم سلبة خاطفين لا يأتون شيئاً سوى النهب وقتل الضعيف الذي لا سند له ولا عضد . فاذا جن الظلام وارخى الليل سدوله خرجت في نفر من الشبان الاقوياء ودرنا حول التلال

والكثبان حتى يطمئن بال النساء ويأمن آمنات طوارق الحدثان. وعندي الآن فرقة من الجند كانوا قبل تعيين حاكمنا الحالي يادة راكبة يرمون السهام من فوق ظهور الشهب المطهمة فلما تعين هذا الوالي باع خيولهم فاصبحوا يؤدون خدماتهم معي ولا جياد معهم ولكنهم يحسنون رمي السهام التي تفيدنا كثيراً في رد العدو عن المنازل وصده عن النهر الذي نشرب منه لاننا لا نجد الماء داخل المدينة . ولا يحوجني في هذه الحالة سوى بعض رجال لهم صفات الرجال الشجعان فبمعونة الله ومساعدة هؤلاء الابطال اضمن الفوز والنجاح .اما اذا كان نصيبي الموت لاجل وطني فلا يجب عليّ ان اجزع منه ولا احزن على فناء جسم يقول عنه جماعة الفلاسفة انه كتلة لحم نتن اذ لم يأت بفائدة لبني الانسانية .ولكن لا يلومني اللوائم اذا انا اذرفت الدمع الغزير عندما اتذكر قرينتي وولدي لان الاحساسات الابوية امر طبيعي لم يخل منه الحيوان فضلا عن الانسان)

كانت النتيجة بعد هذا الجهاد ان مساعي سينيثوس قورنت بالفوز والنجاح وكللت اعماله باكليل الظفر والفخر الذي يناله كل خادم للانسانية ساع في صالح ابناء امته من قلب مخلص وضمير طيب وانتهى الامر بعزل ذلك الحاكم الجبان وتعيين بدله من الرجال الاقوياء القادرين على صد الغزاة وخفض شوكتهم وكسر قوتهم . وحينئذ صفا الجو لسينيثوس فعاد الى الفلسفة وابحاثها وانكب يتعب على العلوم ويسعى خلفها بعزمه الاول وكان الرجل ميالا الى الفلسفة والتفقه فيها اكثر من ميله الى

العلوم الاخرى وهو يضاد في ذلك المبداء الذي سار عليه ناشئة بنتابوليس في ذلك الحين من تفضيلهم العلوم والفنون على الفلسفة وفروعها وهاك ما كتبه سينيثوس في هذا الصدد : —

(انني لاادري أثراً للفلسفة في ليبيا باكملها ولا اسمع لها صوتاً سوى صدى صوتي الذي يرن في الآذان فان لم يشهد احد لي بهذه الاسبقية فان الله جل شأنه يعلم انني باريت الاخرين في هذا المجال الفسيح لانه اعطاني عقلا نيراً هو صنع يديه . كذلك النجوم والكواكب تنظر اليّ من فوق مفترة مبتسمة لي لانني اعتني بامرها وارقب حركاتها وارصد دورانها وميلها في فضاء هذا الجو الواسع الذي يبهر الانظار ويحير العقول)

وقد سعى سينيثوس كثيراً في تنظيم رديف عسكري وطني في مقاطعة بنتابوليس ولكنه لم يفلح ولم يقبل أحد رأيه لان سياسة الدولة الرومانية لم تكن لتسمح للمصريين الكارهين سلطتها بالتجند وحمل السلاح . وقد شرع سينيثوس ايضاً في مشروع مفيد هو ان يعهد بتعيين حاكم مقاطعتهم الى والي مصر لا لديوان الامبراطور في القسطنطينية وذلك لانه اتضح له بعد الاختبار الكثير ان تعيين الحاكم من قبل الامبراطور يكون مجلبة للضرر وسببه انه لا يطمع احد بهذا المنصب في بلاد بعيدة محفوفة بالاخطار الدائمة وغزوات القوم المتوحشين سوى رجل يكون غرضه الاول جمع المال والحصول على الثروة في مدة ولايته التي هي عبارة عن التزام أو استئجار هذه الولاية . وقد ضرب سينيثوس

مثلاً هو ان احد حكام بنتابوليس جمع ثروته بطرق دنيئة قبيحة منها انه فتح بيتاً لا ينبغي ذكره لهذا الغرض . وقد كان الناس يرسلون شكاويهم تباعاً الى القسطنطينية ولكن بدون فائدة واحياناً لا تصل هذه الشكاوي الى ولاة الامور لصعوبة المواصلات وبعد المسافة بين هذه المقاطعة وتلك المدينة القاصية مع ان اكثر البيوتات الشهيرة في قضاء بنتابوليس كان لها اقارب واصدقاء في الاسكندرية حيث يسهل التخاطب معهم وايصال طلباتهم اليهم لرفع حيف أو طلب انصاف

ومضى الزمن الطويل ولم يعبأ احد من رجال بطانة الامبراطور بهذه الطلبات العادلة فهاج السكان وماجوا وسعوا في دس الدسائس ضد الدولة فاذعنت هذه الى مطاليبهم واستدعت الحاكم العسكري الذي كان عليهم وعينت بدله حاكماً اسوأ منه حالاً وارداء خصالاً كان مشهوراً في الولاية باكملها بالشر والفساد فحنق جميع افراد الرعية وغضبوا من هذا الظلم الجائر وقاموا كرجل واحد بطريقة لم تكن تنتظر منهم حتى كادوا يشعلون جذوة ثورة في البلاد لا تخمد نارها الا بشق الانفس

ولا يخفى انه مذ ما جلس قسطنطين على العرش الروماني صارت السلطة الرومانية في مصر تنسل شيئاً فشيئاً من يد الامبراطور وعمالئه الى يد البطريرك والاساقفة واصبحت القوة الحقيقية في القطر المصري

في قبضة الاباء الروحيين بدل الولاة الزمنيين (١) وسبب ذلك بغض المصريين للحكم الروماني حتى تطرفوا اخيراً وصاروا لا يخشون سطوة هذه الدولة ولا يهتزون لهيبتها ولا يهتمون لامرها سوى في دفع الضريبة السنوية المفروضة عليهم التي لم يدفعوها الا بعد تعب ومقاومة وتحكم سوط الجباة في اجسادهم كما اشرنا الى ذلك قبلا . فما داموا يدفعون الضريبة ويؤدون جزية الحنطة المفروضة عليهم سنوياً الى القسطنطينية فالديوان الامبراطوري لا يهمه من أمر مصر شيء ولا يعمل على مافيه راحتها وانصافها سوى انه كان يتميز غيظاً وحسداً من ازدياد سلطة بابا الاسكندرية وامتداد نفوذه الادبي والروحي . كذا كان انسلال السطوة من ايدي الحكام الى الاساقفة سارياً في جميع انحاء المملكة على النمط الذي سرى عليه في مصر وذلك لان الوالي من هؤلاء الولاة لم يكن يعرف شيئاً عن البلاد التي يحكمها ولم يكن يفكر في تقدمها وارتقائها

(١) في مدة حكم امبراطرة الروم كانت مصر مجزأة الى ست مديريات يحكمها ولاة من قبل الامبراطور يستمدون الاوامر من القسطنطينية وليس لاحد في مصر حق الرئاسة عليهم . كذا كان الجباة الذين يجمعون اموال الخراج تحت سلطة القسطنطينية رأساً ولا علاقة لهم مع ولاة مصر . ثم قسمت مصر بعد ذلك الى ثمانية اقضية (١) طيبة العليا تتبعها ١١ مدينة (٢) طيبة السفلى ولها عشر مدائن بما فيها الواحات البحرية (سيوى) (٣) ليبيا العليا أو قورينه (٤) ليبيا السفلى (٥) اركاديا (نسبة الى الامبراطور اركاديوس) (٦) نصف الدلتا الشرقي (٧) نصف الدلتا الغربي (٨) من تل بسطة بمديرية الشرقية لغاية البحر الاحمر

بل كانت علاقته معها كعلاقة المستأجر مع اجيره أو كعلاقة الغريب النازح مع المستوطنين فضلا عن ان الاساقفة كانوا دائماً مصريين ينتخبون من ذات الابروشية التي يعينون فيها ولذلك كان يحبهم شعبهم ويرضخ لاشاراتهم ويطيعهم طاعة تامة بحيث لا يخالفون لهم قولا ولا يسيرون على غير رأيهم. اما الاساقفة الذين اصلهم رهبان ورقاهم أثناسيوس وثوفيلس فمع انهم لم يكونوا محبوبين كثيراً من شعبهم لجمودهم وبلادتهم ولكنهم كانوا يملكون قلوب الرعية في ابروشياتهم بواسطة تقواهم وعفتهم ولان بعضهم كان عارفاً بقشور من علوم المصريين القدماء وفلسفتهم فكانوا يظهرون امام الشعب بمظهر العالم العارف ويموهون على البسطاء السذج منهم فلم يكونوا يخرجون عن طاعتهم أو يعرفون حاكماً لهم غير هؤلاء الاساقفة فقط . والذي زاد انحراف الرعية عن الحاكم الروماني وبغضها له ما وجد في طبع هذا من الجشع والطمع وعدم المقدرة على ادارة امور البلاد بالحكمة والسداد حتى ان اهالي المديرية مثلا كانوا كثيراما يهبون الى تغيير حاكمهم ويقع اختيارهم على رجل ينتخبونه ثم يلتمسون من البطريرك تعيينه اسقفاً عليهم ليحكمهم ويسوسهم. وكثيراً ما يكون في الابروشية اسقف يؤدي اعمالها ويدير حركتها ولكن لاتساعها وتعدد مدنها يعمد بعض اهاليها الى تعيين اسقف آخر تعهد اليه اعمالهم فيلحون على البطريرك والاسقف الاصلي باجابة طلبهم ورسم الاسقف لهم وتخصيصه بابروشيته خاصة به وبهم أو على الاقل تعيينه معاوناً للاسقف القديم

ولهذا السبب لم يعبأ سكان مقاطعة بنتابوليس بتعيين الوالي اندرونيكس حاكماً عليهم وذلك لان مقاطعة بطلومايس التي كان له حق السلطة الدينية على ابروشية بنتابوليس كانت بدون رئيس ديني فصمم الشعب على اختيار سينيثوس اسقفاً ووالياً عليهم فلم يتوقف البطريرك ثيوفيلس في رسامة سينيثوس ولم يتردد في اجابة طلبهم لانه كان راغباً في اعطائه هذا المنصب اكثر من رضى سينيثوس به . وفي هذا الحين كتب سينيثوس كتاباً مطولا ارسله الى اخيه الذي كان مقيما حينئذ في الاسكندرية واوصاه باطلاع البطريرك على فحواه وهو يتضمن الشكر الكثير والثناء الوافر على مواطنيه الذين زادوه شرفاً باختيارهم اياه لهذا المنصب الخطير الذي شعر بعدم كفاءته له وعدم رغبته في هذه الوظيفة لاسباب ذكرها في الخطاب المذكور نأتي على مغزاها حيث قال :—

(انني اقسم اوقاتي الى قسمين للرياضة والنزهة وللدرس والمطالعة ففي الوقت الذي اشتغل فيه بالدرس خصوصاً في الكتب الدينية انقطع عن أي عمل آخر وامنع نفسي عن ممارسة أي شغل ولما اذهب للرياضة وتسلية الخاطر اكون رجلا ورعاً تقياً والورع لا يهتم بالرياضة الجسدية ولا بما ينزه النفس ويسر الفؤاد كما ان العيون كلها تتطلع نحوي لترى ما اذا كنت متمما لواجباتي قائماً باعباء وظيفتي وويل لي اذا قصرت في امر. كذا تجبرني وظيفتي الدينية الى الابتعاد عن العزلة أو الانقطاع للدرس والمطالعة بل الزم بمخالطة الناس وصرف كل اوقاتي معهم في التعليم والارشاد

ولا انسى انني ساكون بمفردي مسؤولا عن كل شخص حاملا اثقال جميع الناس وهذا عمل يحتاج رجلا نادر الصفات ثابت الجنان قوي العقل والجسم ليقوم بشعائر هذه الامور الروحية بدون كلل أو ملل)

وفضلا عن هذه الاسباب السالف ذكرها كان يوجد سببان قويان جداً يحملان سينيثوس على الابتعاد عن هذه الوظيفة ورفضها بتاتاً. ذلك انك عرفت في الذي مر انه في مدة الاربعين سنة الاخيرة جرت العادة بانتخاب الاساقفة من طغمة الرهبان وصار القس المتزوج محروماً من الترقية لمثل هذه الوظائف. ولقد اعترض سينيثوس على هذه القاعدة اعتراضاً ملئه الحجة القوية والبرهان الصحيح حيث قال.

(ان الله والناموس ويد البطريرك ثوفيلس سلمتني امرأتي التي اصرح جهارا انه لا توجد قوة في الكون غير الموت تقدر تفصلني عنها كما انني لا اسير على مذهب ضعاف العقول الذين يقولون ان ابتعدعنها وازورها سرياً كما يفعل الزناة الخاطئون فهذا العمل يخالف الانسانية والشرائع الالهية وعليه فسأظل ملتصقا بقرينتي الى النهاية واطلب الى الله ان يرزقني منها اولادا اتقياء يعبدونه ويخدمونه)

هذا سبب من السببين اللذين بغضا سينيثوس في وظيفته الاسقفية أما السبب الثاني فيختص بآرائه الدينية ومذهبه واعتقاده. فمعلوم انه لم يمض زمن طويل على صيرورة سينيثوس مسيحيا كما انه تربى تربية وثنية ورضع اللبان فلسفة هذه الديانة وعلومها ولذلك كانت افكاره في بعض

النقط الدينية لا تزال مرتبكة مضطربة مع انه عاهد نفسه عهدا متينا بعدم الخوض مع شعبه في المسائل اللاهوتية الغامضة قائلا في نفسه ان ما فائدة العامة من البحث في الامور الفلسفية العويصة ما دام ان الله سهل المأخذ قريب الايمان به ومعرفته بامور بسيطة لا تحتاج للتنقيب عن اسرار والغاز تدهش العقل واللب ولذلك رغب في عدم ايجاد امر يشتم منه سوء الفهم بينه وبين البطريرك وكتب يقول :

(انني اذا دعيت لمنصب الاسقفية فلي كلمة اقولها لا استطيع كتمانها وهي حقيقة يشهد على صحتها الله والناس ولا اخشى في قولها لومة لائم لان الحق من عند الله الذي احب ان اكون امامه بلا لوم . ذلك انني مغرم من نعومة اظفاري بمواد الرياضة والتسلية ولي ميل شديد لاقتناء الاسلحة الفاخرة واحراز الخيول الاصايل ومع ذلك فانني راض ان اترك كل هذه الاشياء واتخلى عنها ولو انه يسوؤني ان أرى كلاب الصيد التي لي محجورة لا تصطاد ولا تطارد فريستها وان اترك سهامي واقواسي عرضة للعث والسوس ينخرها ويأكلها ولكن هذه جميعها شيء تافه زائل لا يهمني اذا اراد الله أن يستعملني آلة لمجد اسمه واصطياد الناس .

وكما انني ابغض كل ما يشغل بالي ويتعب عقلي ولكنني مستعد لتكريس نفسي لخدمة المسيح خدمة احتمل في سبيلها كل عناء وتعب الا انني لا استطيع ان اغش نفسي من جهة العقائد ولا ان اقول ضد ما اضمر ولا اصرح للساني ان ينطق ضد الذي في جناني . وعليه فانني ارجو ان الاب ثوفيلس المحترم يخبرني برأيه جهاراً من نحوي وان يقول عني ما يعرفه فيَّ دون كتمان فاما ان يتركني وشأني اعيش لنفسي باحثاً في

الفلسفة واصولها أو يعطي ضماناً كافياً حتى لا يحاكمني احد فيما بعد لاجل افكاري ويحكم عليّ بالطرد من وظيفة الاسقف التي يختارني الشعب لها)

ويظهر ان البطريرك ثوفيلس سلك في هذا الامر مسلك الحكمة والتعقل خلاف ما كان ينتظر منه قياساً على تهوره واندفاعه في مسألة الرهبان ويوحنا كريستم . فان هذا البطريرك مع ما عرف عنه من الغلطات الكثيرة كان عاقلاً خبيراً رأى الفائدة العظمى التي تنجم من ادخال سينيثوس ضمن الرعاة ولينع الشبهة الموجهة ضده من انه شاع في ذلك الوقت ان له افكاراً تخالف نصوص الكتاب المقدس . اما فيما يختص بامرأة سينيثوس فان ثوفيلس لم يبد ادنى اعتراض على زواجه هذا لانه راى في مدى العشر سنوات الاخيرة الخطر الهائل الذي ينجم من الرهبنة ومصائبها . وقبل ان يقر الرأي على امر ذهب سينيثوس الى الاسكندرية ليستشير ثوفيلس شخصياً في هذا الشان وحينئذ شاع بين اهالي بنتابوليس الخماعة انه اذا رفض سينيثوس اجابة طلبهم ولم يقبل وظيفة الاسقفية فلا يمكنه الرجوع الى وطنه والسكنى بين مواطنيه

وتم الامر اخيراً واختير سينيثوس اسقفاً لبنتابوليس سنة ٤١٠ وعند تعيينه ارسل جواباً في هذا المعنى الى اساقفة بطلومايس ناتي لك على مغزاه وهو .

(حيث ان الله جل وعلا اختارني لهذه الوظيفة طبقاً لارادته لا لارادتي فانني اطلب منه بالحاح ان يهبني الصفات العالية حتى اسلك في هذه الوظيفة سلوكاً يرضيه وان اعمل ما يطلبه مني . فانه لا يمكن القيام باعباء هذه المرتبة الخطيرة لانني رجل ضعيف لا المام لي الا بالفلسفة العالمية ولا معرفة عندي سوى ما تلقنته في حداثتي من العلوم الوثنية ولكن اذا ساعدني الله واخذ بيدي واعدني لهذا العمل العظيم عشت عيشة اخدمه فيها واخدم كنيسته خدمة يطلبها من كل شخص وضع يده على المحراث نظيري . وعليه فانني ارجوكم ايها القسوس ان ترفعوا ايديكم نحو العزة الالهية وتبتهلوا الى الله العظيم وان تطلبوا من شعبكم ان يصلوا معكم من اجلي الى الله لكي يساعدني ويأخذ بيدي وينجح عملي . فاذا عضدني الله فانني اضع مركز الاسقفية هذا فوق كل مركز آخر من نوعها وارفعها بمعونة القدير الى اعلى عليين .)

وقد قضى سينيثوس ثلاث سنوات في وظيفة الاسقفية ذاق فيها كل انواع العناء والتعب . فانه بعد عودته من الاسكندرية عند اتمام رسامته وجد مقاطعة بطلومايس في هياج واضطراب ذلك لان الوالي اندرونيكس ارتكب فيها من الفظائع مالا يحصره القلم فانه اضطهد شعب هذه المقاطعة الواقعة على حدود مصر بعيد عن سلطة الولاة العظام دون ان يقترف هذا الشعب جرماً يوجب اضطهاده وعذابه سوى ان هذا الوالي الظالم كان يسعى في ابتزاز اموالهم واخذ مقتنياتهم لنفسه وهذا هو سبب ما ارتكبه من القبائح والمظالم . وقد تفاقم الخطب جداً وذاق الناس مرارة العذاب المريع الذي سكبه عليهم اندرونيكس فهرعوا الى دار الاسقفية يطلبون لانفسهم ملجأ ومدافعاً يدرأ عنهم هذا الشر المريع فقام سينيثوس وعنف الوالي على عدوانه وشره وسعى جهده في حمله على الكف عن هذه الفظائع ولكن الشعب تذمر وتضجر وظنوا ان سينيثوس زعيمهم ومقدامهم لم يعبأ بهم ولم يلتفت لامرهم وكأن المصائب توالت تباعاً على رأس هذا الاسقف الهمام فمات ابنه الوحيد ولم يسمع الله لصلواته الحارة التي قدمها طالباً شفاوه فقنط سينيثوس واستولى عليه اليأس حتى انه عمد الى الانتحار ليخلص من حياة ملؤها الهم والكدر . . وكان قبل هذا الوقت ارسل مكتوباً شديد اللهجة الى القسطنطينية يحتج فيه على سلوك الوالي المذكور ولكن الشعب لم يمهله حتى يصل رد مكتوبه فتشكل سينيثوس حينئذ مجمعاً حافلا في الكنيسة الكبرى وأصدر فيه حكماً بحرمان اندرونيكس والقى موعظة مؤثرة شرح فيها الذنوب والآثام التي ارتكبها هذا الوالي حتى اضطر ان يتخذ ضده ما اتخذه وختمها بقوله

(بناء على ما اتاه اندرونيكس من الفظائع اصدرت كنيسة بطلومايس الامر الآتي الى جميع الكنائس في المسكونة وهو : لا يجب ان تفتح كنيسة او هيكل في وجه اندرونيكس وعائلته وثواس وعائلته وهو الذي كان آلة شر لهذا الوالي الظالم وساعده في مظالمه ولتقفل جميع الابنية المقدسة في وجه هذين الاثيمين فلا يدخلانها ولا يقبلان في عضوية كنيسة ابن الله . وكما ان الشيطان لا نصيب له في ملكوت السموات فهكذا هذان الظالمان لا ينجانها بل يطردان خارجاً حيث يكون البكاء وصرير الاسنان وعليه فانني احذر جميع الناس من اي طبقة كانوا ان لا يساكنون هذين

الشريرين ولا يخالطونهما ولا يؤاكلونهما كما انني انبه على الاساقفة ان لا يتكلمون معهما وهم احياء ولا يدفنونهما بعد موتهما . واذا ارتأى شخص ان يحتقر هذا الامر لانه صادر من كنيسة صغيرة حقيرة ككنيستنا فيختلط بهذين الشقيين فليعلم انه خالف ارادة الله الذي ارسل ابنه المسيح ليفتدي هذه الكنيسة ونظيراتها بدمه ويجعلها كنيسة واحدة في اسمه ولذلك نضطر ان نعامل هذا الشخص سواء كان اسقفاً او شماساً او عالمانياً معاملة اندرونيكس نفسه فلا نجالس معه ولا نأكل من اكله لانه يكون قد فضل اندرونيكس وثواس الشريرين علينا ولم يقبل حكمنا)

فلما بلغ اندرونيكس خبر هذا الحكم وعرف انه على وشك النشر بين اساقفة بنتابوليس جاء الى سينيثوس مقراً بذنبه تائباً عما اقترفه من الذنوب والآثام طالباً فسخ هذا الحكم وابطاله ، فلم يعتمد سينيثوس على قول اندرونيكس ولم يثق بكلامه انما اوقف نشر الحكم الى حين لئلا اذا عرف هذا الوالي ان الحكم الذي صدر ضده اصبح لغواً قد يعود الى ارتكاب الشرور التي نشاء عليها

واذ عرف سينيثوس ان الطبع غلاب وان هذا الوالي الغاشم لا يمكنه التنازل عن عاده انفذ عليه حكم الحرمان وكتب الى البطريرك ثوفيلس يعلمه بذلك ويطلب منه معاملة هذا الرجل بما يستحقه من الاغضاء والاحتقار

ولما اراح سينيثوس رعيته من ظلم هذا الظالم جال في هذا الاقليم يفتقد شعبه ويؤاسيهم ووصل في سياحته الى قريتين واقعتين على حدود صحراء ليبيا وكانت هاتان القريتان قد انتخبتا اسقفاً نشيطاً عاملاً في مدة حكم فالنس ليرد عنهما هجماته ويدفع عنهما غوائله وكانتا قد طلبتا من البطريرك اثناسيوس ان يكرسه لهما ففعل واختص هذا الاسقف النشيط بابروشية صغيرة تابعة في اعمالها لابروشية بنتابوليس وعند زيارة سينيثوس لهاتين القريتين كان الاسقف المذكور قد انتقل الى رحمة مولاه فطلب من ثوفيلس ان ينتخب خلفاً له . وحدث ان بولس اسقف ابروشية صغيرة اخرى اسمها ارثون كان محبوباً من الجميع فطلب اهالي القريتين المذكورتين ان ينضموا الى ابروشيته دون ان ينتخبوا اسقفاً جديداً لهم . وكان لما جمعهم سينيثوس وطلب منهم اختيار خلف لاسقفهم المتوفي بدت منهم الامور التالية التي نشرحها لك في السطور الآتية:

(عندما تكامل عدد الشعب الذي جمعه سينيثوس وطلب منه انتخاب اسقف

طرح الشعب كله انفسهم الى الارض واخذوا يتوسلون الى البطريرك ثوفيلس كما لو كان حاضراً وطلبون منه بدموع ان يجيب طلبهم و يضيفهم الى هذا الاسقف الذي قالوا عنه وكانوا يفعلون ذلك بدون ترتيب او نظام بل ما كنت تسمع الا زفرات تتصاعد من افواه الرجال وشهيق يردده النساء وبكاء من الاطفال يملأ الفضاء حزناً وكمداً عن كرسي اسقفهم المحبوب الذي اصبح خالياً منه بعد موته · فلم يستطع سينيثوس ترتيب هذا الجمع المختبط وحينئذ صرف الشعب بعد ان اخبرهم بالعودة الى هذا المكان بعد اربعة ايام · فلما اجتمعوا في الاجل المضروب حدث ما حدث اولا من الاختباط فاضطر سينيثوس ان يكتب بالتفصيل الى البطريرك ثوفيلس و يحيطه علماً بما حدث و يطلب منه القول الفصل في هذا الامر)

ولنا في القصة التالية اعظم دليل على صفات الاسقف بولس الممتازة التي جذبت اليه قلوب الشعب في انه كان رجلا تقياً نشيطاً يقدر يفيد اصدقاءه ويضر مبغضيه اما هذه القصة فهي انه كان يوجد بقرب احدى القريتين المذكورتين قبلا اطلال قصر قديم قائمة على قمة كثيب كثير الحزون و لوهاد ، وكان هذا القصر قد ابت به ايدي الزلازل فقوضت بعض جدرانه وكان بعضها يصلح لان يكون حصناً منيعاً للقرى المجاورة له تدرأ به هجمات الاعداء في هاتيك الايام التي كثرت قلاقلها وعظمت اضطراباتها حتى ان الشعب اضطر حينئذ ان يبحث عن حصن يكمن فيه عند تفاقم الخطوب حيث يكون في مأمن على المواشي والارزاق من غارات المتوحشين الذين كانوا لا يفتأون يغيرون ويحاربون · وكان هذا الكثيب والصرح ملكا لديسفورس اسقف قرية اسمها دردانوس مجاورة لاحدى القريتين المذكورتين ولذا عجز بولس عن الحصول على هذا الحصن المنيع وعليه سار اليه بالقوة الجبرية ونصب في وسطه منضدة اتخذها كمذبح وشرع في تكريس المكان ليكون ككنيسة وحينئذ صار هذا الحصن بمقتضى تكريسه ملكا لبولس تابعاً لابروشيته ولم يعد لاحد حقاً ليتصرف فيه · ولما وقع الخلاف بين الفريقين بسبب هذه القلعة رفعوا الامر الى الاسقف الكبير اعني به سينيثوس الذي لم يستحسن ما عمل ولكنه لم يعلن بطلان التكريس ولم يقل انه غير نافذ المفعول مع انه لم يشك في ذلك لانه قال ان ممارسة الفرائض الالهية وتكريس احد الاماكن لا يؤخذ منه ان هذا المكان المكرس يظل مقدساً الى الابد

والا كان جميع القصور التي تقام فيها الصلوات والخدامات الدينية في ايام الحروب تبقى كنائس بناء على هذا الرأي . ثم كتب فقرة في هذا المعنى يقول فيها : —

« انني من الناس الذين يفرقون بين الامور الدينية الصحيحة وبين الخرافات التي اعدها نوعاً من الرذيلة لها مسحة الفضيلة ويعدها العلم شكلا ثالثاً من اشكال الزندقة والكفر كما انني لا اعتقد بقداسة مكان وطهارته الا اذا اجريت فيه اعمال القداسة والطهارة . فان الايمان المسيحي المتين لا يقول بحلول الروح القدس في مكان بناء على تكريسه أو تمتمة بعض كلمات فيه ولكن الروح القدس يحل في الانفس الطاهرة والاجسام التي صارت هياكل لله ولا يسكن المسيح وسط بناء عملت له هاتيك الطقوس والرسوم لتكريسه ولكنه يسكن بين اثنين أو ثلاثة اجتمعوا باسمه . ومعلوم ان الروح الاقدس لا يحل وسط جماعة استولى عليهم الشنآن والحنق واستفحل بينهم روح النفار والتقار حتى اذا كان موجوداً في مكان دخلت فيه هذه الرذائل فلا شك ان روح الله يهرب منه ويفارقه . اذاً فتكريس الابنية لا توجب طهارتها وقداستها بل تشير فقط على تخصيصها للعبادة »

وعلى هذا المبداء القوي لم يسع الاسقف بولس الا التسليم لحكم سينيثوس وقلبه مملوء من الهم والكدر . اما ديسفورس فاظهر كرماً ومروءة يحمدان ويعد دان في انه قال باستعداده لعمل كلما يزيل الخصام ويوجد السلام وعليه اشترى منه بولس الكثيب والقصر الذي فوقه وزال الشقاق من بين الجماعات وصاروا جميعهم مسرورين فرحين

ولم يمض وقت طويل على هذا الحال حتى استدعت الحكومة القائد الماهر الذي كانت قبائل المتوحشين تخشى بأسه وحل محله قائد ضعيف جبان مهد الطرق لجماعة الغزاة بالهجوم على مقاطعة بنتابوليس كما كان الحال سابقاً . وقد كتب سينيثوس في هذا المعنى يقول : —

« قرأت في التواريخ ان مدناً وقرى لم يبق فيها سوى النساء والاطفال لسبب الخراب والدمار اللذين استوليا عليها وقد شاهدت هذه الحالة في بلادنا بل اكثر منها شراً لان الاعداء لم يتركوا النساء والاولاد بل اتخذوهم غنيمة لهم وكانوا يبقونهم عندهم الى ان يكبروا فيرجعونهم لوطنهم ولكنهم كانوا يأتونه كاعداء بعد ان تشربت قلوبهم عداوته وبغضه حتى ان الشاب منهم كان يتلف الحقل الذي لابيه وهو لا يعلم انه له

فلو كان عندنا قائد ماهر لامكننا ان ننتقم لانفسنا من عدو دنيء مهان انتهك حرمة الاشياء المقدسة عندنا ولم يترك مكاناً مقدساً الا وداسه برجليه الدنستين ولم يدع قبرا او حدثاً الا ونبشه نبشاً ولم يترك كنيسة الا واحرقها ودنس المذابح المقدسة واستعملها لاعيادهم وولائمهم واخذ الاواني المقدسة ووضعها في هيا كل الاصنام والشياطين فضلاً عن القلاع التي هدمها والمواشي التي استاقها والعقارات التي سلبها حتى اصبحت مقاطعة بنتابوليس خراباً لا يأوى اليها احد ولم يبق لي بلد اين اهرب اليه الا فور ينة مسقط رأسي حيث ان نسبي يتصل بهرقل بطل الابطال . ولكن لا اهرب ولا اترك بنتابوليس التي انا اسقف لها ولا افر من القبر الذي اقبر فيه هنا . انني اشعر ان المصيبة قريبة مني حتى ان دموعي فاضت وخنقتني الزفرات فالتصق لساني بحنكي ولم اعد استطيع النطق حين افتكر بما حل ببيت الله وكنيسته وصرت في درجة الحيرة الشديدة حتى اذا ارتايت ان انجو بنفسي الى جزيرة قريبة مني اعود فاغير فكري وامكث هنا ولم يبقَ عليَّ الآن الا الالتجاء لهيكل الله والتمسك بقرني مذبحه حيث اسكب دموعي على ارضه واظل اقبل بابه ومحرابه واطلب من الله النجدة والمعونة . لان عينيَّ جفاهما النوم من كثرة القلق والاضطراب ولم تعد لي فرصة للوسن فيها يطر بق اجفاني لكثرة اهتمامي بترتيب الحرس بالمناوبة وبعد ان كنت اصرف ليلي في مراقبة النجوم والسيارات وعمل الارصاد الجوية اصبحت الآن اقضي ليلة بعد الاخرى في مراقبة العدو حتى اذا هجعت قليلا ايقظتني الاحلام المريعة والمناظر المخيفة ويخال لي في المنام انني هارب او مسجون او مجروح او مكبل بالقيود والاصفاد او باعوني عبداً رقيقاً وكثيراً ما كنت اقوم من نومي مذعوراً لانني احلم بعد هذا كله انني هربت من عدوي الظالم بعد ان استغفلت العسكري الذي كان يتولى حراستي . فلو ثبت لي ان الجزر المجاورة لنا خالية من مثل هذه المصائب لكنت ذهبت اليها وارحت نفسي قليلاً من هذه المخاوف ولكنني اخشى ان ينزل بي القدر المحتوم قبل ان استطيع الهروب اذ ان يوم الهلاك اصبح قريباً ولم يبقَ عليَّ سوى الذهاب لهيكل الله والسجود لاسمه تعالى ليرسل لنا المعونة والنجاة وقد عولت على البقاء في هذه البلاد وعدم ترك الكنيسة وساضع امامي الاواني المقدسة واتعلق بها على اعمدة الكنيسة وسابقى فيهما ما بقي فيَّ رمق ثم اموت مدافعاً عن بيت الله متمماً واجباتي لانني معين من قبل الله لتقديم القربان على مذبحه

فلا غرو اذا جاء الوقت الذي فيه اقدم نفسي قرباناً على هيكله ولاشك في ان الله يرحم شعبه اذا رأى ان مذبحه تخضب بدماء اسقفه الذي يظل اميناً له الى النفس الاخير»

وبعد ان انتهت هذه المخاوف مات ابن سينيثوس الصغير وكانت امرأته وولدان آخران قدماتوا قبله في ظرف سنة واحدة فترا كمت الاحزان على هذا الاسقف المفضال وقصمت المصائب ظهره فكتب جواباً لهيباشا الشهيرة يقول فيه . — اما انا فقد اصبت بمرض في الجسم نشاء عنه مرض في العقل والفكر لان موت ابنائي وامرأتي اخنى واسقمني فاصبحت واضرحة اولادي مرسومة امام عيني اللتين ابيضتا من الحزن ولست انساهم حتى اسكن التراب نظيرهم اما امرأتي العزيزة فانني اقول لها:

ابكيك ما بقيت حياتي بعدكِ حتى اراكِ ودمع عيني احمرا

وقد قال بعضهم ان سينيثوس اشتهر بمزايا لم تعرف عن غيره في انه كان جندياً شجاعاً وسياسياً متضلعاً وخطيباً مفوهاً وشاعراً مفلقاً وفيلسوفاً عالماً ومنطقياً بليغاً واسقفاً ورعاً كما انه كان محبوباً مكرماً من الجميع . وفي نحو هذا الوقت تنيح البطريرك ثوفيلس وهو من اقوى واشهر البطاركة الذين جلسوا على السدة البطريركية وهو اول من اطلق على الامة المصرية اسم « الكنيسة القبطية » ثم خلفه بطريرك كان سائرا على ذات الخطة التي سار هو عليها حتى اوصلا بلادهما الى درجة الاستقلال العقلي ولوانها لم تستقل اسمياً وظلت في مصر مدة تحكم نفسها بواسطة اساقفتها وبطاركتها ولم تتداخل الحكومة الامبراطورية في شؤونها مدة طويلة الا عند ظهور تهمة الهرطقة التي صرفها الامبراطور بلطف خوفاً من نتائجها

وقد اضاف توفيلس بعض القوانين الى الكنيسة يحتوي احدها على ان الاكليروس يجب ان يختارهم الاكليروس عند تعيينهم ويختبرهم الاسقف وينتخبهم الشعب بعد تمام رضائه ورغبته . ومن غريب ما يحكى عن البطريرك ثوفيلس انه قضى ايامه الاخيرة في شغل منهك مضعف حتى اصبح هزيلا ضئيلا لدرجة اوجبت له الذهول والسبات الى ان انتقل لرحمة مولاه في ١٥ اكتوبر سنة ٤١٢

تم المجلد الاول ويليه المجلد الثاني

369
294
280
432
1375

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

AUB LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00512650